النحو والفكر والإبداع

« دراسة فى تفكيك النص وتوثيقه »

دكتور

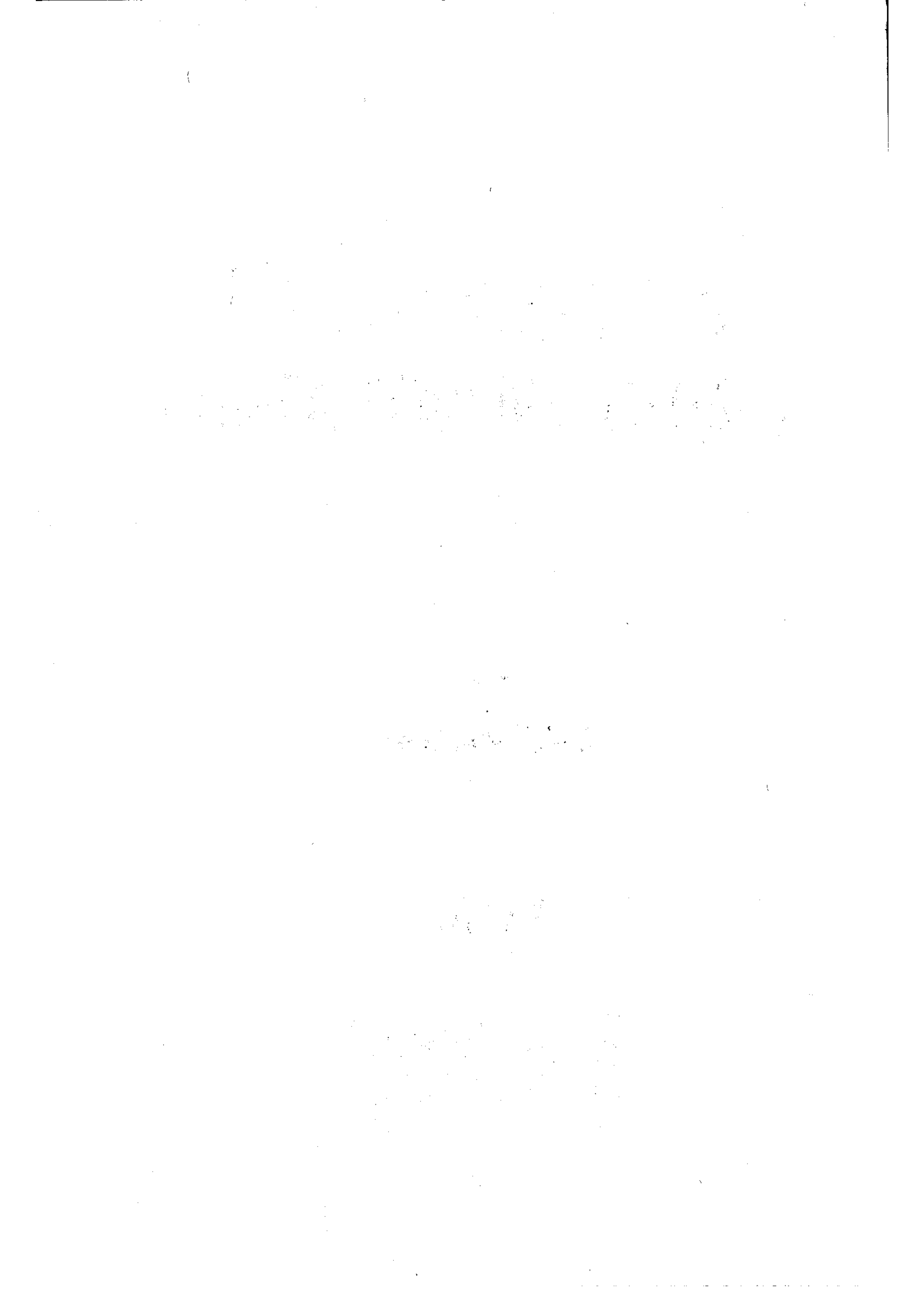
ممدوح عبد الرحمن

١٩٩٨

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦



إهــــــداء

إلى معلمتى الأصيلة السيدة / جليلة حسنين منصور التى علمتنى أبجديات الحياة والمعرفة وشمعتى التى تضىء لى السبيل بعد أن أظلمت عيناى وعونى وساعدى يوم لم ينفعنى جهدى واجتهادى وكهفى الذى أخفى فيه ضعفى عن أعين الناس وصديقتى بعد أن دفنت أصحابى فى التراب وشراعى الذى يشق لى الأجواء بعد أن ضاق الزحام بمنكبىّ ومركبى الذى يقلنى بعد أن ضاق الطريق بقدمى

فعدت كذى رجلين رجلٍ صحيحةِ

ورجل رمى فيها الزمان فشلتِ

وكنت كذات الظلع لما تحاملت

على ظلعها بَعدْ العثاراستقلت

مقدمـــــة:

الحمد لله رب العالمين الذى أنزل الكتاب بلسان عربى مبين والذى لايضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم.

إن تفكيك النص بتحليله إلى وحداته الصغرى لايعدّ بعثَرَة لهذا النص، كما أنه لايسمح لنا بأن نتهم من يقوم بهذا الإجراء بأنه صاحب نظرة جزئية، وأنه غير قادر على بناء صرح شامل هو مايعرف بالنظريات، لكن التفكيك وسيلة إلى إدراك النظريات المتبعة فى بناء النص.

ونظام النحو والوسائل التى يتيحها أو بالأحرى التى تلقيناها عن أسلافنا فى تحليلهم للنصوص العربية تعد من أدق الوسائل التى يمكن بها تفكيك البنيان سواء أكان على مستوى الكلمة الواحدة أم الجملة أم العبارة أم النص، وهى التى تتيح إدراك المضمون الفكرى أو الدلالة المقصودة من إنشاء التركيب.

أما الإبداع فهو تلك الصياغة أو النسيج الذى تألف به النص بما بين وحداته من علاقات تجعله وحدة واحدة منسجمة متسقة.

وإذا ما قرأنا أى نص أدبى وكشفنا بنيته أو بنياته وتناولناها بالتحليل، فإننا نجد أن هذه الوحدات لاتعطى المفهوم الشامل للتفكيك والتوفيق، وتناقشه كلمة كلمة ثم تعيد تركيبه بعد أن تبين طبيعته العلائقية المتشابكة تركيباً ودلالةً لتكون الانطلاقة واضحة ومحددة وذلك لأن أية دراسة تنطلق من مفاهيم غير محددة ومشوشة؛ ستؤدى حتماً إلى نتائج مشوشة.

قد ترددت فى الدراسات اللغوية الحديثة عبارات فيها انتقاد للنحاة العرب ولدراساتهم بأنها غالبا ماتميل إلى النظرة الجزئية، وأنها تقف عند حدود الكلمة الواحدة، بل وجِّهت إليهم انتقادات بأنهم «أى النحاة العرب» لم يتعدّ اهتمامهم حدود العلامات الإعرابية.

وبدأ الباحثون الشبان يتبعون خطى النقاد الأوائل للنحو العربى دون تمحيص لكتب التراث ومسائلها المختلفة وهذا شأن الباحثين الناشئين، فعندما بدأت الأبحاث

الأسلوبية تأخذ طريقها إلى العالم العربى وجدنا ثناءً من الأساتذة الكبار على جهد عبد القاهر الجرجانى والإشارة إلى فضل سبقه، وكشفه لنظرية النظم وكشف جماليات التعبير الأدبى، فإذا بنا نجد سيلاً من المديح لعبد القاهر الجرجانى من الباحثين الناشئين بل وغير الناشئين ترسماً لخطى الأساتذة الكبار ونسجاً على منوالهم.

والحقيقة أن من ينظر بدقة إلى النقود التى وجهت للنحاة العرب وينظر فى الدراسات العربية وينظر فى جهد عبد القاهر الجرجانى يجد أن نظرة النحاة العرب لم تكن جزئية فى عمومها من حيث تناول النص، وإن الاهتمام بالعلامة الإعرابية لايعدّ عيباً وإنما هو ركن هام لتحديد وظائف المكونات بالنسبة لبعضها داخل التركيب، ليتسنى فهم التركيب ودلالته الحقيقية التى هى جزء هام من أجزاء النص وبدونها لايتم فهم النص أو دلالته. ومن يطّلع على التراث العربى وتاريخه يجد من سبقوا عبد القاهر فى نظرته إلى النص مثل أبى جعفر النحاس فى تناوله للقراءات القرآنية المختلفة؛ لكن الفارق بين النحاس والجرجانى هو أن الأول كان يعالج النص معالجة تكشف عن دلالته ومقصوده الحقيقيين، وأن الثانى كان يعالج النص معالجة تكشف عن جمالياته.

والمسألة ليست أسبقية من حيث تناول النص، فقد تناول كل من اللغويين، وعلماء القراءات، والمفسرين، والفقهاء، والبلاغيين، النص العربى تناولاً كلياً يكشف عن الأغراض والدلالات الحقيقية والفنية التى هدف إليها المنشئون، والتى هدف إليها العلماء كل فى مجال اهتمامه

فإذا عرضنا للنصوص والتراكيب وطرق اتصالها بعضها مع بعضها الآخر فهذه عبقرية الإنشاء العربى. أما العرض لدراسة اللغويين والبلاغيين والمفسرين حول النص العربى فهذا يعدّ إهتماماً من جهة علماء العربية. ولذا فهناك فرق بين عبقرية النص التى تعتمد على عرض الباحث نفسه للنص وللغة، وبين العرض لدراسات السابقين والمحدثين فى تناولهم للنص العربى.

ولايعد هذا البحث من البحوث ذات المهارات الفائقة من حيث تناول

النصوص وتحليلها وإظهار البراعة فى معالجتها وفق ماتقتضيه النظرية المفترضة فى البحث، لكنه يعتمد على تناول السابقين واللاحقين للنصوص، وإن كانت هناك مهارة فالمفترض أن تكون فى عرض هذه الدراسات العربية، وتناولها بطريقة حديثة، والتدخل بعض الشئ فى تفسير معالجة القدماء والمحدثين للنصوص، لإبراز الجوانب والأفكار الدالة على اهتمامهم وطرق تناولهم لهذه النصوص وهى لاتخلو من جوانب تطبيقية تحليلية تعين على كشف خصائص النص وتحليل بنياته وكشف المشابهات بين بنيات النصوص سواء فى ذلك الداخلية والخارجية تمهيداً لنسبة النص إلى صاحبه الأصلى وفقاً لدرجة التشابه بين البنيات من حيث المضمون الفكرى أو التركيب أو الإبداع فى الصياغة. والباب الأول من هذا البحث يعرض فى فصله الأول للدراسات اللغوية والنحوية التى عنيت بالنص، والفصل الثانى منه يعرض للدراسات العربية التى تعرضت للنص العربى بالتحليل معتمدة على النحو واللغة مثل دراسات علوم القرآن والدراسات البلاغية وجهود الشراح. والباب الثانى يتعرض بالدرس لمداخل تحليل النص فعرض الفصل الأول منه للتحليل الأسلوبى ووسائله ومزاياه ومدى مطابقته وتناسبه مع النصوص التى أجرينا عليها التحليل، والفصل الثانى يعرض لتحليل نموذجين أولهما من سورة يوسف والثانى من سورة الشورى ليكشف مدى التلاؤم بين إبداع النص وقواعد النظام النحوى للغة وكشف مدى انسجام وكشف أدوات اللغة من كل نص وفقاً لمضمونه. والفصل الثالث منه يكشف مدلول الرمز فى حمّى المتنبى، ومدى تناسب أدوات اللغة مع هذه المدلولات لتؤديها بالكيفية التى أرادها المتنبى.

أما الباب الثالث فقد استثمر وسائل التفكيك والتحليل فى تحليل رسالة سهل ابن هارون المنسوبة إليه فى كتاب «البخلاء» للجاحظ التى شكك المحقق نفسه فى نسبة هذا النص إلى سهل بن هارون وذلك فى مقدمة التحقيق، حيث أشار إلى أن الجاحظ فى بداية عهده بالأدب كان ينسب الرسالة إلى غيره من الكُتاب المشهورين فكانت تلقى رواجاً من أجل النسبة وحسب أما التى كان يكتبها وينسبها إلى نفسه فلم تكن تلقى الرواج وإن حسنت.

وبهذا تركنا المحقق نفسه فى حيرة على مدى أجيال متعاقبه، ولذا قسمنا هذا الباب إلى فصلين: الأول منه يتضمن تحليل الرسالة وكشف المعضلات التى تواجهنا، أما الثانى فيبحث فى نسبة النص بتحليل نماذج من كتابات سهل بن هارون على المستوى التركيبى والفكرى والإبداعى لمقابلتها بتحليل الرسالة الذى سبق أن أجريناه فى الفصل الأول تمهيدا لنسبتها إلى صاحبها الأصلى أو ترك التحليل وعرضه أمام الباحثين ليتخذ من شاء منهم رأياً بنسبة النص إلى أى من الرجلين.

وإذا كانت الدراسات النصية العربية تبحث فى اتساق النص وانسجامه بتكامل العلاقات بين مفرداته وتراكيبه فقد أضفنا إلى ذلك تكامل العلوم العربية وانسجامها وبحثنا مدى اتساقها فى معالجة النص العربى ودرسه، وقد أضاف تحليل الشعر وآيات القرآن الكريم وتراكيب بعض الأحاديث الشريفة إلى تحليل الرسالة المنسوبة إلى سهل بن هارون بعداً هاماً وهو أن بعض الظواهر التى تختص بها التراكيب العربية راجعة إلى نظام اللغة نفسه، ونظام النحو الذى يحكم العلاقة بين التراكيب والمفردات وينظمها، أما ما انفردت به رسالة سهل بن هارون من خصائص تركيبية وبنيات خاصة فهو مايمكن به ترجيح نسبة الرسالة إليه.

وبعد فالشكر لأساتذة الدراسات الأدبية الذين تتلمذنا على إيديهم ولازلنا نتزود من خبرتهم كلما احتاج الأمر إلى ذلك، والحقيقة أن هذا الاحتياج لاينقضى.

شكراً لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور / **محمد مصطفى هدارة**.

وشكراً للأستاذ الجليل/ **الدكتور صلاح عبد التواب** الأستاذ بجامعة الأزهر بالقاهرة.

الاسكندرية

دكتور/ ممدوح عبد الرحمن

أستاذ العلوم اللغوية المساعد

الباب الأول

(العربية والنص)

الفصل الأول
الدراسات النحوية واللغوية

اهتم عدد من الباحثين العرب بعلوم اللغة منذ بداية الحركة العلمية فى إطار الدولة الإسلامية، فكان لهم جهودهم فى مجالات الأصوات، وبناء الكلمة، وبناء الجملة والمفردات. وكان المشتغلون بعلوم اللغة يُصنِّفون إلى مجموعتين، تهتم المجموعة الأولى ببنية اللغة، وتهتم المجموعة الثانية بمفردات اللغة ودلالاتها. وقد وُصف مجال البحث عند المجموعة الأولى بأنه «النحو» أو «علم العربية» فى حين وُصف مجال بحث المجموعة الثانية بأنه «اللغة» أو «علم اللغة» أو «فقه اللغة» أو «متن اللغة». وإلى جانب هذه العلوم وجدت محاولات لوصف علوم اللغة مجتمعة فسُميت «علم اللسان» أو «علوم اللسان العربى» أو «علوم الأدب» أو «العلوم العربية» كما وجدت إلى جانب هذا محاولات لبيان ترابط هذه الأفرع، وإيضاح النسق الذى يتخذه كل منهما فى إطار البحث اللغوى العام[1]. لقد كانت نظرة اللغويين وفقهاء اللغة تبدو جزئية تقوم على تناول المفردات وجمعها وتصنيفها. أما نظرة النقاد والبلاغيين وبخاصة علماء البيان والمعانى فقد كانت أشمل، وتَرد فى النهاية نظرة النحاة التى أصبحت تبدأ من الكلمة فالجملة فالتركيب فى آن واَحد. وهناك علماء آخرون فى فروع أصول الفقه الذين أرادوا أن يستنبطوا الأحكام من النص الكريم، فكانت دراساتهم تقوم أصلاً على تمحيص النص، ومن بعدهم أصحاب الاختيارات مثل الأصمعى،. والمفضل، الذين تتم اختياراتهم على أساس النظرة إلى النص أو المضمون الدلالى الكامل، الذى يشتمل على مجموعة من التراكيب تصنع نصاً أو جزءً من نص. ثم تأتى نظرة البلاغيين فى القرن السادس والسابع الذين يعتمدون على التنميق باستخدام الكلمات ومقابلاتها. وفى العصر الحديث ونتيجة للاتصال بأوربا وأمريكا، ونتيجة أخرى لتقدم علم اللغة تقدما هائلاً، يتضمن شتى فروع المعرفة الإنسانية تطورت النظرة إلى اللغة ومن ثمّ إلى

---

(١) محمود فهمى حجازى - علم اللغة العربية مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية «بتصرف» دار الثقافة للنشر والتوزيع - ص٥٩ د.ت.

النصوص، فأصبحت تدرس كلاً متكاملاً فتُدرس جزئيات النص وتراكيبه وصولا إلى بنيته الكلية، أو العكس يفكك النص وتُجرى عليه التحليلات للوصول إلى خصائصه الدقيقة وعلاقاته الكلية. وأعان على ذلك ظهور العديد من العلوم الجديدة والنظريات مثل علم الدلالة، وعلم التركيب، وعلم الأسلوب، ونظرية النحو الوظيفى، ونظرية تحليل المضمون، ولازال علم اللغة فى تطور وابتكار لنظريات لم يكن للعرب القدامى بمسمياتها أو مصطلحاتها معرفة.

وهكذا يكون القدماء بالنسبة لنا كما هو حالنا بالنسبة لمن بعدنا، والحقيقة أن علماء العربية لم يجهلوا هذه العلوم أو النظريات وإنما لم تكن معروفة لهم بمسمياتها. وكما هى معروفة لدينا فى أُطر عامة.

فعلم النحو عند الأشمونى هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التى ائتلف منها، ونستشف من هذا التعريف فهماً يؤدى إلى نتيجتين : الأولى هى الاهتمام بالنص العربى، والثانية هى أن الاهتمام بالنص وتحليله وتأمل التحليل كان سابقاً على وضع القواعد، وأن الاهتمام بالنص هو الذى أدى إلى وضع العلامات الإعرابية ثم تقسيم النحو إلى أبواب والوصول إلى وضع قواعد النحو وأصوله وجعله علما[1].

وقد ركز بعض النحويين فى تقسيمهم كتبهم حسب الأبواب النحوية أو حسب أقسام الكلام مثل المبرد والزمخشرى على بناء الكلمة وعلاقة الكلمة بما بعدها مبينين أثر العامل فى المعمول. والحقيقة أن توالى الكلمات يعدّ سلسلة متصلة بعضها مع بعضها الآخر، وأن تغير بعض المقاطع فى بناء الكلمة لايأتى إلا من تأثير الكلمات فى بعضها، فنطق الكلمة التالية يؤثر فى بناء سابقتها فى أغلب الأحيان، وأن العامل يؤثر فى معموله، لكن هذا لايُعدّ اهتماماً بالنص بالرغم من أنه اهتمام بجزئياته.

والحقيقة أن ابن هشام هو الذى اهتم ببناء الجملة وعلاقاتها بالجمل التى

(١) انظر: «شرح الأشمونى على الألفية» جـ١، ص٥، ط النهضة - القاهرة ١٩٥٥م.

تشترك معها فى السياق، واهتم بالتركيب عموماً شارحاً موقف الجمل الاعتراضية والجمل الأصلية داخل السياق، كما اهتم غيره بإعادة الترتيب فى التركيب العربى وصولاً إلى دلالته الأصلية، أو مايشكل فيه من علاقة تركيبية بين المفردات أو المركبات[١] . فصنعة النحو بما فيها من إعراب وصرف عاشت من نشأتها إلى القرن الرابع والخامس فى مصنفاتها ومجالسها متميزة تستعين بالشعر شواهد وأدلة، ويستعين بها الشعر فى مواطن قليلة من شروحه ثم كان نقطة الانعطاف فى تطور النزعة النحوية، وذلك عندما تصدى علماء النحو لشرح الأشعار فحملوا منهم مخلفات ثقافتهم، وأخضعوا لها شروحهم، وقد حمل لواء هذا التطور بعض رجال العربية كأبى بكر بن الأنبارى[٢] .

وقد اتصل الدين باللغة اتصالاً وثيقاً فى العصور الإسلامية كلها، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة بجميع الشواهد اللغوية وتقعيد اللغة باعثاً دينيا هو ضبط نصوص القرآن الكريم، وتعليم الطلاب لغة القرآن. وجرت مناهج التعليم منذ أقدم العصور الإسلامية على المزج بين المعارف الدينية واللغوية فى الكتاتيب، والمساجد والمجتمعات، ثم فى المدارس المنظمة فيما بعد. ومن ثمّ كان اللغوى غالبارجل دين، ولاترى عالما من علماء اللغة القدامى إلا كان مقرئاً أو مفسراً أو محدّثا أو متكلماً أو فقيهاً.

وتجلت آثار هذا المزج بين الدراسات اللغوية والدينية منذ نشأتها فى الطريقة التى جروا عليها فى تأليف الكتب الأدبية والدينية، فهى موسوعات تختلط فيها هذه المعارف وغيرها دون ترتيب أو تنسيق وتجلت كذلك فى تشابه المؤثرات التى عملت فى تكوين هذه العلوم وتطورها. والذين درسوا علوم النحو والبلاغة والفقه وعلم الكلام يجدون طابعاً معيناً يغلب على أكثر دراسات القدامى لهذه العلوم[٣] .

(١) ابن هشام - مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب - ج٢ - ص٥٦١ ومايليها تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة - ١٩٤٨ .

(٢) ابن الأنبارى «شرح القصائد السبع الطوال - ص ٢٣ : ٢٥ تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف القاهرة - ١٩٦٣م.

(٣) د. عبد المجيد عابدين «المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية» دار الطباعة الحديثة - القاهرة ١٩٥١ م - ص ١٠٣.

فإن مفهوم «البنية العميقة» لاالمصطلح الخاص بها كان موجوداً فى معالجة النحاة العرب، وقد عبروا عنه بطريقة مختلفة كقولهم «أصله كذا» أو «قياسه كذا»، أو «هو على تقدير كذا»، أو «تأويله كذا»، أو «على نية كذا»، إلى آخر هذه العبارات التى تعنى شيئا واحداً هو أن هناك «بنية عميقة» وراء السطح المنطوق.

وقد استقل مفهوم «البنية العميقة» فى التفريق بين معانى العبارات التى يكون ظاهرها ملبساً، فكان مفهوم البنية هذا هو الذى يؤدى إلى إزالة هذا اللبس أو الغموض الذى يوجد فى العبارات أو الجمل ذات المعانى المتعددة، مثال ذلك هو الجملة:

أ- زيارة الأقارب مكلفة. ب- تزور الأقارب.

فإرجاع هذا التركيب إلى إحدى الجملتين اللتين تعدّان أصلا لهذا التركيب هو الذى يحدد المعنى المقصود، ولذلك كان النحو القديم يحل هذا الغموض عندما يقرر أن هذا من إضافة المصدر إلى فاعله، أو من إضافة المصدر إلى مفعوله فى المعنى، وكذلك عبارة «مكلفة» قد تكون راجعة إلى:

أ- يتكلف الأقارب. ب- نتكلف نحن.

ويتحدد المعنى عندما يقدر المحذوف «لنا» أو «لهم»، وفى مثل هذا الحذف يستعان بالسياق ليفسره ولذلك قال النحويون إن الحذف لايكون إلا لدليل حالى أو مقالى[1].

إذن والله نرميــــهم بحــرب تشيب الطفل من قبل المشيب

ورد هذا الشاهد فى كتاب «المطالع السعيدة» للسيوطى، يدل به على أن الجملة جملة قسم «والله» فصل بين «إذن» والفعل «نرميهم»، ومع ذلك فقد أعملت «إذن» النصب فى الفعل «نرميهم».

---

(١) د/ محمد حماسة عبد اللطيف «من الأنماط التحويلية فى النحو العربى» - مكتبة الخانجى القاهرة - ١٩٩٠ - ص ٢١ :٢٢.

والحقيقة أن مثل هذه الأبواب كانت داعياً لدراسة الشواهد دراسة نصية، لأن جملة القسم التى قد تطول فى شواهد أخرى هى جملة اعتراضية لامحل لها من الإعراب وعليه يتصل ماقبلها بما بعدها ويعمل فيه. أما إذا لم نتناول الشواهد بهذه الطريقة النصية فيمكن فى هذا الشاهد عدّ الجملة الواردة بعد القسم جملة جواب القسم، وحينئذ لايكون لها محل من الإعراب، فى حين أنها تتصل بما قبل جملة القسم وعليه فمجمل الاعتراض، ومختلف صوره وأشكاله تعدّ من الأبواب التى لابد أن يتناول فيها النحوى الشواهد تناولاً نصياً يوضح العلاقات السياقية للنص فى الدراسة والتناول، وهذا يضيف بعداً جديداً للدراسة التى نحن بصددها، وهى أن طبيعة الأبواب المدروسة قد تفرض فى بعض الأحيان على النحوى أن يدرسها دراسة نصية «وتعد هذه من النواتج الأساسية للبحث»[1].

وقال ابن فارس مبيناً أهمية العلامة الإعرابية فى استقامة معنى التركيب ومواءمة التراكيب للمعنى العام للسياق والنص: «من العلوم الجليلة التى خصّت بها العرب: الإعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ، وبه يُعرف الخبر الذى هو أصل الكلام، ولولاه ماميز فاعل من مفعول، ولامضاف من منعوت، ولاتعجب من استفهام، ولاصدر من مصدر، ولانعت من تأكيد»[2]. ولما أصابت العربية حظا من التطور أضحى الإعراب أقوى عناصرها وأبرز خصائصها بل سر جمالها، وأمست قوانينه وضوابطه هى العاصمة من الزلل المعوضة عن السليقة لأن الناس أدركوا من بدء اختلاطهم بالأعاجم أنهم لولا خلاطهم لهم لما لحنوا فى نطق ولاشذوا فى تعبير. فقد كان يثقل على هؤلاء الأعاجم إخراج أحرف الحلق وأحرف الإطباق بوضوح أصواتها فى العربية، فإذا هم يحرفون مثلا «عربى» إلى «أربى» و «طرق» إلى «ترك» حتى شكا الناس من فساد الألسنة واضطرابها[3].

(1) السيوطى – «المطالع السعيدة» تحقيق طاهر سليمان حمودة – الدار الجامعية للطباعة ١٩٨١ – ص ٣٧٩.

(2) ابن فارس – «الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها» المكتبة السلفية – القاهرة – ١٣٢٨ هـ – ص ٤٢.

(3) يوهان فك – «العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب» نقله إلى العربية د.عبد الحليم النجار – القاهرة – ١٩٥١م – ص ٢٤٥.

ولم يكن بد من أن يتأثر العرب بأولئك الأعاجم، مع أنهم كانوا قد ورثوا عربيتهم معربة، وقرأوا القرآن معرباً، وتناقلوا أحاديث نبيهم معربة.

وإن أدلة كثيرة لتقوم على شعور العرب بوراثتهم معربه، فهذه أمارات الإعراب باطّرادها وسلامتها واضحة فيها ماصح من أشعار الجاهليين، وذلك هو التصرف الإعرابى مافتئ يراعى بدقة بالغة حتى أوائل القرن الثالث الهجرى يوم كان الرواة والاخباريون يختلفون إلى الأعراب فى البادية ليأخذوا من أفواههم اللغة، ويعوّدوا من العلماءعامية الأسلوب القرآنى، أو تجرده من ظاهرة الإعراب، لأن مافى القرآن من الألفاظ الصالحة لأن تقرأ رسماً بأكثر من وجه كان السياق غالبا يعين قراءته المثلى، ويفرض وجهه الأفضل، ولايعين قراءة ما إلا تحريك الأواخر بالحركة الإعرابية المناسبة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[1]. فالمعنى نفسه يفرض رفع العلماء فاعلاً ونصب اسم الجلالة مفعولاً، لأن المراد حصر الخوف من الله فى العلماء لاحصر الخوف من العلماء فى الله: فإنما يخشى الله حق خشيته العلماء العارفون بجلاله، وتناقل هذا الوجه المتواتر فى قراءة الآية بمراعاة حركات الإعراب مشافهة وتلقيناً هو الذى حمل القراء والعلماء على الحكم بشذوذ القراءة الأخرى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ برفع اسم الجلالة فاعلاً ونصب «العلماء» مفعولاً، وعزو هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز، وحكايتها عن الإمام أبى حنيفة لم يدفعا عنها حكم الشذوذ[2].

ولنلاحظ فى الآية السابقة أن الوقف بالسكون على آخر «العلماء» اختيارى لاشئ يمنعه، أما نصب اسم الجلالة فلازم لايجوز فيه الوقف العارض، إذ لايتم المعنى بدون حركة النصب، وأن اللبس فيه ليمكن قبل التحريك يناظره فى هذا جميع التراكيب المجردة من ظاهرة الإعراب وإذا حرك لفظ واحد فى تركيب الآية بحركة الاعراب عند قراءته موصولاً مدرجاً كاسم الجلالة المنصوب هنالم يخف

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٢) القرطبى - «الجامع لأحكام القرآن» - دار الكتب - القاهرة - ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩م - جـ١٤ - ص ٣٤٤.

على أحد أن السكون فى آخر كلمة من هذا التركيب ليس إلا عارضاً بسبب الوقف، وهذا السكون العارض يبدو أكثر وضوحاً فى الفواصل القرآنية المرفوعة والمخفوضة، وما أكثر أمثلتها فى القرآن. وقد يوقع فى اللبس فى الآيات التى تتأرجح فواصلها بين الرفع والخفض كقوله تعالى **﴿بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ﴾**[1]. فهل القرآن المجيد محفوظ فى لوح فتكون الفاصلة مرفوعة؟ أم هل القرآن المجيد كائن فى اللوح المحفوظ فتكون الفاصلة مخفوضة؟[2].

إن القارئ الذى يظن أنه وقع على المعنى الألطف من خلال الحركة الإعرابية المناسبة لايسمح لنفسه إلا بخفض الفاصلة، فهى فى نظره لازمة الخفض لامحالة، وربما كان لايغيب عنه أن ما ارتآه من الخفض يستلزم أن يكون قوله **﴿فى لوح محفوظ﴾** بهذا التنوين الذى يفيد التنكير مساوياً لقوله **﴿فى اللوح المحفوظ﴾** فى التعريف العهدى الذى يوحى بأن هذا اللوح هو **﴿المحفوظ﴾** المعروف فى عالم الغيب، ولكنه بحسب قراءة الرفع أبعد عن سياق الآى وأشد مجافاة للأسلوب العربى المبين، لذلك قرأ نافع وحده بالرفع والباقون بالكسر[3]. وكثير من هذه المواقع الإعرابية المشكلة فى فواصل القرآن قد خضع حتماً لتنوع القراءات، وتضارب بعضها مع بعض، وتأرجحها بين صوتين متضادين، وحركتين متقابلتين كالضم والكسر مثلا[4].

وقد ظهرت هناك دعوة فى العصر الحديث لإصلاح النحو العربى من التعقيد فى كتابات الدكتور/ شوقى ضيف والأستاذ / إبراهيم مصطفى والدكتور/ عبد

(١) سورة البروج الآية ٢١ ، ٢٢.

(٢) العكبرى - «إملاء مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن» مطبعة التقدم - القاهرة ١٣٤٧ هـ - جـ٢ - ص ١٥٢

(٣) «فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر» - أحمد الدمياطى الشهير بالبنا نشر د. عبد الحميد أحمد حنفى» - القاهرة ١٣٥٩ هـ ص ٤٣٦

(٤) «الإتقان فى علوم القرآن» - السيوطى - مطبعة حجازى - القاهرة - ط٣، ١٣٦٠ هـ ١٩٤١م - جـ١ - ص ١٣٨

الرحمن أيوب، وسار على دربهم كثيرون، واحتجوا برأى ابن مضاء القرطبى الذى طعن فى نظرية العامل وعدّها أُس مشاكل النحو العربى. وفى رأىَ أن نظرية العامل تحرص بل وتجعل كل همها فى العلامة الإعرابية على آخر الكلمة التى يتسبب فيها الفعل السابق أو الاسم، والاختلاف فى الإعمال وعدم الإعمال ومحصلة هذا كله النظرة المقتصرة على علاقة الكلمة بالكلمة التى تجاورها دون النظر إلى التركيب الذى هو الخلية الأولى للنص، ودون النظر إلى وظيفة هذا التركيب، والدليل على هذا أنهم لم يفكروا فى وضع علامة إعرابية لكل تركيب تحدد وظيفته، وهذا بطبيعة الحال من الأمور المُستحيلة لأن التركيب ليست له حدود توضع عليها العلامة الإعرابية، وذلك لأن كل مؤلف يمكنه أن يصنع تراكيب خاصة به تتسم فى كل نص بسمات مخالفة للسمات التى يتسم بها نص آخر للمؤلف نفسه، وذلك بالزيادة أو الحذف أو استخدام أى خصيصة أخرى من خصائص اللغة العربية[1].

وماتقسيم جوانب الدرس اللغوى إلى صوتى وصرفى ونحوى ومعجمى ودلالى إلا محاولة لتعرف هذه الجوانب مفصلة بحيث يعاد جمعها من جديد لتقدم صورة واضحة كاشفة للنص المدروس. والنص اللغوى الحى وحدة متلاحمة من صورته المنطوقة ونظامه النحوى الذى يحكمه، وصورته المنطوقة هى مفرداته «المصوغة فى الجملة بكل خصائص هذه المفردات وقوانينها الصوتية والصرفية ودلالتها المعجمية الأولية الموضوعة لها أى التى يكثر استعمالها فيها بحيث يشيع هذا الاستعمال بين أبناء البيئة اللغوية المعينة، ونظامه النحوى وهو الهيئة التركيبية التى توجد عليها هذه المفردات منظومة فى الجملة من الفاعلية والمفعولية والظرفية والحالية وغير هذه وتلك من الوظائف النحوية مراعى فى ذلك كله القوانين الخاصة بكل وظيفة نحوية على حدة من حيث شروط ورودها الخاصة، ومن حيث قوانين ارتباط الكلمة التى تشغلها بما تنضم معه فى تركيب واحد مفيد. والتلاحم بين المفردات ووظائفها النحوية فى الجملة تفاعل عقلى صوتى فى وقت واحد، وبعبارة أخرى هو

---

(١) د. عبد المجيد عابدين «المدخل إلى دراسة النحو العربى» ص٧.

تفاعل دلالى نحوى معاً لايمكن فصل أحدهما عن الآخر، لأن المفردات من غير نظام نحوى يحكمها ويربط مابينها لايتأتى لها اجتماع إلا فى التنظيم المعجمى فحسب[1]. ولقد بدا تركيزنا على هذا الجانب فى تحليل سورة الشورى، فكثير من مفرداتها لاتتضح وظيفته أو بالأحرى دلالته إلا من خلال السياق الذى ورد فيه، ومجموعة المفردات التى تحيط به فى التركيب والتى بدونها يستغلق فهمه أو بالأحرى فهم دلالته المقصودة بحيث إذا ورد المكون فى نص آخر فإنه لايؤدى الوظيفة النحوية أو الدلالية التى يشغلها فى هذا النص بخاصة مثل ﴿يوم الجمع﴾، و ﴿حفيظ﴾ و ﴿يدخل فى رحمته﴾، وكثير مما سنعرض له عرضاً مفصلاً عند تحليل سورة الشورى، والدلالة النحوية التى ينهض بها النظام النحوى الكامن وراء المفردات المنطوقة مع الدلالة المعجمية الأولية للكلمة تشكلان معاً «معنى» الكلمة فى الجملة، وكلا الجانبين متعاونان.

ففى أحيان كثيرة يقوم النظام النحوى للجملة فى سياق معين بتوضيح معنى كلمة لايعرفها المستمع من قبل ويسمعها لأول مرة، ولكن وضعها فى سياق نحوى معين يكشفها ويوضحها ويدفع المستمع إلى أن يحدس بمعناها حدساً صحيحاً. وفى أحيان أخرى يكون وجود كلمات بأعيانها فى الجملة هادياً إلى تحديد وظيفتها النحوية، والاختيار بين جداول المفردات أى مجموعاتها المصنفة فى العقل الإنسانى تصنيفاً دلاليا معينا[2].

ومن حيث مناهج دراسة النصوص وطرق معالجتها فرّق القدماء بين مستوى الشعر والنثر وأفردوا لخصائص الشعر أبواباً فى كتبهم كما عند سيبويه، بل وألّف بعضهم كتباً بأكملها لخصائص هذا المستوى مثل ضرائر الشعر، وهى كثيرة.

ولبحث لغة النص طرق فى التناول، كما أن للبحث اللغوى مناهج مثل المنهج التاريخى والمنهج الوصفى، والمنهج التقابلى، والمنهج المقارن، والمنهج التحويلى،

---

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف - «النحو والدلالة» مدخل لدراسة المعنى النحوى الدلالى - القاهرة - ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م - ص ١٦٦.

(٢) «النحو والدلالة» ص١٦٧.

والتوليدى، إذا عددنا الآخيرين منهجين، وأن هناك تقسيمات للغة إلى مستويات منها مستويات لغة الشعر والنثر والنص القرآني الذى لايخضع لأى من المستويين السابقين ومستوى لغة القصة والمسرحية، إلى آخر الألوان الفنية التى تستحدث وتبتكر وأن هناك أيضا مستويات للتحليل اللغوى مثل المستوى الصوتى الوظيفى. والمستوى الصرفى، والمستوى النحوى، والمستوى الدلالى. والمستوى المعجمى، يتم خلالها تصنيف مكونات النص. فإن هناك طرقاً لتناول النص العربى ومنها

أ- التحليل باختيار العينات: وهذه الطريقة تتم عند دراسة ظاهرة لغوية على مستوى اللغة العربية، أو اللغات السامية والهند و أوروبية التى تشترك معه فى الظاهرة نفسها تحقيقاً للفرض الملتزم فى عنوان البحث أو مجموعة الفرضيات داخله.

ب- التحليل التام للمكونات: حسب مستوى التحليل اللغوى موضوع الدراسة، أو مجموعة المستويات التى يضمها البحث، وتصنيفها إلى مجموعات متوافقة من حيث البناء الصرفى، أو التركيب النحوى، أو أى ظاهرة لغوية أخرى مع دراسة مدى المطابقة والمخالفة بين المكونات وبعضها، ودراسة مدى تحقيق ماقاله النحاة القدماء ومدى مطابقته مع ماتوصل إليه الباحث ومناقشة آراء اللغويين فى هذه الظاهرة والخروج بنتائج إما موافقة أو مخالفة مع اتسامها بالطابع العلمى.

جـ- تحليل المكونات تحليلاً تاماً وتصنيفها ثم إدراجها فى جداول ومخططات ومناقشة متوسط تردد المكون وزيادته، أو نقصانه ومحاولة إيجاد العلل والأسباب العلمية من حيث ارتباطها بالبيئة اللغوية أو اللهجة القبلية أو الحالة النفسية أو ضرورة الموضوع أو أى مقتضيات أخرى وهذا يتم غالباً فى الدراسات الأسلوبية.

د- التحليل التام للمكونات واستنتاج الظواهر الجديرة بالدراسة من خلال هذا التحليل دون الاستفادة من تحليل الأرقام والإحصاءات. لكنها على أى حال تعطى مؤشراً بما يجب دراسته، ومايجب إهماله. كما أنها ستحدد الإطار العام للعينة المدروسة وتفاصيلها، خصوصاً إذا وضعت فى جداول لتكون أوضح للرؤية البصرية، ويجب أن ترفق بنهاية البحث، أما عند تحليل نص بعينه

لكشف مدى تطابق خصائصه مع نص آخر فليس ضروريا أن تتطابق نسب التردد، بل إن الإحصاء ونسبة التردد قد لاتكون لها ضرورة فى مثل هذا التناول.

وإذا امتدت نظرتنا إلى أوائل من نظروا فى ضبط أواخر الكلمات العربية فسنجد أن محاولاتهم في وضع نقط الإعراب إنما كان المقصود منه تحديد وظيفة المكون التركيبى داخل التركيب وإيضاح علاقته بما يسبقه أويليه من المكونات الأخرى، وسنجد النظرة نفسها فى وضعهم لأبواب النحو، خصوصاً باب الفاعل والمفعول الخ. لكنهم فى وضعهم لأبواب من أنواع أخرى مثل باب الاستفهام، وباب التعجب يظهرون اهتماما من نوع آخر وهو الاهتمام بالتركيب الذى يؤدى فى النهاية إلى ضبط معنى النص إلى جانب مفرداته.

ومن هنا نلحظ نسبيةً مدى تحقق النظرتين الجزئية والكلية فى آن واحد إذا ثبت وضع هذه الأبواب فى وقت واحد وعند عالم واحد. ولكن الذى أراه هو أن النص القرآنى هو مبعث الاهتمام بالنظرة الكلية لمعانى النصوص، وذلك من أجل فهم دقائقه، واستنباط الأحكام الفقهية عن طريق التراكيب[1].

ويتدرج مستوى الكلام من الإبلاغ غير الفنى إلى الإبلاغ الفنى عن طريق الاختيار بين نوعين من الجداول «جداول المفردات» و «جداول النظام النحوى»، وذلك أن الكلمة المعينة قد تقبل أن تدخل فى علاقة المفعولية مثلا مع فعل معين على سبيل الحقيقة ﴿والحقيقة هنا حقيقة عرف﴾، فاذا أدخلها المتكلم مع هذا الفعل نفسه فى علاقة الفاعلية ولم تكن فى العرف مما يقبل هذا النوع من العلاقة فإن مستوى الكلام يتحول من الحقيقة إلى المجاز إن شئت من الإبلاغ غير الفنى إلى الإبلاغ الفنى[2].

---

(١) د. شوقى ضيف - «المدارس النحوية» دار المعارف - ط٣ - ١٩٧٦م. ص ١٧.

(٢) «النحو والدلالة» محمد حماسة عبد اللطيف ص ١٦٨.

ومسألة الاهتمام باللحن فى اللغة ومسائل التعليل والقياس فى الصيغ الصرفية تعدّ من قبيل الاهتمام بالمكونات، هذا من حيث الظاهر، وفى بعض الحالات نجد أن الاهتمام بهذه المسائل مؤداه استقامة معنى التركيب ومن ثمّ فهم النص، أو على الأقل السياق. ومن هنا نجد أنه ليست هناك حدود زمانية.فاصلة أو مكانية بين كل من النظرتين الجزئية والكلية فالنظرتان تسيران جنباً إلى جنب.

ونلاحظ فى دراستنا لأقوال البلاغيين وتحليلاتهم إنهم يركزون فى أغلب الأحيان على ظواهر جزئية فى التركيب، وفى أحايين يركزون على التراكيب أنفسها كما فى علمى البيان والمعانى. ولكنا بعد استعراض هذه المسائل الجزئية نجد فى النهاية أن مبعث هذه الدراسات والتحليلات هو الاهتمام بالنص، كما نجد أن النحاة الأوائل الذين أسسوا علم النحو كان غرضهم محدداً وهم يضعون أولى العلامات الإعرابية، فقد كان يشغلهم أمر تحديد رتب المكونات ووظائفها داخل التركيب الواحد، ولذا حصروا العلامات فى «فتحة وكسرة وضمة»، لكنهم فى المرحلة التالية أى مرحلة دراسة الجمل لم يحددوا أى علامات إعرابية، وإنما ركزوا على علاقة الجمل ببعضها، وساهم معهم فى هذا الميدان البيانيون الذين لجأوا إلى طريقة أخرى تختلف عن طريقة النحاة فبدلا من أن يستخدموا الفتحة والكسرة والضمة استخدموا مسميات أو مصطلحات لتحديد وظيفة الجملة فقالوا «جملة تفسيرية أو اعتراضية»، فمسألة المحل الإعرابى ابتدعها النحويون فقالوا إستئنافية لامحل لها من الإعراب، واعتراضية لامحل لها أيضا، كما قالوا جملة مقول القول. وقال البيانيون جملة طلبية «أمرية + ندائية + تمنٍ + ترجٍ»، ولم يشغلهم أمر المحل الإعرابى، كما لم يشغل هذا الأمر أيضا النحاة المتأخرين.

ولقد أصبح التطور الهائل فى مجالات علم اللغة الحديثه عبئاً ثقيلاً على كاهل الباحثين الشبان بالرغم من أنه فتح له ميادين جديدة ومباحث مستحدثة تتفق مع التطور الحادث فى شتى العلوم والمعارف الإنسانية، فلقد تقرر فى المؤتمر الثانى للكمبيوتر ثنائى اللغة «مايو ١٩٨٩م» أن الكمبيوتر يستطيع الآن إحصاء أى نمط من أنماط المفردات أو الجمل العربية فى أى ديوان أو قصيدة عربية، كما أنه

يمكن تصنيف أنماط هذه الجمل وإبراز سماتها. وعلى مدى عشرة أعوام قادمة سيكون فى مقدور هذه الآلة فعل مايمكن أن يقوم به الإنسان من دور فى الأبحاث اللغوية والمعجمية، بل وتعليم اللغات لأبناء اللغة وغير أبنائها. ومن هنا فإن الدور الذى كان يمكن أن يقوم به الإنسان الباحث فى اللغة أصبح موكلاً به إلى غيره، وعليه ﴿أى الباحث﴾ إما أن يبحث عن ميادين أخرى لاينافسه فيها هذا الجهاز وإما أن يتفوق على هذا الجهاز لصنع مايعجز عنه هذا الجهاز اعتماداً على حسه اللغوى، والاستخدامات المجازية للغة التى بات من المؤكد أيضا أن الكمبيوتر سيقوم بها من حيث ترجمته للمعانى الإجمالية وليس للمفردات فحسب.

وفى ظنى أن علم لغة النص ودراسة علاقاته المتشابكة بعضها ببعض أو بعضها بنصوص تراثية أخرى وكذا البنيات الصغرى وطرق تأليفها لبنية كبرى هى من الأشياء التى يمكن أن يكون فيها للباحث الإنسان دور يعزز من مكانته ويجعله يحتفظ بإسهامه المتميز فى هذا الميدان.

إن حيوية النحو فى القديم نبعت من أنه علم نص، وغير خافٍ أنه نشأ فى حضن القرآن الكريم ومن أن النحاة القدماء لم يوقفوا دراستهم على الجانب النظرى فحسب، بل تخطوا ذلك إلى الجانب التطبيقى، وقد اتخذوا من القرآن الكريم والشعر القديم وشعر معاصريهم أحيانا مادة خصبة للتطبيق النحوى. ومن هنا وُجدت فى خزانة التراث عشرات الكتب لشرح القرآن وتفسيره وإعرابه، وشرح مختارات الشعر ودواوين بعض الشعراء شرحاً يقوم فى جانب كبير منه على فهم العلاقات النحوية، ولذلك استطاعت الدراسات النحوية القديمة أن تحيا وتتخطى إلينا القرون والأجيال.

إن كثيرا من القضايا النحوية لاتُفهم من كتب النحو وحدها بل من كتب التفسير وشرح المختارات الشعرية والأمالى والمجالس التى تعتمد على مقطوعات الشعر المختلفة والروايات الأدبية. وقد كان كتاب سيبويه - وهو أول مؤلف نحوى يصل إلينا - كتابا جامعاً لعلوم العربية وفقه أسرارها، وإن قارئه ليستشعر أنه يهتم بحسن الكلام وقبحه لابمجرد صحته وحسب.

وثمة فرق بين السياق اللغوى والسياق الاجتماعى فالسياق اللغوى يتكون ويعتمد على مجموعة المكونات التركيبية من أدوات ومكونات مفردة ومركبات، ويكتمل هذا السياق حين يرد العامل مع جميع معمولاته كما يرد الناسخ الحرفى ومعه معمولاه وينقطع هذا السياق إذا ورد العامل مع بعض معمولاته ولم ترد باقى المعمولات. وهذه تدعونا إلى التأمل فى أثر العامل القوى والعامل الضعيف. فهل العامل القوى هو الذى يؤثر فى عدد كبير من المعمولات، والضعيف هو الذى لايؤثر فى عدد كبير من المعمولات؟ وإذا كان الأمر هكذا فما موقف المركبات والتراكيب الاعتراضية التى ترد بين معمولاته؟

ويتكامل السياق اللغوى تركيبياً ودلالياً من استيفاء جميع مكوناته التركيبية، أما السياق الاجتماعى فهو الذى يمكن التوصل إليه بمجموعة المكونات التركيبية من ناحية، ومايمكن استنتاجه من أحداث لغوية تفهم من خلال المكونات الموجودة يضاف إليها الظروف المحيطة بالنص، كما يمكن استنتاج المحذوفات وإكمال السياق بها. وبهذا يسهم كل من السياقين فى كل من تحليل النص وإعادة تركيبه وتحديد الدلالات الظاهرة من مجموع مكوناته وتراكيبه، وكذا الدلالات الباطنة الناشئة عن تقدير المحذوفات وتأويل ماليس بظاهر.

الفصل الثانى

الدراسات المعتمدة على النحو واللغة

١ - هكذا اشتركت بيئات مختلفة فى تناول النصوص من بينها بيئة المتكلمين الذين يدرسون فلسفة الدين الإسلامى، وينظرون إلى القرآن الكريم نظرة غير مقصورة على مسائل التأثير القريب من عامة الناس. فأراد المتكلمون أن تقف النصوص الدينية على قدميها فى مواجهة الخاصة من المثقفين فى علوم الأوائل، بحثوا فى إعجاز القرآن وعقائده، وشاركوا فى وضع أسس دراسة الأدب، ذلك أن الإعجاز ذو وجوه متعددة منها وجه أدبى، وإلى جانب المتكلمين علماء الأصول الذين يبحثون فى التشريع الإسلامى وأصول استنباطه، ويشتغلون بمبدأ استخراج الأحكام وكيفيته، وهذا مايحوجهم إلى التعرض لطبيعة النص، فالنص مجاز أو غير مجاز، خاص أو عام، مطلق أو مقيد، وكيفية استنباط الحكم تحتاج إلى بحث لغوى واسع، وهكذا نجد مباحث فى مدلول الكلمات المعرفة والمنكرة، ومدلول القصر أو الحصر من أجل تحديد المعنى المراد، كذلك بحثوا فى استغراق المفرد واستغراق الجمع، والترادف لمعرفة مدى تشابه الكلمات فى معانيها. وهناك أيضا طائفة الأدباء التى تعتمد على ماجمع من التراث الأدبى شعراً ونثراً. ففهم النص الأدبى أو علم الشعر الحق ينفرد بنفسه، وهو أقرب منالاً عند الكتاب الذين يشعرون بحاجتهم إلى أدوات أخرى.

تلك هى البيئات العامة التى ألقت النظر على النص الأدبى، وقد نتج عن اختلافها اختلاف فى الإتجاه ونوع الدراسة، فالمدرسة المؤلفة من الأصوليين والمناطقة وعلماء الكلام تفترق عن المدرسة المؤلفة من صناع الأدب كتاباً والمشغوفين بالتذوق فى ذاته بغض النظر عن كل عناية أخرى خارجية، وطريقة هؤلاء غير أولئك[١].

---

(١) د. مصطفى ناصف «دراسة الأدب العربى» دار الأندلس - بيروت - لبنان - ط٣ - ١٩٨٣م - ص ٧ - ١٠.

ولايكاد يتقدم أحد من النحاة أو اللغويين باختبار قواعده أو مسائله اللغوية من خلال النصوص الأدبية ذاتها، ولاتكاد هذه الصورة تلتئم فى تراثنا إلا على أيدى طائفة من المفسرين الذى انطلقوا من منطلق لغوى تسانده المعرفة البلاغية الواسعة والذوق السليم والحس المرهف من أمثال الفراء، السيوطى، الزمخشرى وغيرهم.

إذا جاز لنا أن نجعل عبد القاهر الجرجانى بكتابه «دلائل الإعجاز»، رائداً لأحد فروع علم اللغة الحديث وهو علم اللغة الأسلوبى، فان هؤلاء المفسرين من اللغويين والبلاغيين هم الذين أثروا هذا النوع من تراثنا بدراستهم التطبيقية حول تفسير النص القرآنى وبيان معانيه.

. لقد نزل القرآن فى أوقات مختلفة وفى مناسبات مختلفة، وقد استغرق نزوله نيف وعشرين سنة، ومع ذلك يقال أنه كالكلمة الواحدة فكيف يبرر المفسرون هذا؟

ومن حيث تكوينه الداخلى سوراً نجد بعض الآيات مقطوعة الصلة عما قبلها، لكن المفسرين لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا الواقع بل وضعوا مصطلحات تحليل إلى إجراء محدد ممارس بهدف كشف العلاقة الخفية بين الآيات التى من هذا القبيل بالإضافة طبعاً إلى بحثهم عن اتصال الآيات المتجاورة بطريقة عادية ومن ذلك الاتحاد والتلازم.

ويقصد بالاتحاد والتلازم ذلك التناسب الذى يقوم بين سورتين ويتجلى فى:

* مناسبة خاتمة السورة الثانية لفاتحة السوره الأولى.

* تلازم لفظى كالجنة والنار، أى عند ذكر الجنة أو النار ومن يحل باحداهما فى سورة، وذكر من يحل بالأخرى فى سورة لاحقة لها مباشرة.

* اتحاد معنوى كأن يذكر الأصل فى سورة سابقة ثم يُذكر الفرع فى السورة اللاحقة، مثل ذكر خلق آدم فى سورة البقرة. وذكر مبدأ خلق أولاده فى ﴿آل عمران﴾.

والبقرة مفتتحة بذكر المتقين وأنهم هم المصلحون، ﴿وآل عمران﴾ مختومه

بقوله ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾، ومن صور تلازم السورتين أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة ولهذا تكرر هنا مايتعلق بالمقصود الذى هو بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب والهدى إلى الصراط المستقيم وتكررت هنا آية ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل﴾ بكمالها. ولذلك أيضا ذكر فى هذه ماهو تالٍ لما ذكر فى تلك أو لازم فى تلك أو لازم له، ومن هذا اللازم:

* ذكر خلق الناس فى البقرة. * ذكر تصويرهم فى الأرحام فى آل عمران.
* ذكر مبدأ خلق آدم. * ذكر مبدأ خلق أولاده فى آل عمران.
* افتتح البقرة بخلق آدم بلا أب. * ذكر فى آل عمران نظيره فى الخلق من غير أب[(١)].

يعلق السيوطى «واختصت البقرة بآدم لأنها أول السور وآدم أول فى الوجود، وهذا كالفرع والتتمة لها، فمختصة بالإعراب والبيان»[(٢)].

ويقول عن تلازم المائدة والنساء «وختمت سورة المائدة بصفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك، وافتتحت النساء ببدء الخلق، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء فكأنها سورة واحدة اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى»[(٣)].

إن المفسرين والمصنفين فى علوم القرآن اجتهدوا من أجل إبراز اتساق النص القرآنى وانسجامه، على أن الاهتمام بالانسجام لم يكن الانشغال الوحيد لهؤلاء وأولئك، وإنما كان جزءا من انشغال أشمل هو فهم القرآن وإظهار وجوه إعجازه. معنى هذا أن المفسرين اهتموا بالاتساق الذى يندرج تحته المستويان النحوى والمعجمى وبالانسجام الذى يتدرج تحته المستوى

(١) محمد خطابى - لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ٢٠٣ ط١ - ١٩٩١م - المركز الثقافى العربى - بيروت.

(٢) جلال الدين السيوطى - «تناسق الدرر فى تناسب السور» تحقيق عبد القادر أحمد عطا ﴿دار الكتب العلمية﴾ - بيروت - لبنان - ط١ - ١٩٨٦م، ص٧٣.

(٣) المرجع السابق ٨٢.

الدلالي[1]. وليس من شك في أن تفكيك بنيات النص كانت هي السبيل إلى إدراك الانسجام والاتساق في هذا النص. ففي إطار اهتمام النحاة من علماء القراءات بالدراسة النصية بّين أبو حيان في مقدمة كتابه[2]. البحر المحيط منهجه فقال: «إني ابتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام اللغوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لأختر مايناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها وارتباطها بما قبلها حاشداً فيها القراءات شاذها ومستعملها ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية بحيث أني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها مبديا مافيها من غوامض الإعراب ودقائق الأداء وإنما تحدثت عن هذا الكتاب وإن كان في فن التفسير لأنه في حقيقة أمره كتاب نحو جُمع فيه الكثير من آراء النحاة في مواضع مختلفة منه. وكانت روح النحو فيه سائدة في جميع مسائله مما لايبعده عن كتب النحو التي يمكن أن تقوم عليها الحركة النحوية في هذا العصر.»

وأبو حيان لم يغب عنه هذا الفرض إذ أنه التزم في كتابه معرفة الأحكام النحوية لأن علم التفسير لايستغنى عنها. وقد التزم أبو حيان هذا المنهج ولا أدل على ذلك من قوله في مقدمته مبيناً منهجه في التفسير والوسائل التي يحتاج إليها المفسر معرفة الأحكام التي للكلمة العربية من جهة إفرادها، أو من جهة تركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو،وأحسن موضوع فيها وأجلّه كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه رحمه الله تعالى وأحسن ماوضع المتأخرون من المختصرات وأجمعه للأحكام كتاب تسهيل الفوائد لأبي عبد الله محمد بن مالك الجياني.

ووضح النحاس مجموعة من حالات الاتصال السياقي والجمل التي يقف عندها القارئ عند كمال اتصالها ويتجنب الوقف على ماقبلها، سواء أكان كمال

---

(١) «لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب» ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) أبو حيان تفسير البحر المحيط - جـ١ - ص٤ - نشر مكتبة النصر الحديثة السعودية.

الاتصال بالتوكيد أو البدل أو العطف، أو بسياق آخر يتم به المعنى كلياً. فعندما أورد قوله تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لانفرق بين أحد من رسله**﴾[1]. أورد بعدها قول يعقوب: ﴿ومن الوقف التمام «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه» قال: «**والمؤمنون**» رفع بالابتداء لابفعلهم. ثم قول الأخفش سعيد: «وأما ﴿آمن الرسول﴾ فالتمام فيه ﴿والمؤمنون﴾. ثم عقب على الرأيين بقوله «هذا القول الأخير أولى من الأول لأن واو العطف توجب أن يكون الثاني داخلاً فيما دخل فيه الأول، إلا أن تقع حجة بغير ذلك. وأيضا فإنّ بعده: ﴿**كل آمن بالله**﴾ ولم يقل كلهم فيكون توحيداً فالوقف التام عنده ﴿**والمؤمنون**﴾ و ﴿**كل آمن بالله**﴾ منقطع عما قبله وهو مبتدأ وخبر».

والدراسة الأصولية تعتمد أول ماتعتمد على اللغة إذ تجمعت حول النص القرآنى الدراسات اللغوية والتشريعية فلايستطيع دارس أن يصل إلى مايطمح فيه بعد درس النص دراسة واعية أصيلة إلا إذا عرف تاريخ اللغة التى نزل بها النص وأسرارها فى التعبير ومقاصدها فى البيان.

وقد أدرك الأصوليون الرباط بين اللغة العربية وبين النص التشريعى، فكان الاهتمام باللغة من أهم الوسائل التى تعين على فهم النص فهماً دقيقاً فتحدد به الفكرة تحديداً واضحاً، وذلك لأنها ترتبط بالحكم ومعرفة تطبيقه[2].

فمبحث الفصل والوصل يعدّ عند البلاغيين العرب اهتماماً بالنص سواء أكان قرآنيا أم غيره، وغالباً مايتجاوز حدود التركيب الواحد. لكّن علماء اللغة وفقهاءها ركزوا اهتمامهم على دلالة الألفاظ وتغيُّر هذه الدلالة وأسبابها ودرسوا فى ذلك عدداً من الظواهر مثل الترادف، والمشترك اللفظى، والأضداد، وغيرها من الظواهر الدلالية. من قبيل تماسك النص، إذ يرى الدكتور طاهر حمودة فى كتابه «دراسة المعنى عند الأصوليين»، «أن نصوص الكتاب والسنة فى نظر المفسرين والأصوليين

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥.

(٢) د. السيد عبد الغفار - «التصور اللغوى عند الأصوليين» - دار المعرفة الجامعية ط١ - ١٩٨١ - ص٣٩.

وحدة متكاملة يفسر بعضها بعضاً، ولذا ينبغي على المجتهد المستنبط للحكم وتقييد وضعها جميعاً فى الاعتبار اذ ينتج عن دراستها تخصيص العام وبيان المجمل وتقييد المطلق والنسخ وما إلى ذلك بما يؤثر فى استنباط الحكم وهو مانسميه فى دراسة النصوص اللغوية «السياق اللفظى» بمعناه الواسع حيث لانقتصر على الجملة المدروسة أو الجمل المتراصة بل ننظر إلى السياق الأوسع الذى يشمل القطعة أو القصيدة كلها والكتاب أو الديوان كله، ويشمل هذا السياق جانباً هاماً من العناصر الضرورية لفهم النص والجانب الآخر هو الشق الاجتماعى أو القرائن الحالية الملابسة[١].

والحقيقة أن علماء العربية سواء أكانوا لغويين أم مفسرين أم أصوليين قد اهتموا باللفظ العربى لكن إشاراتهم إلى دلالته وخصائصه تنطوى على إدراك لأهمية النص والسياق فى تحديد دلالة هذا اللفظ، فذهب الإمام الشافعى إلى أن عموم الألفاظ لايستدل منها دائما على التعميم فقد يكون اللفظ عاماً والمراد التخصيص فقال: «اللفظ بيّن فى مقصوده، ويحتمل فى غير مقصوده»[٢].

ومعنى رأى الشافعى أن قضية العموم والخصوص قضية لغوية، وليس من الضرورى أن يكون اللفظ دالاً على عموم مايندرج تحت مفهومه من أفراد، وهو رأى يمكن التعبير عنه بطريقة أخرى بأن دلالة اللغة ليست دلالة منطقية، فالألفاظ فى علاقاتها التركيبية والسياقية تكتسب دلالاتها، وعلى ذلك يجب أن يكون المعيار هو «النص» ذاته مما ينتظم مفهوم النص من عناية بأسباب النزول.

وعلماء العربية يذهبون فى تحليل النصوص إلى ماهو أبعد من النص اللغوى أو السياق اللغوى إلى السياق الثقافى وأسباب النزول فى حالة القرآن. فدلالة النص تتكشف من خلال تحليل بنائه اللغوى أولا، ومن خلال العودة إلى سياق إنتاجه

---

(١) د. طاهر سليمان حمودة - دراسة المعنى عند الاصوليين ص ٣٩ : ٤٠.

(٢) الزركشى - «البرهان فى علوم القرآن» جـ٢ ص ١٦، ١٧ الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان سنة ١٩٧٢م.

ثانيا، وأن إهدار أحد الجانبين يعوق المفسر عن اكتشاف الدلالة والمعنى. إن التركيز على التركيب اللغوى دون اعتبار للسياق الثقافى يدخلنا فى متاهات من التحليلات المغلقة، والتركيز على السياق دون اعتبار لبناء النص وتركيبه يعيدنا إلى مفهوم «المحاكاة»[1].

فدلالة الفحوى تسمى بدلالة النص أيضا كما تسمى بمفهوم الموافقة، وقد تسمى بالقياس الجلى أو قياس الأولى، لكن الغزالى ينبه على أنه ليس قياس يحتاج إلى تأمل واستنباط علة، فإذا كان المراد به ذلك فهو خطأ، وإذا كان المراد به أنه مسكوت عنه فُهم من منطوق فهو صحيح بشرط أن يفهم أنه أسبق إلى الفهم من المنطوق أو هو معه وليس متأخراً عنه.

كما يعلق على هذه المصطلحات المترادفة بقوله «فلاتلتفت إلى الألفاظ واجتهد فى إدراك حقيقة هذا الجنس». وتتمثل دلالة الفحوى فى فهم غير المنطوق به من المنطوق بدلالة سياق الكلام ومقصوده، وتعرف بأنها «مايكون مدلول اللفظ فى محل السكوت موافقاً لمدلوله فى محل النطق»[2]. مثال ذلك قوله تعالى ﴿**ولاتقل لهما أف**﴾ فالنص يفيد بعبارته تحريم قول ﴿**أف**﴾ من الولد لوالديه، لكنه بفحواه فى هذا السياق الذى يحض على الإحسان إلى الوالدين وعدم ايذائهما ووجوب مخاطبتهما بالقول الكريم يدل النص على تحريم مافوق لفظ ﴿**أف**﴾ من الوالد لوالديه، لكنه بفحواه فى هذا السياق الذى يحض على الإحسان إلى الوالدين وعدم إيذائهما ووجوب مخاطبتهما بالقول الكريم يدل النص على تحريم مافوق لفظ ﴿**أف**﴾ من الإهانة أو الضرب أو الأذى.

وقد نبه الأصوليون إلى أن السياق الدال على مقصود المتكلم هو الذى يدل على صحة إعمال حكم المنطوق به فى المسكوت عنه أى هو الذى يصحح دلالة

---

(١) من كتاب «دراسات أدبية مفهوم النص» دراسة فى علوم القرآن د. نصر حامد أبو زيد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط١ – ١٩٩٠م.

(٢) الآمدى – «الأحكام» جـ٣ – ص٩٤ – الناشر دار الكتب – بيروت ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م.

الفحوى، فقد عرف من سياق الآية أنها تقصد كف الأذى عن الوالدين ولو قطع النظر عن هذا السياق لما لزم من تحريم التأفيف تحريم الضرب لأن هذا النص لو وضع في سياق آخر لما أفاد غير مايدل عليه لفظه[1].

وكانت مهمة التأويل في بادئ الأمر هي التوفيق بين النصوص التي تجمع في ظاهرها بين الاختلاف والتعارض مما أشار الإمام الشافعي إلى شئ منه في رسالته عند الكلام عن الحديث، فقد لفت إلى ضرورة التأويل لإمكان التوفيق بينهما لكنه لم يحدد لنا السبيل الذي تتبع في ذلك، وأشار الإمام كذلك إلى أن التأويل مرتبط بالنص وبلغته وبالعقل الذي يتدبر الأمر فيه[2].

ويبدو اهتمام الأصوليين بالنص من خلال دراستهم للاستثناء بعد جمل متعاطفة.

فإذا وقع الاستثناء بعد جمل متعاطفة بالواو وغيرها فهل ينصرف الاستثناء إلى جميع الجمل أم إلى الجملة الأخيرة وحدها؟[3].

اختلف الأصوليون في ذلك على ثلاثة أقوال: أولها أن الاستثناء يرجع إلى جميع الجمل أصلا إلا إذا دل دليل على خلافه وهو قول أصحاب الشافعي، والثاني أنه يرجع إلى الجملة الأخيرة أصلا إلا إذا وجد مايدل على خلافه وهو قول أصحاب أبي حنيفة، والثالث: أنه يحتمل الأمرين فيتوقف فيه إلى أن يدل الدليل على إرادة أحدهما دون الآخر، وهو رأى القاضي أبي بكر والغزالي وجماعة من الأصوليين ولكل فريق حجاج طويل عن مذهبه[4]. ومثال ذلك قوله تعالى: **﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فإجلدوهم ثمانين جلدة، ولاتقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾**[5]. فهذا استثناء جاء بعد ثلاث جمل.

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ٩٥ .

(٢) التصور اللغوى عند الاصوليين - د. السيد عبد الغفار - ص ١١٧ : ١١٨.

(٣) الآمدى - الأحكام ج٢ ص ٤٣٨ ومابعدها.

(٤) المرجع السابق ص ٤٤٠ : ٤٥١.

(٥) سورة النور الآية ﴿٤٤﴾، ﴿٥﴾.

، فأصحاب الرأى يرونه منصرفاً أصلاً إلى جميع الجمل لكن الدليل الخارجى دل على عدم تعلقه بالجمل الأول وهو طلب الجلد ولم يخرج الدليل غيرها من تعليق الاستثناء به فإذا زال عنه اسم الفسق، وقبلت شهادته. وأصحاب الرأى الثانى يرون الاستثناء متعلقاً بالجملة الأخيرة فقط فيزول عنه اسم الفسق بالتوبة ولم يقم دليل على تعلقه بما قبلها فيبقى على ماهو عليه، أما القائلون بالتوقف فيقفون فيها إلى ماتدل عليه القرائن فالاستثناء عندهم لايرجع للدليل ويرجع إلى الفسق ولكنهم يختلفون فى رجوعه إلى قبول الشهادة[1].

وتبدو عناية الأصوليين بهذه المسألة أوفر من عناية النحويين لما لها من أثر فى استنباط الحكم الشرعى.

وقد صرح أبو حيان بأنه «قل من تعرض لها من النحاة، ولم أر من تكلم عليها منهم سوى ابن مالك فى التسهيل وإليها نادى فى شرح اللمع» ويقره السيوطى على قوله لأن المسألة «بعلم الأصول أليق»[2].

وتعد المؤلفات التى كتبت فى «الوقف والائتناف» من البحوث التى تندرج ضمن الدراسات التى دارت حول القرآن، وفيما يبدو أن هذه البحوث تشبه إلى حد كبير ماقام به البلاغيون من دراسة الفصل والوصل فى المستويات اللغوية العربية المختلفة لكنها لاتركز على النص القرآنى فحسب بل جميع النصوص العربية.

وقد عرّف البلاغيون أنفسهم كما قال أبو هلال العسكرى أن البلاغة هى معرفة الفصل والوصل فى النصوص، وقد اهتم النحاة أيضا بالموضوعات نفسها ولكن بقصد آخر وهو وضع معايير للجمل وتحديد أنماطها وتحديد أقسام الكلام العربى وتحديد وظائف الأدوات فى التراكيب بقصد تحديد خصائص العربية

---

(١) طاهر سليمان حمودة. «دراسة المعنى عند الاصوليين» ص ٥١ : ٥٣.

(٢) السيوطى – همع الهوامع مع شرح جمع الجوامع فى علم العربية، مطبعة السعادة – الطبعة الأولى – القاهرة – ١٣٢٧هـ.

وسماتها، ولذا فقد اتفق علماء العربية جميعاً فى الإجراءات والظواهر المدروسة والاهتمام بكل منها كل حسب تخصصه من حيث النحو أو التفسير أو البلاغة.

فعبد القاهر الجرجانى يعدّ من الذين درسوا النص القرآنى دراسة نصية بالرغم من أنه أدخل فى الدراسة مستوى آخر من مستويات اللغة عند التمثيل وهو مستوى لغة الشعر، كما أنه استعان بتراكيب نثرية عند ضرب الأمثلة إلا أنه يعد بحق باحثاً نصياً.

وبالرغم من أن علماء العربية اهتموا بالشاهد الواحد كأن يأتى ببيت شعر أو آية أو كلمة واحدة كما عند علماء الصرف وفقه اللغة إلا أن الهدف الرئيسى من هذا الاستشهاد هو وضع قواعد تنطبق على نصوص اللغة جميعاً وهذا يقود إلى أن الهدف من هذه الدراسة التى تبدو جزئية فى بعضها هو النص الكلى، وهذه الشواهد المفردة التى تتضمنها كتب اللغة والأدب إنما هى حصيلة نصوص عديدة جُمعت ودُونت وصُنفت واستُخلصت منها هذه الشواهد للدلالة على قاعدة بعينها أو ظاهرة عامة.

فإذا مانظرنا فى كتاب «نكت الانتصار لنقل القرآن» للباقلانى نجده قد عقد مقارنة بين النص القرآنى وبين نص لامرئ القيس وهو معلقته الشهيرة، وهذه المقارنة تبدو صورتها الخارجية مقارنة نصية بالرغم من التناول الجزئى لمكونات كل من النصين ناهينا بالمحاولة التى لايليق أن يقارن فيها بين نص من صنع البشر ونص إلهى أوحى به الله إلى عبده[(١)].

٢- ان الدراسات التى دارت حول القرآن من بلاغة وبيان وتفسير هى أولى الدراسات النصية فى اللغة العربية، وذلك لأنها كانت تعنى بالنص القرآنى، أو السورة، أو جزء من السورة، الذى يتضمن حكماً معينا أو فريضة معينة، كما أن الدراسات النحوية فى ذلك الوقت ودراسة العلوم القرآنية كانت تعنى بالتركيب وحسب. ومن دراستنا لاستشهادات البلاغيين والنحاة وغيرهم من علماء العربية

---

(١) انظر مقدمة الكتاب الباقلانى + «نكت الانتصار لنقل القرآن» تحقيق د. محمد زغلول سلام. منشأة المعارف ١٩٨٢، ص ١ : ٤٥.

نجد اهتماماً ملحوظاً بمسألة السياق والتراكيب المتعلقة به فلا يرد موضع الاستشهاد مشروحاً بلغة الكلام العادية وحسب، بل يرد عقبه مباشرة بيت شعر، أو بيتين، أو آية قرآنية، أو حديث نبوى فى بعض الاحيان، بحيث تكون هناك علاقة من نوع مابين موضع الشاهد، وبين النصوص المستشهد بها. ولقدأقر النحاة بأن هناك عصراً للاحتجاج والاستشهاد بأقوال العرب ينتهى عند سنة (١٥٠هـ). وبعده لايعد كلام العرب مصدر احتجاج، لكننا لانكاد نجد نظرة البلاغيين مساوية لنظرة النحاة من هذه الوجهة، بالرغم من أن عمل البلاغيين مشابه لعمل النحاة من حيث الشاهد والمثل، ولكن يبدو أن السبب فى ذلك راجع إلى أن الألوان البلاغية، وبخاصة البديع لم تزدهر إلا منذ القرن السادس والقرون التالية له، وعلى هذا يصبح لكل علم حالات خاصة تتعلق به، ولذا فعلى النحاة ألايتمسكوا بما تمسك به الأوائل من قواعد، فلكل عصر ظروفه ولكل علم نشأة وتطور، والاستعمال العربى فى تطور مادامت الحياة مستمرة، يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى أن النظم هو توخى معانى النحو، وبالطبع يقصد الإمام أن منشئ النص هو الذى يتوخى معانى النحو فى مراحل إنشاء النص بحيث يعقد علاقات ببنى الجمل والتراكيب المختلفة التى تمثل مايجول بفكره مكونا فى النهاية شبكة العلاقات التركيبية التى تنتظم النص. ونحن ننطلق انطلاقة عكسية لاتجاه عبد القاهر الجرجانى فنتتبع الدراسات التى طبقت على النصوص العربية، محاولين إثبات أن هؤلاء الأئمة كانت لهم اهتمامات نصية، وإن تركوا لنا مايشير إلى الاهتمام بالجزئيات والتحليلات البسيطة، فمقولة عبد القاهر توضح توضيحاً صريحاً ماتنبه إليه من اهتمام بالنص، كما أن تجربته فى كتابه «دلائل الإعجاز» التى يركز فيها على النص القرآنى بأكمله تثبت هى أيضا هذا الاهتمام.

لقد كان الحديث عن إعجاز القرآن مجالاً خصباً للكشف عن طاقات اللغة الكامنة فى التعبير الأدبى، وكان معظم الاعتماد فى هذا المجال على المعانى النحوية. وقد ظلت هذه البذور تنمو حتى اكتملت عند عبد القاهر الجرجانى فى نظريته المعروفة بـ «النظم». وقد أجاد فى ربط المعانى النحوية بمدلول النص

الأدبى، وأرجع كل مزية فى التعبير إلى المعانى النحوية لاغير، وليس النظم عنده فى مجمل الأمر إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشئ منها، وذلك أنا لانعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قـــولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق[1] .فقد ذكر عبد القاهر الجرجانى هنا ثمانية وجوه للإخبار عن انطلاق زيد، سبعة منها بالجملة الإسمية وواحداً منها بالجملة الفعلية، حيث تقدم فيها الفعل المضارع «ينطلق زيد» فتحول المبتدأ إلى فاعل بدلاً من أن يكون ضميره هو الفاعل، وتتناول الوجوه السبعة للخبر، تنكيره وتعريفه، وتقديمه وتأخيره، وإفراده وتركيبه، وفصله بضمير فصل أو عماد عن المبتدأ. ولم يكن عبد القاهر الجرجانى هنا قاصداً إلى حصر هذه الوجوه وإلا فهناك أوجه أخرى محتملة وممكنة، ولكن هذه الأوجه هى التى تحتملها كلمة «منطلق» أو «ينطلق» أى فى حالة اسم الفاعل والمضارع فحسب. ومايقوله عن الخبريقوله عن الحال، مع استعداد الحال لإمكانات أكثر من الخبر ومع الحال الجملة خاصة، ووجوه الشرط والجزاء، ومعانى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل منها بخصوصية فى ذلك المعنى لايشركه فيها غيره، والجمل ومايكون بينها من الفصل والوصل، والنظر فيما إذا كان الوصل «بالواو» أو «بالفاء» أو «ثم» أو «أو» أو «أم» أو «لكن» أو «بل» وما يلابس ذلك كله من التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام، والحذف، والتكرار، والإضمار، والإظهار. وهل وُضع كل من ذلك مكانه واستُعمل على الصحة وعلى ماينبغى له؟ فهذا هو السبيل إلى النظم «فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم «إلا» وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ماينبغى

(١) «دلائل الاعجاز» - عبد القاهر الجرجانى - طبعة المنار - ص ٦٤.

له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معانى النحو وأحكامه ووجدته يدخل فى أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه[1].

لقد كان من جمل أغراض عبد القاهر الجرجانى من نظرية النظم غرض دينى حيث أراد الدفاع عن إعجاز القرآن، وبيان طريقه من خلال النظم، وتعليم طريقة الجدل فى ذلك وعدم الوقوع فى مغالطة الخصوم[2]. ولعل هذا ماجعل تطبيقاته لهذه النظرية لم تكن إلا على مستوى الجملة الواحدة بوصفها وحدة فنية مستقلة تحمل كل مقومات تمايزها واستقلالها، وقد يصلح هذا الضرب من التناول للقرآن الكريم على اعتبار أن كل آية فيه بل كل جملة منه معجزة فى ذاتها. ولكن هذا التناول لايصلح للشعر من حيث إننا لسنا نريد تحليل جملة من النص أو بيت واحد منه، بل نريد تحليل النص كله بوصفه وحدة بنائية متكاملة ذو أجزاء كل جزء فيه يقوم بوظيفة معينة فى تكامل هذا البناء، إذ أن هذا يدفع إلى التساؤل المرتاب: ما الذى يدفع الشاعر إلى صوغ هذا العدد من الأبيات المستقلة والأغراض المتنافرة فى نص واحد؟

ومن هنا كانت خطورة ماصنعه عبد القاهر من التمثيل بأبيات مستقلة معزولة عن سياقها منظور إلى كل بيت فيه على أنه عمل فنى مكتمل[3].

ويعد المجاز من الموضوعات المشتركة أى التى اشترك فى دراستها كل من البلاغيين واللغويين، ودراستها تقتضى الاهتمام بالتركيب كله خاصة وبمضمون النص بعامة ونبّه الأصوليون إلى أن الزيادة والحذف من المجاز الإسنادى أى العقلى الخاص بالتراكيب[4]. وكشف أمر المجاز وتحويله إلى حقيقة لابد أن يعتمد على

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٥ ، ٨٢ : ٨٣.

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٣ : ٣٤.

(٣) د. محمد حماسة عبد اللطيف - «اللغة وبناء الشعر» ط١، سنة ١٩٩٢م - ص ٢٢.

(٤) السيوطى - «المزهر فى علوم اللغة وأنواعها» تحقيق محمدأحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى - ومحمد ابو الفضل ابراهيم - دار احياء الكتب العربية القاهرة - ج ١ - ص ٣٥٩ : ٣٦٠.

سياق أو نص وإلا فمن غير الممكن كشف حقيقة هذا المجاز بما يلازم التراكيب والسياقات المكونة له فى هذا النص، فالمجاز يشمل بالأصالة أسماء الأجناس والمقصود بها المصادر نحو إطلاق لفظ، «القتل» علي الضرب الشديد وأسماء الذات نحو «الأسد» للشجاع، أما التجوز فى الأفعال وما اشتق منها أسماء الفاعلين والمفعولين وسائر المشتقات فهو تابع للتجوز فى المصادر.

وكان علماء المعانى أنفسهم محسنين غاية الإحسان عندما كانوا يذكرون وجوهاً مختلفة لتركيب ما من التراكيب. وبعد ذكر هذه الوجوه يعقبون بما يشعر أن الباب مفتوح لكل مجتهد فى فهم النص بشرط سلامة العقل واستقامة الطبع. يقول القزوينى مثلا بعد أن يذكر عشرة أغراض مختلفة قد يحذف المسند اليه لواحد منها «وإما لاعتبار آخر مناسب لايهدى إلى مثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم»[1]. فالأمر راجع أولاً إلى سلامة العقل واستقامة الفطرة فى النظر إلى النصوص وليس معنى هذا أنه تذوق عضوى ولكنه تذوق قائم على فهم العلاقات التى تحكم التركيب وتوجه بناءه، وهذه العلاقات هى «المعانى النحوية».

لقد اهتم كثير بفاعلية المعنى النحوى فى شرح النصوص وتفسيرها، وهناك نماذج كثيرة يمكن أن يبين فيها مدى الاعتماد على فاعلية المعنى النحوى الدلالى[2]. على أنه يمكن تلمس فاعلية المعنى النحوى فى بعض تفاسير القرآن الكريم وبعض شروح الشعر وتفسير تراكيبه على تفاوت فى ذلك.

إن شارح النص عندما كان يحدد «إعراب» كلمة مافى جملة من الجمل يبين بذلك أموراً مهمة، فهو أولا يكشف المعنى النحوى الأولى الذى يمثل جزءاً مهماً جداً من دلالة الكلمة بانضمامها إلى الدلالة الأولية للكلمة، وهو ثانيا يحدد الوجه الذى سيتعامل به مع تفسيره لهذه الكلمة، لأن اختلاف الوظيفة النحوية

(١) الخطيب القزوينى - «الايضاح فى علوم البلاغة» جـ١، ص ١٠٩ ط٤ ١٩٧٥م - بشرح وتحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى - دار الكتاب اللبنانى - بيروت.

(٢) العلوى - يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم «الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز» دار الكتب العلمية - بيروت - د.ت ص ١٣٨ : ١٧٩.

يؤدى ضرورة إلى اختلاف الدلالة المرادة من الكلمة في الجملة، وهو ثالثاً يريد أن يؤسس شرحه للتصوير البيانى فى النص على أساسه السليم فكل مايكون تشبيهاً أو مجازاً أو استعارة ...الخ. مبنى فى حقيقة الأمر على التعليق النحوى من قبل أن الكلمة المفردة لاتمثل شيئاً من ذلك، وليس معنى ذلك أن الفكر لايتعلق بمعانى الكلم المفردة أصلاً. ولكنه كما يقول الجرجانى «لايتعلق بها مجردة من معانى النحو ومنطوقاً بها على وجه لايتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها[1].

لقد اعتاد النحاة واللغويون فى تقعيدهم للقواعد إما على القرآن الكريم، أو الحديث الشريف أو الشعر العربى أو النثر الفني كلها نصوص صيغت صياغة خاصة لايرقى إليها مستوى الكلام العادى، لكنهم لم يقعّدوا القواعد على مستوى الكلام العادى حتى أن الخطب والرسائل لاتعد هى الأخرى من مستوى الكلام العادى. وإذا نظرنا إلى هذا البُعد على أنه إهمال لمستوى من مستويات اللغه وهو مستوى استخدام الكلام العادى عند العرب الفصحاء الأقحاح، لكن ذلك يبرز جانبا هاماً وهو تركيزهم على تناول النصوص ودراستها، فما القرآن الكريم إلا نص ومثله الحديث الشريف والشعر والنثر الفنى مع إنفراد القرآن ولغته بخصائص تميزه عن سائر النصوص كما سيتضح عند تحليل سورة الشورى.

أما المنظوم من كلام العرب ومايعرف بالشاهد الشعرى فنجد أن النحاة عامة كانوا ينظرون إليه بعين الريبة، ولايعتمدون منه إلا ماثبت عندهم صحة نسبته إلى قائله وفصاحته وصدق روايته، والوثوق فيه وخلوه من الضرورات. لذلك اشتدت عنايتهم بالرواية وأنواعها وطرقها وبصفات الراوى، ومايجب عليه من الأمانة والصدق ونحوها من الصفات التى ذكرها السيوطى فى أبواب من كتابه المزهر[2].

إلى جانب هذا التشدد فى معرفة الفصيح الذى بلغ أعلى مراتب الصدق والصحة فى النقل نجدهم فى كثير من الأحيان لايعتمدون عليه وحده مالم ترد شواهد نثرية تعزز صحته. لذلك نجد علماء اللغة والأدب والنحو قد اهتموا بالشعراء

(١) النحو والدلالة ص ١٨٤.

(٢) المزهر - جـ٢ - ص ٣٠٢ ومايليها.

وقسموهم إلى طبقات، وألفوا الكتب فيها ليجمعوالنا من الشعر العربى جاهليه وإسلاميه مايكون عوناً لنا فى التفسير والفقه واللغة والنحو والبلاغة وغيرها من علوم العربية «فقد كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»[1].

إن الرصيد النقدى الأولى المأثور عن العرب فى الجاهلية والذى تمثله أحسن تمثيل عبارات التفضيل والتعاليق المتفرقة التى كانت تخص الأبيات الشعرية وتتناول بعض مفرداتها أو تراكيبها أو صورها، والتى تمثل عندنا بداية الشروح المفصلة قد مكنت العرب من قراءة القرآن قراءة لسانية عقلية تعتمد استعمالات العرب وأحكام العقل، ثم أثر القرآن نفسه فيها فحوّلها من وضعيتها الشفوية إلى وضعية العلوم والصناعات.

ولتبين منزلة الحدث القرآنى من عملية الشرح يحسن الرجوع إلى مقدمة ابن خلدون[2]. حيث تحدث المؤلف عن نشأة علم التفسير عند العرب يعنى تفسير القرآن، لكن حديثه ينطبق على شرح الشعر وحتى على شرح النثر فى مرحلة النشأة على الأقل لأن هذه الأعمال مشتركة فى ظروف النشأة ومتشابهة فى الاتجاه. وأهم مافى حديث ابن خلدون تقسيمه أنواع التفاسير قسمين: التفسير النقلى «المسند الى الآثار المنقولة عن السلف» وهو الذى لاينطلق من النص فى الشرح وإنما من الظروف التى حفّت به، وهذا الضرب من التفسير حسبه أسبق فى تاريخ الظهور عند العرب والتفسير اللغوى العقلى «وهو مايرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب» وهذا التفسير انطلاقة من النص خاصة ومن إمكانيات الاداء فيه. ولظاهرة شرح الشعر من قبل المفسرين اتصال متين من ناحية أخرى بظاهرة جمع الشعر ذاته من قبل الرواة والمدونين، ولذلك كان شراح الشعر فى البداية هم أنفسهم رواة ذلك الشعر مع الملاحظ أن الرواة الشراح كانوا فى الغالب شعراء أيضا.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧٣.

(٢) ابن خلدون – المقدمة – القاهرة – د. ت.

يقول د. محمد عبده عزام[1] : «وكان كثير من هؤلاء الرواة شاعراً، فالحطيئة راوية زهير، وآل زهير وهدبة بن خشرم راوية الحطيئة، وجميل راوية هدبة هذا، وكثير راوية جميل، والسائب بن الحكم السدوسى راوية كُثير».

وليس هذا غريباً فإن رواية الشعر من الشروط التقليدية فى تكوين الشاعر، وكثيراً ماكان الشعر يروى مشفوعاً بتفسيرات وتعليقات توضح بعض مافيه من غموض أو غرابة، فرواية الشعر والتعليق عليه وإنشائه عمليات كانت تمثل وحدة عادة لم تستقل كل منها بذاتها إلا فى عهود متأخرة عن عهد النشأة، والمشهد الذى كان يعكس تضافرها واجتماعها عند الأديب الواحد «مجالس الإنشاد» التى كانت تعقد فى الأندية العامة والمجالس الخاصة، حيث كانت تنشد الأشعار وكان الناس يتعقبونها بالتعليقات المختلفة كعبارات الإعجاب أو السخط ومحاولات تعليل هذا السخط أو الإعجاب.

وهكذا ظهر شرح لما حفّ بالشعر من ظروف وملابسات تُقدم فى قالب أخبار وأنساب، وربما وقف الناقد عند الكلمة الغريبة أو عند وجه غريب من أوجه الإعراب، وحِرص العرب على التثبت فى الرواية وحده كافٍ للتدليل على نزعتهم إلى الجمع بين الرواية والشرح من ناحية، وعلى أن بوادر الانشغال بالشرح قديمة هذا مادعا السيوطى فى المزهر إلى التوسع فى أمر التثبت فى الرواية وعقد فصلاً يقول فيه «ولايقتصر الراوى على رواية الأشعار من غير تفهم مافيها من المعانى واللطائف[2] .» حتى أصبح الشرح أساساً لاتجوز الغفلة عنه فى طريقة حافظ اللغة فى الاملاء.

كان الرواة قبل ظهور الاختيارات يصنعون أشعار القبائل يضمنون أشتات شعر المنتمين إلى قبيلة واحدة ويجعلون كل منها كتابا[3] . ثم اتجهت نية بعضهم فى

---

(١) شرح الخطيب التبريزى على ديوان أبى تمام - المقدمة - ص ٨، القاهرة ١٣٥٢ هـ.

(٢) المزهر - جـ٢ - ص ٣١١.

(٣) المفضليات - تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - مصر ١٩٦٤م تمهيد الناشرين ص٩

مرحلة ثانية إلى صنع الاختيارات العامة، فصنفوا فيها كثيراً من المجموعات. وقد استقرت سنة تدوين الاختيارات الشعرية عندهم منذ أن تجسمت أول عملية اختيار في المعلقات المشهورة وعمليات الاختيار الاخرى الموالية لها فى المفضليات والأصمعيات، وغيرها من الاختيارات التى ضمت أشعاراً كانت دون المعلقات شهرة.

وصاحبت ظاهرة الاختيار ظاهرة الشرح وقد كان حظ هذه الظاهرة من الممارسة والشهرة كبيراً عند العرب، ناهيك أن جلّ دواوين الشعر العربى لم تكد تصلنا إلا مشفوعة بشروحها بل ما كان أكثرها ليصلنا لولا الشروح التى أحيتها وحفزت الهمم إليها. إلا أن ملامح الاختيار اختفت وراء نصوصها ومعالم الشرح ذوت أمام متونها(١).

ولهؤلاء الرواة والشراح دور أساسى وهام ليس فى جمع النصوص وحسب، وإنما فى تنظيمها وتهذيبها، ونقد ما فيها بحيث يستبعدون مايشكون فى نسبته إلى النص من خلال تحليلهم الدقيق الأسلوبى للنصوص، هذا عدا توثيقهم للنصوص وشرح دلالاتها اللغوية ومعضلتها النحوية وإن شاب بعض الروايات شك من حيث صدق الرواية، أو تغليب الراوى لرأيه الشخصى فى صاحب النص من حيث إبداء العداء له عن طريق الشك فى نصه، أو إسباغ الصحة على النص لمحاباته صاحب النص أو القبيلة التى ينتمى إليها صاحب النص أو مجاملة قطاع من الناس أو طمعاً فى عطاء خليفة ينتحى إليه هذا النص بأى صلة كانت(٢).

وفى دراسة للدكتور قباوة عن أجيال الشراح الذين اهتموا بالنصوص العربية يرى أن الطبقة الرابعة من الشراح عنيت بتصنيف شروح مفصلة واسعة النطاق، فقد ألقى أبناء هذه الطبقة كأحمد بن عبيد، والسكرى والأحول، وثعلب «يضاف

---

(١) د. محمد الهادى الطرابلسى «بحوث فى النص الأدبى» - الدار العربية للكتاب ١٩٨٨ - ص ٤٨.

(٢) د. فخر الدين قباوة - «منهج التبريزى فى شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات - حلب ١٩٧٤م - ص ٤٩ مايسبقها ومايليها.

إليها أيضا ابن قتيبة، والأشناندانى اللذان ألفا فى معانى الشعر› أنفسهم إزاء أشعار مدونة تختلف رواياتها ومصادرها، والتفسيرات التى أُلحقت بها، فوجهوا اهتمامهم إلى صنعة شروح تنسق هذه الاختلافات، وتضيف إليها مايوحدها ويوجهها نحو مقدمة الشعر متعاونه متآلفة، فكان أن قدموا للعربية أضخم محاولة ناضجة واعية فى صنعة الشروح لكثير من الأشعار أشبعوا تفسير شكلها وبالغوا فى ايضاح غامضها واستقصوا شرح غريبها مثلا حينما فرط فيه غيرهم منها[1].

لقد تعددت اهتمامات الرواة والشراح بالنصوص العربية كلُ حسب ثقافته وتخصصه فإذا نحن أمام تطورات ذات أهمية كبرى فى تاريخ الشروح، فقد تناولت الشعر القديم فى هذه الحقبة ومابعدها أيدٍ اختلفت اختصاصاتها وتباينت وسائلها فوجدت كل منها فى هذا العمل متنفساً لرصيدها الثقافى وأضفت على الشرح طابعاً خاصاً مميزا[2].

والحقيقة أن مانجده من تحليلات شاملة فى الدراسات التطبيقية البنيوية والأسلوبية الحديثة من حيث تحليل أنظمة العلاقات اللغوية والثقافية نلمسه فى تحليل الشراح للنصوص التى لايكتفون بتحليلها لغويا وحسب بل يستدلون على صحة هذا التحليل ودقته بما يحيط بالنص من سياق اجتماعى وثقافى بالإضافة إلى السياق اللغوى.

فأبو العلاء المعرى يحشد فى شروحه الأخبار التاريخية ومسائل البلاغة والعروض والقافية والنقد ثم يغلب على ذلك كله استطراداته اللغوية والنحوية[3].

والموضوعية فى التفسير والتحرى فى الرواية قضيتان لاتستقيم قواعد اللغة مالم يقوما فى رواية الشعر.

ولعل أبرز من يمثل هذه النزعة من الشراح الشاعر أبو العلاء المعرى، فقد

(١) المرجع السابق – ص ٦٤ : ٦٥.

(٢) منهج التبريزى – ص ٦٨ : ٦٩.

(٣) انظر ديوان المتنبى فى العالم العربى بلاشير – مطبعة نهضة مصر – ص ٢٢.

شرح المعرى عدداً كبيراً من الكتب النثرية ودواوين الشعر، وشروحه هذه صنفان: صنف شرح فيه كتب ألفها هو لما رأى أنها غريبة المعنى وأن الحاجة ماسة إلى تفسيرها وشرح غريبها، وصنف شرح فيه آثار غيره من الأقدمين ناثرين وشعراء[1].

واذا كنا قد ركزنا على اهتمام علماء العربية بالنص كلية أو بالسياقات المجتمعة بالنص الواحد فإن اهتمام العلماء بالجزئيات يشكل جميع النص غير أن اهتمامهم أنصب على الملاحظات اللغوية أو البلاغية أو الدلالية لما أشكل على المستمع والدليل على ذلك شروحهم لجميع أجزاء الديوان للشاعر الواحد، وللمعلقات بكاملها، ولجميع القرآن ولبعض سوره.

والحقيقة أن الشراح ارتبطت شروحهم بالسياق اللغوى من حيث ترجيح وجه إعرابى بعينه، فالمسائل النحوية فى الشرح فيثيرها بيان المعنى للعبارة أو البيت كله.

فقول سعد بن أبى ناشب.

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً

علىَّ قضاء الله ما كان جالباً.

يروى «قضاء» بالرفع والنصب، وأبو زكريا يضع هاتين الروايتين على معايير النحو، ليبدى معنى كل منها فيقول: فإذا رفعت فإنه يكون فاعلاً ﴿جالبا على وما كان جالبا﴾ فى موضع مفعول، ويكون القضاء بمعنى الحكم. والتقدير: سأغسل العار عن نفسى باستعمال السيف فى الأعداء فى حال جلب حكم الله على الشئ الذى يجلبه. وإذا نصبت القضاء فإنه يكون مفعولاً لـ«جالبا» وفاعله «ماكان جالبا» ويكون القضاء: الموت المحتوم. كما يقال للمصيد وللمخلوق الخلق والمعنى: جالبا الموت جالبه وكذلك مايسهب فيه شأن أنصار الاتجاه النحوى من معالجة قول لبيد.

---

(١) شرح «ديوان ابن أبى حصينة» تحقيق محمد أسعد طلس – المعجم العلمى بدمشق – د.ت.

تراك أمكنة إذا لم أرضهـا .·. أو يرتبط بعض النفوس حِمامها.

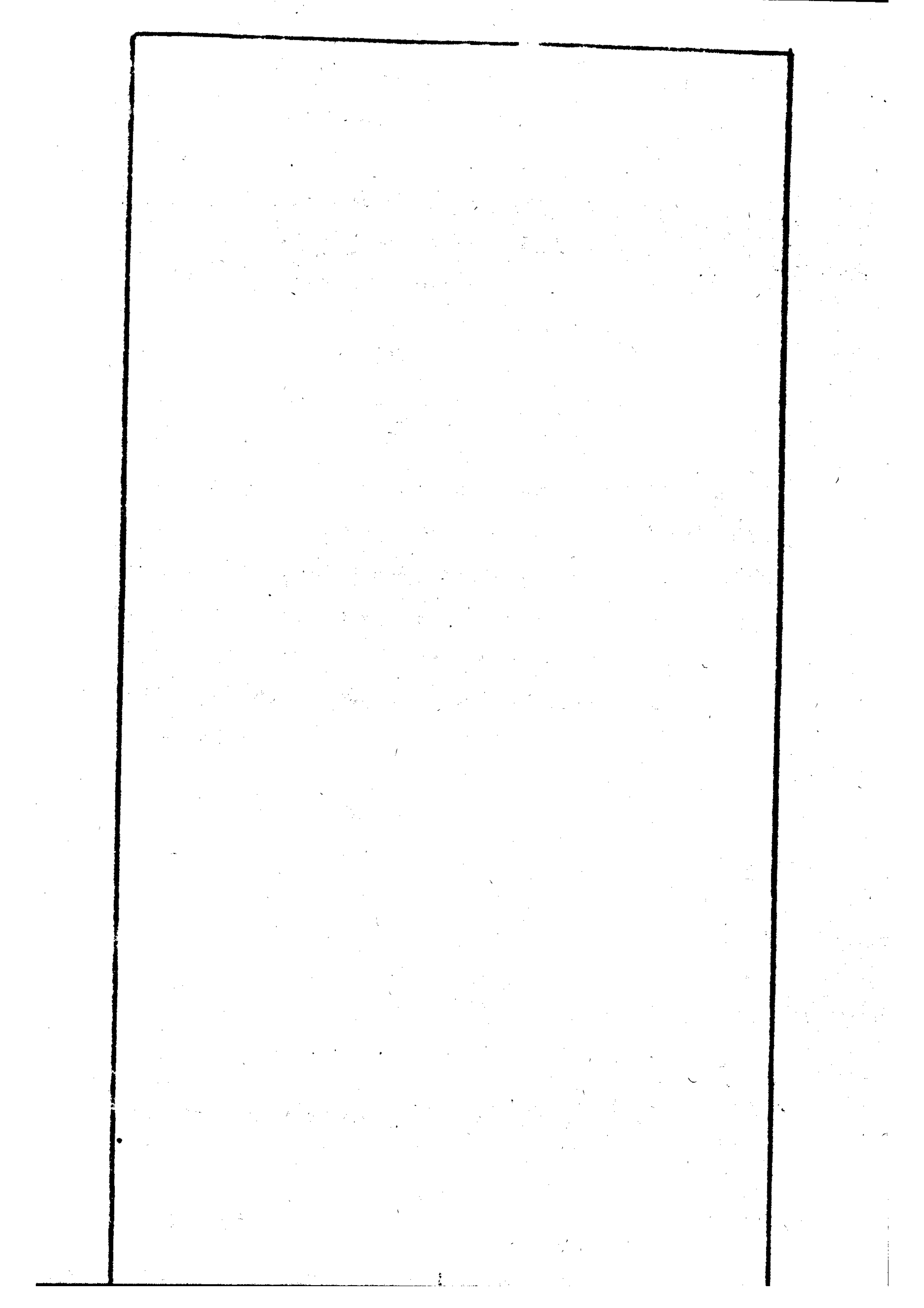
إذ يبسط وجوه إعراب «يرتبط» فى قوله[1]: قيل إن يرتبط فى موضع رفع إلا أنه أسكنه لأنه رد الفعل إلى أصله لأن أصل الأفعال ألا تعرب، وانما أعربت للمضارعة وقيل: إن «يرتبط» فى موضع نصب ومعنى «أو» معنى «إلا أن» كما قال:

فقلت له لاتبك عينك إنما

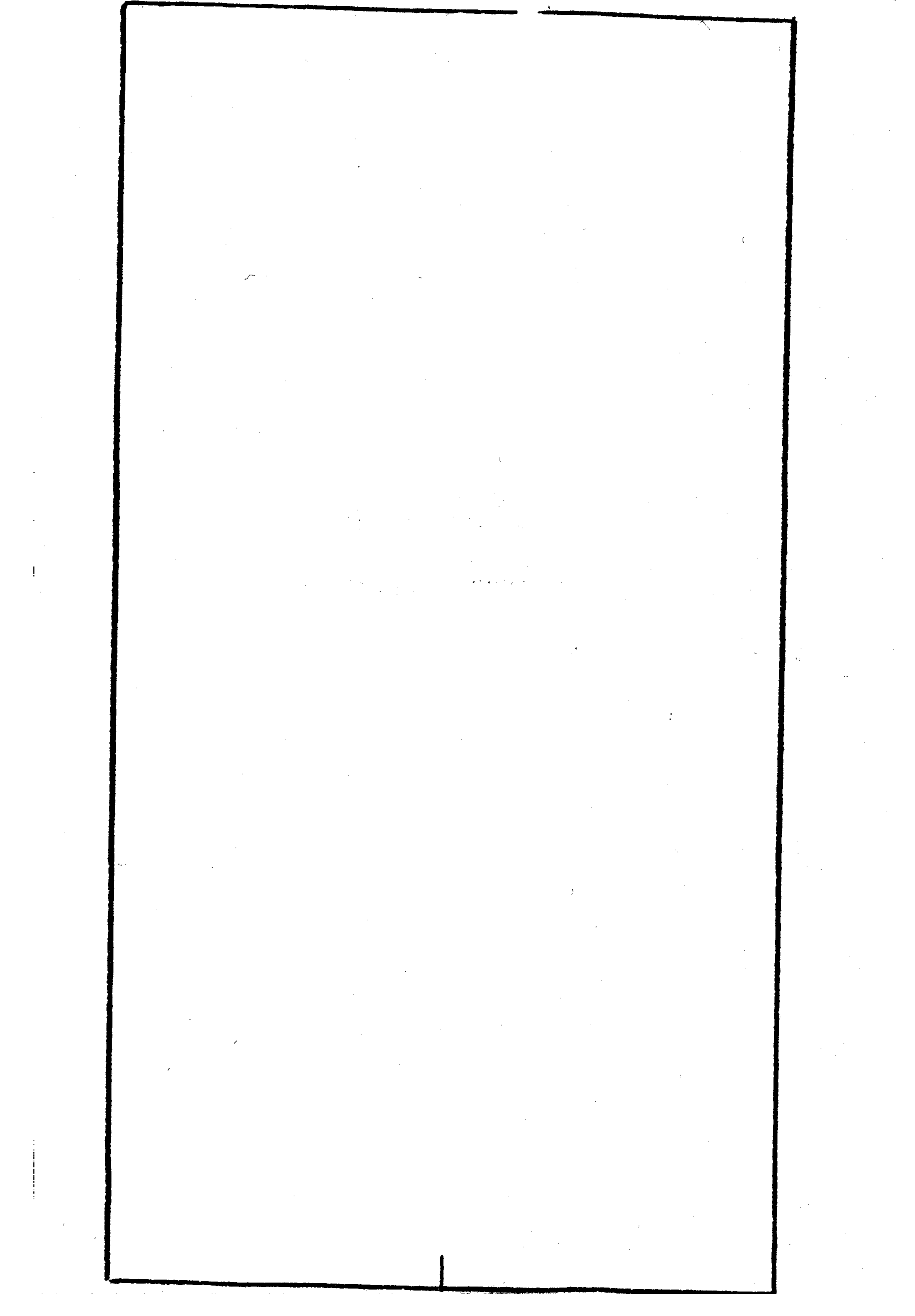
نحاول ملكاً أو نموت فتعذرا

بمعنى(إلا أن) غير أنه أسكن لأنه رد الفعل أيضا إلى أصله. وأجود من هذين الوجهين أن يكون «يرتبط مجزوماً، عطفا على قوله «إذا لم أرضها»، لأن أبا العباس قال: لايجوز للشاعر أن يسكن الفعل المستقبل لأنه قد وجب له الإعراب لمضارعته الأسماء. وصار الإعراب فيه يفرق بين المعانى. ألا ترى إنك إذا قلت: لاتأكل السمك وتشرب اللبن كان معناه خلاف معنى قولك: وتشرب اللبن. ولوجاز أن يسكن الفعل المستقبل لجاز أن يسكن الاسم، ولو جاز أن يسكن الاسم لم تبينت المعانى.

(١) شرح القصائد العشر الخطيب التبريزى ص ٢١٢ - القاهرة ١٣٥٢ هـ.



الباب الثاني
(مداخل النص)



الفصل الأول
التحليـل الأسلوبـى

يسمى علم لغة النص بعلم الخطاب وهو يهتم اليوم بدراسة أنواع النصوص الخطابية كافة المنطوقة منها والمكتوبة. الأدبية منها وغير الأدبية، أضف إلى ذلك أنه علم يدرس هذه النصوص المختلفة فى زمان معين، ومكان معين، وعلى لسان متكلم أو كاتب معين يخاطب مستمعاً معينا بطريقة معينة وفى ظروف اجتماعية معينة، أى أن هذا العلم يدرس كل مايتعلم بإثنوغرافيا التواصل اللسانى[1].

ففى هذا الحقل الجديد يحاول الباحث اللسانى أن يبين الوجوه الدلالية والاجتماعية العميقة التى يعبر عنها من خلال المبانى النحوية السطحية المختلفة ضمن سياقات لغوية واجتماعية معينة، الأمر الذى يجعل نظرية تحليل الخطاب حقلاً مهماً يساعد الباحث لأن يكتشف ثقافات وإثنيات مختلفة ضمن مجتمع معين من خلال دراسته للخطاب المنطوق والمكتوب أيا كان نوعه ومستواه سواء أكان ذلك فى مستوى البنية، أم مستوى الوظيفة، أم مستوى الدلالة.

فمن خلال مقارنة أوجه التشابه والخلاف بين الخطابات المختلفة فإن الباحث يستطيع أن يكتشف الوجوه الإيصالية والتواصلية التى تعمل على كل منهما[2].

غير أن هناك جانبا هاماً يتعلق باللسانى نفسه الذى يقوم بعملية التحليل، خصوصاً إذا كان عربياً، اذ لديه رصيد من القواعد والقوانين اللغوية الموروثة تتعلق بالوحدات الكلامية من حيث بناءها ووظيفتها، وقد اكتسب القدرة على التحليل من خلال أدوات جمعها من هذا الموروث، فهو يعرض النصوص من خلال هذه الأدوات، كما يعرض الموروث من القواعد على هذه النصوص بحيث يكشف

---

(١) د. نايف خرما «اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها» سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٨، ص ٤.

(٢) د. مازن الوعر «الاتجاهات اللسانية المعاصره ودورها فى الدراسات الأسلوبية» - ص ١٧١ - مجلة عالم الفكر المجلد ٢٢، العدد ٣،٤ - ١٩٩٤.

مدى المطابقة والمخالفة، ومن خلالهما يرصد مدى التطور أو التجاوز فى الأساليب التى تنتمى إلى نصوص مختلفة أو أزمنة مختلفة، وقد يكتشف أن هناك نصوصاً فوق القواعد إما لسبقها عهد التقعيد، أو لشرف منزلة قائلها، أو لوظيفتها فى المجتمع. كأن تكون معجزة كما سيتضح ذلك فى تحليل سورة الشورى. والواقع أن الأسلوبيات التى كانت قد ورثت البلاغة القديمة وأُسست عليها لم تستطع فى الآونة الأخيرة أن تستوعب الخطاب، ولم تستطع أن تعالج الشبكات الدلالية فى داخله، وذلك لقصورها المعرفى «الأبستمولوچى» فى النظر إلى النص من وجهة نظر منهجية واحدة من جهة، ثم لعدم فهمهما لشبكات الخطاب وارتباطه بالمعارف المختلفة: الثقافية والاجتماعية والدينية والنفسية والسيمولوچية ...الخ من جهة أخرى[1].

ونظرية تحليل الخطاب استفادت من مناهج عديدة للأسلوبيات وغيرها من العلوم، ثم بنت عليها وطورتها مستفيدة من المقاييس والموازين العلمية التى تقوم عليها العلوم اللسانية بكل مالها من تقنيات حديثة، أضف إلى ذلك أن نظرية تحليل الخطاب استطاعت أن تكشف فى النص مالم تستطع الأسلوبيات اكتشافه من وجوه أدبية، ولغوية، واجتماعية، ونفسية، وسيمولوچية، وإثنوغرافية تواصلية، لذلك كان الخطاب الأدبى بأجناسه المختلفة «الروائية والمسرحية والقصصية والشعرية... الخ»، والخطاب اللغوى بمستوياته الاجتماعية المتنوعة «العليا والدنيا ... الخ»، والخطاب القانونى، والخطاب النقدى، والخطاب السياسى[2].

إن فتح النص وتفكيك مافيه ثم توزيعه بنيويا ووظيفيا «براجماتيا» ودلاليا ثم إعادة تركيبه يعدّ من أولى مهمات نظرية الخطاب التى تسعى إلى كشف المكونات الجوهرية التى يمكنها أن تجيب عن الأسئلة التالية: من قائل أو كاتب الخطاب؟

---

(١) انظر/ د. ممدوح عبد الرحمن «نظام التراكيب وخصائصه فى شعر سقط الزند» ص ٢٠ ومايليها – رسالة دكتوراه – مكتبة آداب اسكندرية ١٩٩٠.

(٢) د. مازن الوعر «تقنيات الفك والربط فى الخطاب المنطوق والمكتوب» مجلة المعرفة الدمشقية – العددان ٣٢٤ ، ٣٢٥ – ١٩٩٠م سوريا.

ومتى قيل أو كتب؟ وأين قيل أو كتب؟ وماذا حوى؟ ولماذا قيل أو كتب؟ وكيف قيل أو كتب؟ ولمن قيل أو كتب؟.

إن من مهمات نظرية تحليل الخطاب الإجابة عن تلك الأسئلة لمعرفة بنية النص المنطوق والمكتوب من جهة، ثم مساعدة المتلقى على فهم هندسة هذه البنية من الداخل والخارج من جهة أخرى. وليس ضرورياً أن تطرح هذه الأسئلة حول نص واحدا أو يجاب عنها من خلال تحليل نص واحد، فلكل نص قضاياه الشائكة.

فلنعد النص مشكلة وقد تكون هذه المشكلة في غموض الدلالة مثل أشعار المتصوفة، أو بعض أشعار أبى العلاء المعرى. وقد تكون فى تعقد التراكيب كما فى بعض أشعار أبى تمام، والمتنبى، أو الفرزدق. وقد تكون المشكلة فى توثيق النص ذاته لبعض الأشعار المنسوبة إلى عمر بن أبى ربيعة فى دواوين أخرى أو العكس، أو رسالة سهل بن هارون المنسوبة إليه فى بخلاء «الجاحظ» ... الخ. فلكل نص مشاكله وقضاياه.

إن قواعد «نحو الشعر» كما يقدمها لنا «الشعر» تختلف فى كثير من مظاهرها عن القواعد التى قدمها لنا النحويون.

وقد برزت المشكلة عندما حاول النحويون فرض القواعد على الشعر من خارجه وكان عليهم وقد أكثروا من الاستشهاد بالشعر أن يدركوا أن للشعر بوصفه «فناً» قواعد خاصة به قد تتفق مع ما استخلصوه من النثر أو تختلف[(١)]. وإن كان يمكن القول بأنهم عندما قرروا أن للشعر «ضرورات» يعترفون بأن هذا النظام مخصوص، غير أن تسميته «ضرورة» قد تدعو إلى تجنبه والنفرة منه، مع أن الضرورة جانب من جوانب كثيرة فى هذا النظام الشعرى.

إن النحاة عندما أنكروا بعض الظواهر النحوية فى الشعر أنكروها لأنهم قاسوها

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف «الضرورة الشعرية فى النحو العربى» ص ٢١٩ ومابعدها. مكتبة دار العلوم ١٩٧٩م.

على المطرد فى النثر أى إنهم فرضوا على الشعر قواعد من خارجه، ولو أنهم فصلوا الشعر عن النثر فى التقعيد لما أنكروا من الشعر ماأنكروا «على أن كثيراً مما أنكر فى الأشعار قد احتج له جماعة من النحويين وأهل العلم بلغات العرب، وأوجبوا العذر للشاعر فيما أورده منه، وردوا قول عائبه والطاعن عليه، وضربوا لذلك أمثلة قاسوا عليها، ونظائر اقتدوابها، ونسبه بعضهم إلى مايحتمله الشعر أو يضطر إليه الشاعر[١]».

لقد كان لدى النحويين إحساس واضح بضرورة الفصل بين الشعر والنثر، ولكنهم كانوا من جانب آخر يعتقدون بتوحد القواعد اللغوية.

وقد نشأت أجرومية النص من البنيوية الوصفية القائمة على أجرومية الجملة فى أمريكا، وكان مقال زيليج هاريس Zellig Harris عن «تحليل الخطاب» من معالم الطريق فى هذا الاتجاه[٢]. ثم شهدت اللسانيات منذ منتصف الستينات فى أوربا ومناطق أخرى من العالم توجهاً قويا نحو الاعتراف بأجرومية النص بديلاً موثوقا به لأجرومية الجملة وفتحت للدرس اللسانى منافذ كان لها أبعد الأثر فى دراسة اللغة ووظائفها النفسية والاجتماعية والفنية والإعلامية. ولم يكن غريباً أن تحاول المدارس اللسانية على اختلاف منطلقاتها وغاياتها وإجراءاتها أن تقدم طرزها وصيغها ومنظومة مصطلحاتها المميزة لها فى هذا المضمار[٣].

ونحن بحاجة لكى نرسى هذا المنهج إلى مايشبه تغيير القبلة البحثية، وذلك الانتقال بالنحو العربى «واللسانيات العربية بعامة» من طور ظل فيه حبيس أسوار الجملة، أى الكلام المفيد فائدة يحسن السكوت عليها، إلى طور يكون فيه النحو

---

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف - «اللغة وبناء الشعر» ص ٢١٩.

(2) Teuon Van Dayk "Some Aspects of Text Grammar", Mouton, 1972. P. 26.

(٣) د. سعد مصلوح «نحو أجرومية للنص الشعرى» دراسة فى قصيدة جاهلية ص ١٥٣ - مجلة فصول - ع ١، ٢، ١٩٩١م.

(بالمفهوم الواسع للمصطلح) قادراً بوسائله على محاصرة النص ووصفه والكشف عن علاقاته التى تتحقق بها نصية النص بما هو حدث تواصلى مركب، ذو بنية مكتفية بنفسها، قادرة على الإفصاح والتأثر والفعل(١).

والخطوة الأولى فى التحليل الأسلوبى هى ملاحظة أنماط الإنحراف المعتاد نحو التكرار الصوتى، أو التغيير فى نظم الجملة، أو كيفية التدرج بالعبارات ونحو ذلك مما يخدم وظيفة جمالية ما، كالتأكيد أو التوضيح أو خلافهما من الوظائف(٢).

وقد ثار جدل بين علماء اللغة وعلماء الأدب حول العلم الذى ينبغى أن ينتمى إليه علم الأسلوب: هل إلى علم اللغة أم إلى نظرية الأدب؟.

يرى ويليك/ وورين أن علم الأسلوب إذا استخدم استخداماً أدبياً وجمالياً خالصاً، ينحصر فى دراسة عمل فنى أو طائفة من الأعمال الفنية التى توصف فى حدود معانيها ووظائفها الجمالية، وباختصار: إذ كانت الغاية الجمالية "Aesthetic Purpose" هى مركز التحليل، فإن علم الأسلوب يعد إذ ذاك فرعاً من علم الأدب وهو فرع مهم، لأن المناهج الأسلوبية هى التى يمكنها تحديد السمات المميزة للعمل الأدبى(٣).

وينبغى هنا ملاحظة انطلاق هذا التحليل من منطلق لغوى وعلى أسس لغوية، سواء فى تحليل السمات أم فى مقارنة المميزات الفردية للعمل بالاستخدام العادى(٤).

---

(١) سعد مصلوح - «العربية من نحو الجملة إلى نحو النص» - مجلة فصول العدد ١ ، ٢ - سنة ١٩٩١م، ص ٤٠٦.

(2) Wellek, Rene/ Warren, Austin, Theory of Literature, Penguin Books, Great Britain 1982. P. 175.

(3) Wellek, Twarren, Op. Cit. P. 180.

(٤) د. محمد العبد «اللغة والإبداع الأدبى» - ط١ - ١٩٨٩م - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة - ص ٢٥.

إن المعاني النحوية تتعدد وتتجدد بتعدد الإبداع فى الأدب وتجدده، لأن الصيغة النحوية قالب يُحشى بالأمثلة المختلفة المتعددة التى لاتنقضى ولاتنفذ، ومن هنا تتعدد المعانى النحوية وتتجدد، فوظيفة الفاعلية مثلا ثابتة فى الصيغة النحوية، ولكن دلالة الفاعلية بوصفها معنى نحويا لايتوقف على كون الاسم فاعلا فحسب، بل يتوقف هذا المعنى على نوع الفاعل هل هو مصدر مؤول أو اسم؟ ومانوع هذا الاسم الذى يختاره الشاعر لشغل وظيفة الفعالية؟ هل هو نكرة أم معرفة وهل هو نكرة مخصصة أو غير مخصصة؟ وإذا كان معرفة فهل تعريفه عن طريق الإضمار أو العلمية أو الموصولية أو الإشارة أو عن طريق الألف واللام و الإضافة إلى واحد منها؟ ومانوع ما أضيف إليه؟ ومامعنى هذا الاسم معجمياً ومامعناه السياقى وما العلاقة بين هذين المعنيين؟ وما الموقف الذى يكتنفه ومادرجة ألفته؟ وما درجة عدم الألفة ومانوعها؟ وماصيغة هذا الفعل ومامعناه المعجمى والسياقى؟ وهل هو فعل مطلق أو مقيد ومانوع مقيده؟ ثم هل الجملة نفسها المكونة فى الفعل والفاعل عنصر فى جملة أخرى، أو هى جملة مستقلة؟ وهل هى جملة مطلقة أو مقيدة، وما نوع مقيدها؟ هل هو الاستفهام أو النفى أو التمنى أو الرجاء أو النهى... الخ؟، وماذا تحمل هذه الجملة من دلالة وفق السياق العام للنص؟ وهل تتردد أو تتكرر هذه الدلالات فى غيرها من الجمل؟ وما علاقاتها النحوية والسياقية بالجمل الأخرى إلى آخر هذا النسيج المحكم المتشابك[1].

وقد لخص عبد القاهر الجرجانى هذه الوجوه والفروق فى عبارة موجزة اذ يقول: «وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيها فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لاتجد لها ازدياداً بعدها».

فالصيغ النحوية متضمنة فى المعانى النحوية، وهى عنصر واحد من عناصر متعددة تؤدى إليها، والنص على هذا المستوى يحكمه نوعان من العلاقات النحوية:

---

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف «اللغة وبناء الشعر» ص ٣٢.

العلاقات الأفقية والعلاقات الرأسية. أما العلاقات الأفقية فالمقصود بها ترابط الجملة الواحدة فى داخلها بواسطة العلاقات النحوية المعروفة على مستوى الجملة من الابتدائية والخبرية فى الجملة الاسمية، والفعلية والفاعلية فى الجملة الفعلية إلى آخره.

والأمور التى ينبغى أن تلاحظ وترصد هى اختيار الشاعر للكلمات المعينه الصيغ الخاصة بها والوظاذف النحوية التى تشغلها، ويلاحظ فى ذلك كله الكيفية التى وردت بها فى الجملة ومحاولة التعليل، لهذا. فلماذا اختار الشاعر هذه الكيفية؟ وماعلاقة ذلك بالغرض الذى سيقت له؟ أو ما الغرض منها؟ وهل يتلاءم ذلك مع السياق الذى وردت فيه أو يعارضه؟ ومادلالة هذا التلاؤم أو هذا التعارض فى البناء الكلى للنص[١]. ويبدو أن طريقة التناول وأداء الباحث نفسه هما اللذان يطبعان البحث الأسلوبى بطابعهما. فالدراسة الأسلوبية لاتقف عند حد النواحى الجمالية فى النص أو إبراز هذه النواحي وحسب.

فإسهام البحث الأسلوبى لاينحصر فى خدمة النص أو صاحبه وحسب، بل إنه يتعدى ذلك نظام القواعد، والعرف السائد فى التأليف التى نسج على منوالها هذا النص.

وإذا كان النحو القديم يعتمد على شواهد بعينها يمكن حصرها ظلت متوارثة قروناً طويلة، وما زاد عليها هو الشروح وألوان جديدة من التحليل فى العصر الحديث، فإن البحث الأسلوبى يتيح إمكانات أكبر فى استقصاء النص الواحد بكامله، وتحليله تحليلاً دقيقاً بجميع مكوناته الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، والمعجمية، والإيقاعية بما تشمله من فونيمات ومقاطع وعرض كل ذلك على ما أثر من مقولات نحوية ولغوية تؤدى فى النهاية إلى إثبات القاعدة القديمة أو نقدها أو إلغاء عموميتها بحيث تصبح صالحة للتطبيق على مفردات أو مركبات بعينها دون الأخرى ويمكن من خلال ذلك وضع سمات مميزة للمفرد أو

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ : ٣٣.

المركب حالة اندراجه ضمن قاعدة بعينها بحيث لاتسمح لمفرد أو مركب آخر بالدخول تحت هذه القاعدة.

أما جيرو فقد جعل لعلم الأسلوب فرعين اثنين بناء على اختلاف وظيفة أحدهما عن الآخر: فهناك علم الأسلوب اللغوى الذى يدرس الشكل اللغوى، وعلم الأسلوب الأدبى الذى يدرس المضمون. ويدخل الفرع الأخير فى إطار نظرية الأدب أو النقد الجديد. بيد أن كلا من هذين الفرعين يستعير مفاهيمه وطرائقه من علم اللغة الحديث[١].

وعلى هذا فإن البحث الأسلوبى بإجراءاته يعد مدخلاً لعلم النص أو علم لغة النص وتحليله. والحقيقة أن العلمين فى عالمنا العربى قد سلكا مسلكاً متشابهاً فى النشأة والنمو التطبيق غير أن الأخير مازال فى طور التطبيق بحكم ظهوره متأخراً عن علم الأسلوب، وإن كان العلمان فى رأيى شيئا واحداً غير أن علم الأسلوب يبدو فى ظاهره معتمداً على التحليل، أما علم لغة النص فيعتمد على إعادة التركيب والعمليتان فى رأيى ضروريتان عند التعرض لدراسة لغة النص.

لقد ازدادت العلاقة بين علم اللغة والدراسة الأدبية توطداً فى ضوء علم اللغة النصى الذى قامت فكرته على أن النص هو الوحدة الأساسية والموضوع الرئيسى فى التحليل والوصف اللغويين، على الرغم من أن الجملة تعد تقليديا – ومازالت – أكبر وحدة للتحليل، على نحو مانجد فى النحو التحويلى، فهو نحو الجملة، والجملة هى المقصد فى القضية التحويلية.

وتعرف اللغة فى النظرية التحويلية على أنها مجموعة من الجمل التى ينتجها النحو[٢].

---

(1) Guiraud, P., Rhetoric and Stylistics, in: Current. Trends in Linguistics, Vol. 12. ed Thomas, The Hague. Mouton {1924} PP. 943 - 944.

(٢) علم اللغة والدراسات الأدبية «لبرند شبلنر»، ترجمة د. محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع القاهرة، ط١، ١٩٨٧م ص ١٨٤.

لقد رأى المتخصصون فى علم اللغة النصى من أمثال بيتوفى وهاريس وغيرهما أن الجملة ليست كافية لكل مسائل الوصف اللغوى، إذ لابد من أن يتجه الوصف فى الحكم على وحدة الجملة من وضعها فى إطار وحدة كبرى هى النص. وقد عدّ علم لغة النص فى رأيهم تطويراً وتوسيعاً لعمل لغة الجملة الذى شُغل به البنائيون الأمريكيون منذ بلومفيلد، كما شغلت به مدرسة تشومسكى فى الكفاءة اللغوية التى توصف توليديا فى إطار القدرة على توليد الجمل.

لقد عنى علم اللغة النصى فى دراسته لنحو النص بظواهر تركيبية نصية مختلفة منها: علاقات التماسك النحوى النصى وأبنية التطابق والتقابل، والتراكيب المحورية، والتراكيب التابعة، والتراكيب المجتزأة، وحالات الحذف، والجمل المفسرة، والتحويل إلي الضمير، والتنويعات التركيبية وتوزيعاتها فى نصوص فردية، وغيرها من الظواهر التركيبية التى تخرج إطار الجملة المفردة والتى لايمكن تفسيرها تفسيراً كاملاً دقيقاً إلا من خلال وحدة النص الكلية[١].

ومبحث التقديم والتأخير يعد من صميم البحث الأسلوبى على مستوى التركيب، فهناك ترتيب معتاد مبتذل يطرق الذهن كثيرا، وهذا الترتيب يمكن مخالفته ولكن مجرد المخالفة كما يقول فندريس ينبئ عن غرض ما، ذلك الغرض هو إبراز كلمة من الكلمات لتوجيه التفات السامع إليها. وتلك مسألة أسلوبية يمكن تتبعها إلى أقصى وقائعها[٢].

وإسهام مبحث الالتفات لايتوقف عند حد كشف مدى التطابق فى إسناد الأفعال إلى ضمائر بعينها، أو إضافة الأسماء إلى الضمائر نفسها فى التركيب الواحد للإشارة إلى شئ بعينه وحسب، بل يسهم مبحث الالتفات عند استخدام وسائل تحليل حديثة تختلف عن وسائل أسلافنا القدماء فى التحليل، ولو كان

---

(١) نقلا عن د. محمد العبد «اللغة والإبداع الأدبى» ص ٣٣.

(٢) «اللغة» – فندريس – تعريب عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص، مكتبه الأنجلو المصرية. د.ت. ص ١٨٨.

ذلك على النصوص نفسها التى عالجها القدماء فى كشف ظواهر تركيبية وأدبية.

فعند التعرض بالتحليل لرسالة سهل بن هارون فى الجزء التطبيقى من هذا البحث استطعنا بالالتفات أن نكشف لوناً من القص القرآنى فى قصة الخضر مع سيدنا موسى حين ركبا السفينة وماستتبع ذلك من إقامة الجدار وقتل الغلام. وذلك عند مقارنة القص فى هذه الرسالة باللون القصصى المتبع حديثاً فى القصة القصيرة. ولذا فإننا نؤيد الإفادة من وسائل التحليل الحديثة المستفادة من أبحاث الأوربيين والأمريكيين. ولاحرج من استخدامها فى تحليل النصوص العربية مادامت ستؤدى إلى كشف ظواهر جديدة فى التراث العربى القديم أو تمكننا من الوصول إلى تفسير ملائم لبعض الظواهر التى فسرها القدماء بإمكاناتهم ووسائلهم وطرق تفكيرهم[1].

إن معنى الألفاظ المفردة غالباً مايكون عاماً وغامضاً، ويتلاشى هذا الغموض فى معانى الألفاظ المفردة إذا دخل اللفظ فى ضمائر تركيبية Syntak-tische Verbin Dungen تحدد معناه وتخصصه. ومن هنا يتولد من المعنى المعجمى للفظ معنى آخر يسميه «سوفنسكى» بالمعنى الراهن أو الحالى، وهناك معايير مختلفة لتحديد معانى الألفاظ تحديداً تركيبياً، منها:

١- تحديدها من خلال وضع اللفظ فى جملة.

٢- من خلال وضع الكلمة فى تركيب وصفى.

٣- من خلال وضع الكلمة فى تركيب إضافى أو مزجى.

٤- استخدام الكلمة فى سياق مع كلمات أخرى ذات دلالات حسية.

٥- التحديد من خلال تابع، كالبدل.

٦- التحديد من خلال وضع الكلمة فى استخدامات مجازية.

(١) مجاز القرآن - أبى عبيده معمر بن المثنى، عارضه بأصوله وعلق عليه د. محمد فؤاد سزكين - مكتبه الخانجى - مصر - د. ت - ج١، ص١٨.

وجدير بالذكر أن تحديد دلالة اللفظ لايرتبط بالسياقات التركيبية وحدها، فكثيرا مايكون التحديد تابعاً لمستوى امتداد الجملة فى النص، وتلك هى الحال عندما تتخصص دلالة لفظه معقدة ﴿مركبة﴾ فى الجملة التالية أو بعد التالية. والنوع الثانى هو تأخير المعلومات التى حقها التقديم، وقد عددنا هذه الظواهر من الوسائل الفاعلة فى تنمية اللغة العربية عند تحليلنا النصى لسورة الشورى وأضفنا إليه تعدد الوظائف النحوية للمكونات وتعدد الوظيفة للمكون الواحد، وذلك لإمكانية وفاء المفردات العربية للمتطلبات الفكرية والمعانى الكثيرة التى تفوق هذه المفردات عدداً. فالرحمة شئ معنوى والدخول عملية حسية تحتاج إلى حيز مقاس لكن الدخول فى الرحمة ورد تركيبا ضمن آيات سورة الشورى **﴿يدخل من يشاء فى رحمته﴾**[1]. ولفظه (يوم) لها دلالة على حيز زمنى، لكنها تدخل فى تراكيب خاصة لتشغل وظيفة نحوية هى المفعول به وأصل استعمالها تركيباب أن تكون مفعولا فيه، أيضا وردت فى التركيب **﴿وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾**[2]. ولايقف الاستعمال الخاص أو الاتساع عند هذا الحد بل قد يرد الاتساع فى تقابل الدلالة الكلية، فلفظة **﴿حفيظ﴾** صفة مشبهة تدل على الصون والعناية الألهية بالبشر، والأصل أن ترد فى حدث هى جزاء له لكنها لاترد هكذا فى التعبير القرآنى بل ترد فى ظاهرها جزاءً على الشرك بالله خصوصاً أن الشرك بالله من جانب المعاندين والحفظ من الله ذاته وليس من أنصارهم أو أوليائهم. **﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء، الله حفيظ عليهم﴾**[3]. وقد قدمنا تحليل ذلك وأبرزنا دلالة الاستعمال الخاص عند عرض ذلك عرضاً مفصلاً فى تحليل السورة. هكذا نفهم النص فالجملة فى النص لاتفهم فى ذاتها فحسب، وإنما تسهم الجمل الأخرى فى فهمها. وهذا يبين أن الجملة ليست وحدها التركيب الذى نحدد به المعنى وإنما نحدد المعنى أيضا من خلال النص الكلى الذى تتضامن أجزاؤه وتتآزر.

---

(١) سورة الشورى الآية (٨).

(٢) سورة الشورى الآية (٧).

(٣) سورة الشورى الآية (٦).

لقد اعتمد تحليل النص فى الدراسات الأدبية على منظور الجملة الوظيفية الواردة فى مدرسة براغ. وتقوم فكرة الجملة الوظيفية على وجوب التمييز فى كثير من التعبيرات اللغوية بين وظيفتين إخباريتين لهما أهمية دلالية، وهاتان الوظيفتان تتمثلان فى تلك التى يخبر عنها وهى الموضوع (المسند إليه) والتى تخبر عن الموضوع، وهى المحمول «المسند أو الخبر»[1].

ويقابل الموضوع فى النحو التحويلى التوليدى بالمصطلح Topic ويعنى المحور أو المعلومة المعروفة سلفاً فى النص، بينما يقابل المحمول «أو الخبر» بمصطلح Com-ment ويعنى المعلومة الجديدة[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علم المعانى فى تراثنا العربى قد عرض لكثير من المسائل والأبواب التى تدخل الآن فى صميم «نحو النص» ويمكننا من خلال استقراء مصدر مهم مثل دلائل الإعجاز للجرجانى أن نصنف هذه المسائل والأبواب على اختلافها إلى ثلاثة مستويات:

«أولهما» الأبواب التى تعالج «معانى الجمل» أو كما يسمونها «أساليب الجمل» كمباحث الإسناد وصوره وأنماطه التركيبية، كالإسناد الخبرى والإسناد الإنشائى.

«وثانيهما» المسائل المتعلقة بالظواهر التركيبية النصية الصغرى، كوجوه التغيير التى تعرض للإسناد من حذف أو تقديم أو فصل أو إضمار أو التفات أو خروج بأساليب الإنشاء عن أغراضها «كدلالة الاستفهام على التقرير أو الإنكار» ونحو ذلك.

«وثالثهما» المسائل المتعلقة بالظواهر التركيبية النصية الكبرى التى يدور الكلام فيها على جملة الكلام كالإيجاز «الذى ينتج عن حذف المفرد: كحذف الصفة أو الموصوف أو المضاف، أو عن حذف جزء من الجملة: كحذف جواب

---

(١) «علم اللغة والدراسات الأدبية» برند شبلنر ص ١٨٥ .

(٢) نقلا عن د. محمد العبد «اللغة والإبداع الأدبى» ص ٣٤ .

الشرط، أو عن حذف جملة أو أكثر من جهة لكفاية المذكور عن الحذف﴾.

غير أن البحث الأسلوبى غالبا مايهتم بالعناصر المذكورة وهى التى يصنع بها مثل ذلك بالرغم من أنها خصائص أسلوبية أكيدة فما يحذف عند كاتب قد يذكره كاتب آخر فى تراكيبه والكتاب الواحد لايعمد فى نصوصه المتعددة إلى اتخاذ نمط تركيبى واحد وإنما ذلك يتم وفقاً للغرض المقصود.

إن الهدف من تحليل النص هو إضاءته، وكشف بعض أسراره اللغوية، وتفسير نظام بنائه وطريقة تركيبه، وإدراك العلاقات فيه، من أجل مشاركة القارئ ووضع احتمالات النص أمامه من خلال تواشج الألفاظ والبناء النحوى الذى يعد ركيزة النص، حتى يستطيع القارئ أن يلج فى عالم النص ولن يتم ذلك إلا بتفسير بنية النص ذاته وتحليله إلى مكوناته التى انبنت منه. ولابد أن يكون ذلك بأكبر قدر من الوضوح والسلاسة وعدم التعقيد.

هل للنص بنية واحدة، هل له بنيات متعددة؟ وإن كان كذلك فما طبيعتها؟ وهل تتساوى ﴿مجموع البُنى﴾ فى الدرجة، أم أن هناك فوارق فى نسبة توزيعها على النص ونسبة تحكمها بالخطاب؟.

كل نص لابد أن يتضمن بنية شاملة. تؤطر مفاتيح النص ومغاليقه وتحدد المستوى الأول والأخير له وليس من الضرورة أن يتضمن النص عدة بنيات،فقد لايشكل سوى بنية واحدة. تمثل البنية الكلية والكبرى والوحيدة للنص، ونستطيع أن نمثل لهذه الحالة بالنص الشعرى القصير والخالى من القشور اللغوية ومن الترهل النصى. كذلك قد يتضمن النص عد.ة بنى، متداخلة التراكيب، وفى هذه الحالة نضطر إلى إجراء عملية فرز للبنى فتنكشف لنا كتلتان واحدة خارجية شاملة إطارية تمثل البنية الكبرى. وأخرى داخلية نسبية تمثل البنى الصغرى.

مفهوم البنية هوهو، سواء أكانت البنية وحيدة فى النص أم كبرى أم صغرى. ولكن الاختلاف فيما بين البنية الكبرى والبنى الصغرى يكمن فى الطبيعة وفى طريقة الوصول إليها، فى الطبيعة تمتاز البنية الكبرى بالشمول وبنسبة التحكم فى نسيج النص، أما الصغرى فتمتاز بطابعها المحدود وبنسبة تحكمها فى بعض المتتاليات النصية، وانتظام البنيات الصغرى بشكل متداخل يرتبط بالمضمون الأصلى يتضح فى قصيدة الحمّى للمتنبى فهناك بنى صغرى لاتكشف عن المضمون الكلى بشكل مباشر أو متصل من حيث الواحدات اللغوية والتراكيب كما سنعرض لذلك عرضا مفصلاً عند تحليل المقصيدة، فالبنية الكبرى تشمل ثلاث بنيات لايكاد يتكشف مضمونها الا عند اكتمال بنيات النص الصغرى جميعاً بالرغم من اتصال الوحدات اللغوية فى شكل منتظم يصل إلى حد الحركة والحرف وذلك بانتظام البنة فى قالب شعرى بينما تتضمن الرسالة المنسوبة إلى سهل بن هارون بنيات صغرى تنتظم فى شكل متسلسل تتحكم فيه مقدمة منطقية تليها بنيات صغرى فى شكل حكائى سردى تكفى الواحدة منها أو الاثنتين للوفاء بالمضمون الكلى للبنية الكبرى.

إن تحليل النصوص يتطلب مقارنة متعددة الأبعاد، فإنه ينبغى ربط مختلف المستويات فيما بينها، بينما يمكن أن نربط البنى على شتى المستويات بمختلف أنواع السياقات، وبطريقة مختلفة. لذلك ليس المقصود هو فقط فهم النص وتحليله لذاته، إنما قبل كل شئ فهم وتحليل مختلف وظائف النص «الأفعال، النتائج، الخ» فى هذه السياقات.

إذن تفسير أحد النصوص يعنى أولاً تحديد معانٍ لعناصر النص ومن ثم لجمله قبل الانتقال ثانيا إلى تعيين مختلف وظائف النص[١]. والخطاب هذا المستوى الذى يقع بين النحو والتنظيم غير اللغوى Nonlinguistic كما يقول مالكولم كولتهارد[٢]. عملية اتصال معقدة فيها مرسل ومستقبل ورسالة وسياق، وشفرة

---

(١) تون أ. فان ديك «النص بناء ووظائفه» مقدمة أولية لعلم النص ترجمة جروج أبى صالح – مجلة عالم الفكر لبنان العدد الخامس ١٩٨٩ – ص ٧٧.

(2) Coult hard, Malcolm, An introduction to Discourse, Analysis, Longman, 1983, P.7.

لقد شغل علم الدلالة البنائى بمسألة الألفاظ - الموضوعات وميز بينها وبين نوع آخر هو الألفاظ - المفاتيح فالأولى هى الألفاظ الأكثر استخداماً من غيرها عند أديب بعينه، والثانية هى الألفاظ التى يكون معدل تكرارها فى نص ما أعلى من معدله المألوف[1].

غير أننا استعملنا لفظة «عبتمونى» لفظاً مفتاحاً لالكثرة ترددها بنسبة تزيد عن غيره فى رسالة سهل بن هارون من كتاب «البخلاء» للجاحظ، ولكن هذا الاستخدام يتناسب مع النص الذى نتناوله فالكاتب يريد أن يبرئ نفسه من تهمة البخل فينشئ نصاً يتألف من مقدمة عقلية منطقية، تليها بنيات نصية كبرى تبدأ كل بنية من هذه البنيات بلفظة «عبتمونى» ثم يسرد القصة فى تراكيب موجزة بينها إقاعات وتتضمن ألوانا وحيلا فنية لدفع الاتهام بالبخل عن الكاتب ومعها حجج وبراهين عقلية ووثائق تاريخية لأشهر الحكماء والعلماء والخلفاء لتأييد مايذهب إليه. وعلى هذا فإن استعمال المصطلحات بما يتناسب مع النص المدروس أولى من استخدامها بمفهومها الغربى البحت.

وإذا كانت الألفاظ - الموضوعات يبرز فيها عنصر الإيثار، إذ يؤثر الأديب لموضوعه ألفاظاً خاصة على نظائرها، فإنها تعد - لذلك أداة هامة من أدوات تحديد الميول الأسلوبية لأديب بعينه من ناحية، كما تعد أداة هامة لمعرفة طبيعة الحصيلة اللغوية من حيث خصوبتها وتراثيتها وتطورات استخدامها وانعكاساتها على قيمة النص الأسلوبية من ناحية أخرى.

وثمة مرونة كبيرة قدمها النظام اللغوى فى العربية لكى يتمكن الشعراء من استغلالها. والجملة العربية فى الشعر مع محافظتها على مكوناتها الأساسية تستطيع أن تجرى عدداً من التبادل الموقعى بين أجزائها فيستقيم بذلك البيت شعريا من جانب وينتج عن هذا التبادل دلالة إضافية تكتسبها الدلالة الأصلية للجملة من جانب آخر فيغنى النص الشعرى بهذا غناءً دلاليا متعدد الأبعاد والإشعاع.

---

(1) Ullmann, Stephen, Meaning and Style, Oxford {1973} P. 73.

وليس هناك من فصل بين القافية والوزن إلا من أجل محاولة تبيُّن الخصائص الخاصة التى يضيفها كل منهما على بناء الجملة فى الشعر، وإلا فإن البيت بوزنه وقافيته شئ واحد، بل وبنائه اللغوى بكل مايمثله هذا البناء اللغوى من أصوات ومفردات وتراكيب شئ واحد. ومن هنا يدخل فى إنتاج الدلالة للبيت كل هذه المكونات معاً بما فيها الوزن والقافية، ومن هنا يكون البيت غالبا وحدة دلالية فى القصيدة بجانب كونه وحدة «موسيقية» أو بالأحرى، وحدة عروضية. غير أن أداء المحلل وطريقة تناوله يمكن أن تتجاوز هذه الوحدة الموسيقية لتصل إلى وحدة تركيبية أو دلالية أكبر ومن ثم يمكن تقسيم النص إلى عدد من هذه البنيات وهذا ماسنعرض له عرضا مفصلاً عند تحليل قصيدة الحمّى للمتنبى.

ويثبت التحليل الخاص بكل نص على حدة أن مجموعة القواعد التى يستخدمها النص سواء أكانت قواعد لغوية «صرفية ونحوية» أم قواعد شعرية «من حيث الوزن أو القافية» لاتنتج الدلالة نفسها التى تنتجها هذه القواعد ذاتها فى نص آخر بحيث لايقال مثلا إن قافية العين تفيد كذا وكذا أو إن بحر الطويل يفيد كذا وكذا أو أن كثرة استعمال الظرف أو الحال إلخ تفيد كذا وكذا، فان اللغة لو كانت هكذا لم كان مايفعله الشعراء إبداعاً ولأصبح كل متكلم قادراً على إبداع كهذا.

ويثبت التحليل أيضا أن هذه القواعد بنوعيها النحوى والعروضى لاتكون بمنأى عن إنتاج الدلالة الخاصة بالنص لأن كل جانب من الجوانب على مستوى الأصوات والصيغ والمفردات والتراكيب والوزن الشعرى الخاص واختيار القافية المعينة يتعاون مع الآخر، ومن هنا يكون إنتاج الدلالة حاصلاً لعدد كبير من التوافقات التى تتآزر وتصنع سياقاً معيناً يساعد بدوره على توجيه فهم الجزئيات فى إطار النص كله[١].

---

(١) د. محمد حماسة عبداللطيف «الجملة فى الشعر العربى» – ط ١ – ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م الناشر مكتبة الخانجى – القاهرة – ص ٢١٩.

عندما تعرض الأسلوبيون لوصف لغة الشعر، لم يتعرضوا لوصف نظام الجملة وخصائصها وإنما وصفوا الأجراءات التى يتيحها نظام الجملة فى العربية وركزوا اهتمامهم فى الخروج على المألوف أو العبارات المكررة، أو الحذف أو التقديم والتأخير، وغير ذلك من الإمكانات المتاحة من النظام النحوى ويمكن تحققها فى الشعر والنثر على السواء[١].

ونلاحظ فى تدريس مبحث الصرف أننا نركز على البناء الصرفى فحسب، ومايطرأ على هذا البناء من تغير بإلحاق بعض اللواحق واللواصق أو حذفها وغير ذلك من إعلال وإبدال أو قلب مكانى.

ولكن الواقع أن هذه البنى الصرفية تستخدم منعزلة أو مجردة أو فى صورة أوزان مفترضة، لكن هذه الصيغ الصرفية تؤدى وظائف دلالية سميت بها تشبه إلى حد كبير الوظائف النحوية التى تؤديها المكونات، وقد تكتسب الصيغة وظيفتها الدلالية من مبناها كصيغة المبالغة، وبعضها يكتسب هذه الدلالة أو تتحول هذه الدلالة بفعل التركيب والسياق وهو مايعرف بالتحول فى الصيغ الصرفية. لذا اتجه البحث الحديث إلى دراسة الصرف من واقع النصوص والسياقات، كما عنيت الدراسات الأسلوبية بتحليل المبانى والصيغ وبيان وظيفتها التى عادة مالاتكون ثابتة الدلالة.

(١) انظر - خصائص الأسلوب فى الشوقيات - محمد الهادى الطرابلسى. دار المطبوعات التونسية - تونس.

الفصـــل الثانـــى

إبداع فوق القيود

من المعروف فى علم اللغة الحديث أن الاستخدام اللغوى ينقسم إلى مستويين كبيرين: المستوى العادى Normal Usage أو اللغة المعيارية Standard Language والمستوى الفنى artistic usage أو اللغة الأدبية «literary Lang uage» وقد أدرك القدماء هذه الحقيقة يستنتج ذلك من اختصاصاتهم البحثية، كما يستنتج من «تراثية» العلوم عندهم، إذ يضع يحى بن حمزة العلوى علوم العربية فى مراتب يفهم منها تقديم المستوى العادى من اللغة على المستوى الفنى، فالمرتبة الأولى لعلم اللغة والثانية لعلم التصريف، والثالثة لعلم العربية أى النحو، والرابعة- كما يقول: «تحقيق علم الفصاحة والبلاغة وهو نظر خاص يأمن به الأديب الخطأ فى نظم الكلام وجزالة لفظه وحسن بلاغته».[١]

وتعابير النص القرآنى لاتنتمى إلى مستوى الكلام العادى، كما أنها لاتنتمى إلى مستوى اللغة الفنية، لكنها مع ذلك تحظى بخصائص بحيث يمكن أن توافق بعض تراكيبها تراكيب مستوى اللغة العادية، وقد تكسر بعض التراكيب العلاقات المألوفة سواء بين مفردات اللغة العادية أو اللغة الفنية كما أقرها النحاة واللغويون العرب، هذا بالرغم من أن النحاة واللغويين حين وضعوا قواعدهم إنما كان ذلك مبنياً على شواهد من اللغتين، لغة القرآن واللغة الفنية فى الشعر وبعضها من لغة الأمثال الموروثة التى كثيرا مالاتوافق هى الأخرى من حيث علاقة المفردات بعضها مع بعضها الآخر لغة الكلام العادى أو لغة القرآن أو لغة الشعر، وحينئذ يعللون ذلك بان الأمثال لا تغير، والتقعيد بهذه الصورة من حيث إختلاف لغة المستويات السابقة ليس هو العلة الوحيدة فى تصادم القواعد مع الاستعمال، بل إيراد الشواهد من هذه المستويات مجتمعة غالبا مالايكون مطابقاً للقاعدة النحوية أو القانون اللغوى الذى وردت على بابه بل غالباً مايرد الشاهد على إنه خارج عن

---

(١) «الطراز» يحى بن حمزة العلوى – مكتبة المعارف، الرياض . د.ت. جـ١ /ص ١٨٠ وماهبعدها.

هذه القاعدة وهنا تُستثمر إمكانات التفسير والدلالات الخاصة وأحيانا الاستعمالات الخاصة لإيضاح الشاهد وهذا ما نصنعه مع طلابنا فى الجامعة.

فتقديم علوم اللغة والنحو والتصريف، إنما هو تقديم اللغة المعيارية التى تقعّد لها هذه العلوم، ويعد الخروج عليها شذوذاً. ولذلك كان علم النحو عندهم هو علم العربية وسنورد فى الجزء التطبيقى من هذا البحث خصوصاً فى القسم الخاص بتحليل قصة يوسف عليه السلام تآلف عناصر اللغة لتؤدى مضمون القصة كما سنعرض بعده تحليلاً لسورة الشورى وسنورد نماذج لتراكيب ومفردات تسلك سلوكاً خاصاً لايخضع لما تخضع له اللغة العادية أو اللغة الفنية مما يحدث تصادماً بين القواعد وبين استعمال هذه التراكيب والمفردات فى علاقات خاصة داخل النص ممايمكن أن يحدث ارتباكاً لدى القارئ أو المستمع أو يحدث شكاً عندهم إما فى القاعدة أو فى الاستعمال لمخالفته العرف المألوف؛ لكن الدلالة الكلية للنص هى التى توجه هذا الاستعمال بحيث يحدث نوع من التوافق وهذا التصادم بين القواعد اولاستعمال أطلقت عليه الدراسات الأوروبية مصطلح «الانحراف» لكننا لانستطيع أن نستخدم هذا المصطلح خصوصاً عند التعامل مع كلام الله عز وجل ولذا أسميته تصادماً.

يتسم القرآن بأن فيه لوناً قصصياً وهذا القصص القرآنى المراد منه هو أخذ العظة والعبرة من السير التاريخية سواء أتعلقت بالأمم أم تعلقت ببعض شخصيات الأنبياء. والحقيقة أن القصة الواحدة عن شخصية نبى واحد قد ترد فى أكثر من موضع من القرآن وذلك وفقاً للدرس المستفاد فى هذا الموضع أو ذاك. فقصة موسى عليه السلام تتوزع لقطات منها فى أكثر من موضع فى سور القرآن الكريم أما قصة يوسف النبى ﴿ﷺ﴾ فترد متكاملة فى سورة واحدة تسمى سورة يوسف.

والحقيقة أن القرآن يعرض لهذه القضايا فى أسلوب راقٍ لاتكاد تطاوله فى هذا الكتب السماوية الأخرى. فقصة يوسف مع إخوته عرضت لها التوراة من قبل، ولقد عرضت التوراة ظلم يوسف وحكمته ولكنها صوّرته فى مصر فى صورة إنسان جشع؛ فلقد استطاع يوسف أن يخدم عزيز مصر وملكها فى جمع أموال

المصريين ثم الاستيلاء على أرضهم ثم الاستحواذ على حيوانهم كل ذلك فى مقابل أن يعطيهم القمح الذى يكفى لصنع خبزهم وبهذا يكون يوسف قد استغل حاجة المصريين للخبز وملّك عزيز مصر أرضهم وحيوانهم وكل مايملكون.

أما القرآن فيعرض لحكمة يوسف عرضاً طيباً يبرز شخصية يوسف شخصية نبوية حقيقية اتسم بالتسامح والإنسانية وذلك حين جهز العبرانيين من إخوته بالقمح الذى يكفيهم دون أخذ مقابل ثم عفوه عن إخوته الذين ظلموه من قبل وكذا أمانته مع عزيز مصر وملكها الذى أدخله السجن من قبل فلقد عفا يوسف وصفح عن من ظلمه وأعطى من حرمه وكان فى ذلك حكيماً بالغة حكمته؛ فحين دخل يوسف السجن وجد رفيقين فى سجنه وقد حلم كل منهما حلماً وكان الأول قد حلم بأنه يعصر عنباً ولايعرف لذلك تفسيرا وحلم الآخر بأنه يحمل شيئاً تتخطفه الطير وكان يوسف بطبعه خيِّراً فعرض عليهما معونته وعبَّر لكل منهما عن رؤياه.

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾[1]. ﴿معه﴾: فى هذه الكلمة ضمير [ـــهُ] وهو حرف أبجدى واحد يعبر عن مسمى واحد هذا المسمى هو يوسف عليه السلام. ولكن لماذا لجأت اللغة إلى هذا النوع من الضمائر؟ خصوصا أن اللغة تستعمل مسميات لكل نوع. فالمذكر له مسمى والمؤنث له علامة تُستخدم للدلالة عليه مثل التاء المربوطة أو تاء التأنيث والألف المقصورة والألف الممدودة مثل هدى وصحراء وصفراء وعفراء وبطة وقطة والجمع أيضا له علامة تُستخدم للدلالة على الأفراد مثل الواو والنون أو الياء والنون، فالشخص الذى إسمه محمد جمعه محمدون والشخص الذى يسمى زيد جمعه زيدون وحمد حمدون وهكذا... فلماذا إذن تستخدم الضمائر للرمز إلى هذه المسميات طالما أن هذه المسميات موجودة؟.

إن اللغة العربية لغة تتسم بالإيجاز والإيجاز أى اختصار عدد الوحدات

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٥).

المستخدمة وذلك للاقتصاد في الجهد فتعبر اللغة بالضمير عن المسمى حتى لايحدث هناك تكرار. ولكن ما علاقة هذا الإيجاز بنوع القص القرآنى فى هذه السورة؟ هذه السورة تمثل قصة متكاملة العناصر، والقصة لابد لها من أشخاص أساسية تسمى بالشخصيات المحورية، وهذه الشخصيات هى التى تدير الأحداث والتى تدور حولها الأحداث، فمن هذه الشخصيات يوسف الذى سميت السورة باسمه وأبوه يعقوب أو إسرائيل وأخوه شقيقه بنيامين وأمه وإن لم يكن لها دور فى سياق الأحداث وإخوته وعزيز مصر أى حاكمها وملكها وصاحباه فى السجن، ولما كانت هذه الشخصيات ستتكرر أسماؤهم كثيراً فى السورة حدث هناك رمز لهذه المسميات وذلك باستعمال الضمائر، واللغة العربية تستعمل هذه الضمائر منذ زمن بعيد أى قبل نزول القرآن، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب ولذلك وجب أن ينزل موافقاً لخصائصها ومن هذه الخصائص الرمز بالضمير للمسمى وفقاً لإمداده أو تثنيته أو جمعه أو تذكيره أو تأنيثه وهكذا. والجمل فى اللغة العربية نوعان: اسمية وفعلية والاسمية ماتكونت من مبتدأ وخبر أو حين يدخل عليهما الحروف والأفعال الناسخة، أما النوع الثانى من الجمل فهو الفعلية وهى تلك التى تبدأ بفعل أو التى يكون الحدث فيها عنصراً أساسياً مثل الدخول فى قوله «ودخل السجن معه فتيان» فالفعل (دخل) فيه عنصران هم الحدث والزمن، أما الحدث فهو الدخول وأما الزمن فهو المضى أى أن دخول يوسف مع صاحبيه كان فى الزمن الماضى وهنا يطرأ سؤال وهو ماعلاقة الزمن بالقص؟.

هذه القصة حدثت فى الزمن الماضى أى قبل بعث موسى بمائتى عام، ويوسف وإخوته كانوا هم الجالية المؤسسة لبنى إسرائيل فى مصر لأن يعقوب وهو عبد الله وكذا يوسف وإخوته كانوا يؤمنون بالله ولم يكن أهل تلك المناطق يؤمنون به بل كان يعبد كل منهم ماشاء؛ فالمصريون كان يعبدون فرعون وكان هو – أى فرعون – يؤكد لهم ذلك فلربما كان مجيء يوسف إلى مصر بل هو حكمة إلهية اقتضت أن يعرف أهل هذه البلاد أن هناك إلهاً واحداً قادراً يرزق العباد متى شاء وأنى شاء، فوفود يوسف إلى مصر كان بسبب جريمة ارتكبها إخوته بأن ألقوه فى غيابة الجبّ لكنّ يوسف وإخوته ووالديه إنتفعوا بهذا القدوم بأن تبوأ يوسف مكانة عظيمة فى مصر وأجلس أباه وأمه على عرش مصر وانتفع إخوته بأن استفادوا من مكانة أخيهم بين المصريين فأتيح لهم التكاثر وتكون جالية يهودية كان أن خرج

منها موسى عليه السلام، أما المصريون فقد عرفوا كيف يتخلصون من مجاعتهم ويحتفظون بالقمح الذى يطعمهم طوال سنى المجاعة واستفادوا من حكمة يوسف وكان هناك نذير لهم بأن هناك إلهاً يمنع المطر وينزله وبنيت الأرض وقد يجعلها جرداء ذلك هو الله.

ولمّا كانت هذه الأحداث السابقة قد حدثت فى الزمَن الماضى فكان أن عبَّر القرآن بالفعل الذى يدل على هذا الزمن، فإمكانات اللغة العربية تتيح التعبير عن الزمن الماضى والحاضر والمستقبل وسنجد فى بعض مشاهد السورة التعبير عن المشهد بالزمن الحاضر والمستقبل ولكن ذلك لتجسيد المشهد نفسه فيقرأ المسلم السورة وكأن المشهد حاضر وكأن الحكمة باقية. فقصص المعاندين والكافرين لاتنتهى والفئة المؤمنة باقية أبداً فمنذ عهد يعقوب والفئتان موجودتان فيعقوب وأبناؤه كانوا من المؤمنين وكانت هناك أقوام أُخر لاتؤمن بالله ويوسف كان مؤمناً لكنّ أهل مصر كانوا يكفرون بالله ويؤمنون بفرعون وقدرته بل إن إخوة يوسف أنفسهم لم يكونوا على صراط مستقيم، وحين بعث موسى إلى هذه الفئة ليخرجهم من العبودية البشرية لكى يكونوا عباداً خالصين لله لم يقدّر هؤلاء اليهود نبيهم موسى ولم يخلصوا العبادة لله وحنّوا إلى عبادة العجل وفى نهاية الأمر لم يطيعوا موسى. وحين بعث بينهم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام لكى يصحح عقائدهم لم يطيعوه وحاولوا التخلص منه منذ مولده ولولا هذه العقائد مابعث محمد ﴿ﷺ﴾، فقد بعث ليصحح عقائد هؤلاء وبالرغم من ذلك فقد ناصبه اليهود العداء. ﴿فتيان﴾ مثنى والمفرد فتى ويسمى فى العربية إسماً مقصوراً وعند تثنيته تتحول الألف المقصورة إلى ياء ثم تلحق بها علامة التثنية فى حالة الرفع وهى الألف والنون؛ والتثنية ظاهرة تتسم بها اللغة العربية وحدها دون سائر اللغات؛ فاللغات الأخرى تنقسم إلى مفرد وجمع والعائلة السامية للغات كان فى أصلها القديم أُثر للتثنية لكنه غير موجود الان فى العبرية أو السريانية ولذا يقول العلماء أن العربية هى التى ورثت ظاهرة التثنية واحتفظت بها دون سائر اللغات السامية الأخرى. وهناك خصيصة أخرى اختصت بها العربية دون اللغات السامية الأخرى

أأخرى تلك الظاهرة هى ظاهرة التقديم والتأخير فالفتحة فى آخر كلمة ﴿السجن﴾ وهى التى كشفت لنا عن ظاهرة التقديم والتأخير فالفتحة على آخر كلمة السجن تبيِّن أن هذه الكلمة مفعول به ومعناها أنه مقدم على الفاعل خصوصاً أن الفاعل ورد بغير علامة لأنه ورد على صيغة المثنى التى سبق أن حللناها. فكلمة ﴿فتيان﴾ يلحق بآخرها علامة التثنية وهى الألف والنون وهذا يحول دون وجود علامة خصوصاً علامةالضمة التى تبين أن الفتيان فاعل ولذا فالإعراب سمة من سمات العربية احتفظت بها على مر العصور.

﴿قال أحدهماإن أرانى أعصر خمراً﴾[1]. الجملة التى تقع بعد الفعل «قال» تسمي جملة محكية بالقول وهذا عنصر هام من عناصر القص ولذا فقد اجتمعت عناصر من اللغة تعين على هذا القص منها أزمنة الأفعال سواء أكانت ماضية أم حاضرة ومنها التعبير بالضمائر عن الأسماء ومنها ورود مادة «قول» التى منها المشتقات «قال ويقول وقائل ومقول... وهكذا» إذ إنها تنسج الحكى أو القص والقصة قديمة ولابد للتعبير عن أحداثها بفعل كهذا وتتسم الجملة المحكية بالقول بأنه إذا تصدرتها (إنّ) فلابد أن تكون مكسورة الهمزة؛ فلدينا فى اللغة العربية نوعان منها: إحداهما مفتوحة والأخرى مكسورة والفارق بينهما أن «إنّ» ترد مكسورة عندما تتصدر جملة، أما «أنّ» المفتوحة فترد بداية مصدر مؤول أى أن «أنّ» اسمها وخبرها يمكن أن تصبح كلمة واحدة هى المصدر مثل «سرنى أنك ناجح» تأويلها «سرّنى نجاحك». أما أن المكسورة فلايمكن أن تحول جملتها إلى كلمة واحدة.

﴿إنى أرانى أعصر خمراً﴾ إن المكسور الهمزة لابد لها من معمولين الأول: إسمها ويكون منصوباً والثانى خبرها ويكون مرفوعاً ولكننا أمام قصة وأحداث ولابد للغة ومفرداتها من أن تعين على صياغة أحداث هذه القصة؛ فاسم هذا الشخص السجين لايهم كثيراً فى أحداث القصة لذا فقد رمز إليه بضمير وهو ضمير ياء المتكلم المتصل بإن وقد أغنى هذا الضمير عن ذكر إسم الشخص، أما خبر إنّ فلم

(١) سورة يوسف الآية (٣٦).

يرد مفرداً كما هو متبع فى القواعد وذلك أيضا يرجع إلى أحداث القصة. واللغة ليست مقصورة على الخبر المفرد فهناك أنواع من الخبر أتاحها نظام اللغة وهى الخبر المفرد مثل «زيد قائم» وشبه الجملة مثل «زيد فى الدار» والنوع الثالث من الخبر هو الخبر الجملة، وقد ورد فى الآية التى نحللها ﴿آرانى أعصر خمراً﴾ فهى جملة فعلية فى محل رفع خبر إن. ﴿إنى أرانى أعصر خمراً﴾ هذه الجملة فيها ظاهرتان لغويتان: الأولى الفعل ﴿أرى﴾ أو ﴿رأى﴾ فمنه نوعان فى اللغة: الأول يفيد المشاهدة المباشرة مثل «رأيت ولداً» أو «رأيت باباً» أو «رأيت بدراً» وهذا الفعل ينصب مفعولاً واحداً، أما النوع الثانى فهو «رأى» القلبية أو الحلمية وهى رؤيا غير مباشرة كأن تكون حلماً أو ظناً كما وردت فى بداية السورة حيث قال يوسف **﴿إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾**[1]. وتلك هى الرؤيا التى قصّها يوسف على أبيه فأخبره أبوه بأن يخفى رؤياه عن إخوته حتى لايحقدوا عليه وهذه الرؤيا أيضا هى التى فسرها له أبوه بأن الله سينعم عليه كما أنعم على جديه إبراهيم وإسحاق من قبل وأن هذه النعمة أى التعبير عن الرؤى ستجعل له شأناً عظيماً.

ومن هذا أيضا قول صاحبه له ﴿إنى أرانى أعصر خمراً﴾ فالفعل «رأى» فى هذه الحالة ينصب مفعولين الأول: هو الياء ضمير المتكلم والثانى: هو الجملة الفعلية «أعصر خمرا» فهى فى محل نصب. والظاهرة الثانية فى هذه الجملة هى التعبير غير المباشر أو العلاقة غير المباشرة بين الفعل «أعصر» وبين كلمة «خمراً» فالفعل أعصر لابد أن يقع على شئ يمكن عصره كأن يكون شيئاً صلباً أو نوعاً من أنواع الفاكهة كالبرتقال والقصب وغيره. أما كلمة «خمراً» فهى سائل وليست صلبة ولكن هناك استعمالات خاصة فى التعبير القرآنى فالمقصود بكلمة «أعصر خمراً» أى أعصر عنباً وأسقيه خمراً، والقصة تثبت ذلك فهذا الرجل كان يسقى سيده خمراً وكانت تلك وظيفته فى بيت الملك وهذا السجين هو الذى دل الملك على يوسف وقصّ عليه قصة تعبيره عن الأحلام.

والتعبير غير المباشر كسر العلاقات العرفية بين كلمات اللغة شائع فى

---

(١) سورة يوسف الآية (٤).

الأسلوب القرآني، ففي الآية الثالثة من هذه السورة **﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾** فالكواكب لاتعبر عن الكواكب الحقيقية والشمس ليست هي الشمس التي تدفئنا بنورها وليس القمر هو الجسم المضيء في ظلمة الليل – لماذا؟.

لأن الكواكب والشمس والقمر من غير الممكن أن تقوم بعملية السجود التي يقوم بها الإنسان ولكن كما قلت إن للتعبير القرآني خصوصية،فالكواكب هي إخوة يوسف ويتضح ذلك من عددها والشمس هي أمه والقمر هو أبوه، وقد فسر يعقوب – أي استطاع أن يفهم – مغزى هذا الحلم فقد تحقق بالفعل حين وفد إخوة يوسف وأبوه وأمه على مصر حيث جلس يوسف على العرش وخرّوا له جميعاً ساجدين.

﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا﴾[1]. في كلمة «الآخر» حذف القصد منه الإيجاز، وللغة وسائل عدة للإيجاز فلم يرد في هذه القصة مسمى للسجينين، وقد اختصر التعبير القرآني في الجملة الأولى اسم السجين مورداً «قال أحدهما» فعبر عن مسماه بالضمير،وورد في الجملة الثانية «وقال الآخر».وفي بداية الآية عبّر عن السجينين بقوله «فتيان» فاختصر القول في «قال الفتى الأول وقال الفتى الآخر» وهذا النوع الآخر من الحذف نسميه حذف الموصوف وإقامةالصفة مقامه وهو شائع في العربية خصوصاً في لغة الشعر، فإذا قلنا «وأبيض» نقصد وسيف صفته البياض وإذا قلنا «وأدهم» نقصد فرساً أدهم وإذا قلنا «رديّني» نقصد رمحاً ردينياً وهكذا...

﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا﴾ إنّ هنا كالسابقة أي مكسورة الهمزة لأنها وردت متصدرة جملة محكية بالقول. وإنّ في العربية لابد لها من اسم وخبر ولما كان المتكلم هو المعني في الجملة لذا ورد اسم إن ضميراً للمتكلم أما الخبر فقد ورد جملة فعلية هي **﴿أراني أحمل فوق رأسي خبزا﴾** والفعل «أرى» هنا

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٦).

استكمال للرؤيا الحلمية لذا فإن لها مفعولين الأول منهما: هو ضمير المتكلم أما الثاني: فهو الجملة الفعلية ﴿أحمل فوق رأسي خبزا﴾ وهي بدورها جملة فعلية. ﴿تأكل الطير منه﴾[1] هي جملة فعلية ولكن ماوظيفتها؟ الحقيقة أنها تؤدي وظيفة الصفة للكلمة «خبزا»، والحقيقة أن الصفة كالخبر يمكن أن تكون مفرداً - أي كلمة واحدة - أو شبه جملة، ظرف أو جار ومجرور، كما يمكن أن تكون جملة كما هو الحال في هذه الجملة؛ والمميز لهذه الجملة حدده النحاة حيث قالوا إن الجُمل وأشباه الجمل إذا وردت بعد النكرات فإنها تُعد صفة أما إذا وردت بعد معرفة فإنها تُعدُّ حالاً. فلما كانت «خبزا» غير محددة أي غير معرَّفة ولامضافة لذا فإن جملة ﴿تأكل الطير منه﴾ عُدّت صفة.

﴿نبئنا بتاويله إنا نراك من المحسنين﴾[2] الفعل «نبئ» فعل جاء على صيغة الأمر لكنه في الحقيقة ليس المقصود منه الأمر الذي يصدر من السيد إلى عامله لكن فيه قدراً من التوسل والإعانة، فهذان شخصان سجينان قلقان على مستقبلهما ويخشى كل منهما القتل في كل لحظة ونفهم هذا التوسل من قولهم ﴿إنا نراك من المحسنين﴾، ويمكن أن يكون هناك حذف للاختصار بمعنى أحسن إلينا فإنا نراك من المحسنين بتفسيرك لهاتين الرؤيين خصوصاً أن يوسف لم يكن يتقاضى على ذلك أجراً.

وهذا الأسلوب من التعابير القرآنية الخاصة فهو - أي القرآن - يذكر المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة وذلك تصديقاً لقوله ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾[3].

أما الهاءفي قوله ﴿بتأويله﴾ فهي ضمير للمذكر والمقصود بها في المعنى كلمة مؤنثة هي الرؤيا والمعنى أن كلاً منهما قال ليوسف نبئني بتأويل حلمي الذي هو مفرد مذكر أو فسر لنا هذا الأمر وكلمة الأمر مفرد مذكر.

(١) سورة يوسف الآية (٣٦).
(٢) سورة يوسف الآية (٣٦).
(٣) سورة الكهف الآية (١٠٩).

لماذا كسرت الهمزة فى قوله ﴿إنا نراك من المحسنين﴾؟ كسرت همزة «إن» في هذا الموضع لأنها وردت فى أول الجملة، كما أن الفعل «نبأ» بمعنى أخبر أو قال ولهذا كسرت همزة إن. أما عن الطلب فى اللغة العربية فإن له أساليب عدة تختلف وفقاً للمقام الاجتماعى أى الموقف الذى ذُكر فيه الطلب فهناك موقف يتم بين العبد وسيده ومقام يتم بين العامل ومديره وموقف بين طالبة وزميلتها أو مدرستها.. وهناك طلب فيه تودد وتلطف بين صديقين؛ وهناك طلب من الأدنى للأعلى، أما الطلب من الأدنى للأعلى فهو شائع فى لغة القرآن حين سأل العبد ربه المغفرة والعفو والرزق والستر...الخ.

أما الأمر بالصيغة فيقصد به صيغة الفعل الأمر ويتم بين العبد وسيده أو المدير وعامله مثل: اصنع كذا - اذهب إلى كذا قم بعمل كذا - اسكت عن كذا...الخ.

أما الطلب الأخف فيتم باللام أى لتذهب إلى كذا - لتقم إلى عملك.. وهكذا. أما الطلب الذى فيه تودد وتلطف مثل ألا تدنو وتصنع كذا وهكذا .. هذه هى صيغ الطلب فى العربية، وسؤال صديقى يوسف هو طلب وليس أمر وإن ورد بصيغة الأمر فهذا مانسميه بالاتساع فى اللغة أى اتساع ألفاظ اللغة المحدودة لتشمل معانى متعددة فالمفردات في اللغة ليست ثابتة الاستعمال؛ فالمعنى الذى تؤديه الكلمة في استعمال ماليس ضرورياً أن يقترن بالكلمة هذا المعنى دائماً بل يتحدد هنا المعنى وفقا للمقام أو الموقف، ولذلك قال العرب «لكل مقام مقال». ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ فيها خصائص أسلوبية فكان يمكن أن يقول له السجينان إنا نراك محسناً لكنهما عرّفا المحسنين بالألف واللام أى إطلاق الإحسان ثم ذكر «منْ» التبعيضية لتدل على أن يوسف من المعدودين فى الإحسان أى ليوسف مواقف فى مصر كثيرة تدل على إحسانه وفضيلته و «من» هذه من حيث النحو هى حرف جر، أما من ناحية المعنى فهى تفيد التبعيض أو التقليل فإذا قلنا «أكلت اللحمَ» أى أكلت جميعه، وإذا قلنا «أكلت من اللحم» أى أخذت منه جزءاً يكفينى من هذا اللحم.

أما كلمة ﴿المحسنين﴾ فهي اسم فاعل ورد بصيغة الجمع وفعله «أحسن» والفعل مزيد بالهمزة ووزنه «مُفعِل» وذلك لأن الفعل الثلاثى تأتى منه صيغة اسم الفاعل على وزن «فاعل» مثل «ضرب – ضارب» «قتل – قاتل» « ذهب – ذاهب».

﴿قال لايأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله﴾[1] «قال» تفيد أن الجملة التالية لها هى جملة مقول القول والقائل هو يوسف عليه السلام والمخَاطَبان فى هذه الآية هما رفيقاه فى السجن؛ وفى جملة «يأتيكما طعام» تقديم وتأخير كما ورد فى الآية الأولى فـ«طعام» هو الفاعل والضمير «كما» مفعول به مقدم واللغة تتيح ذلك أى يتأخر الفاعل ويتقدم المفعول؛ أما جملة «ترزقانه» فهى جملة فعلية ووظيفتها صفة للطعام، والفعل «ترزقانه» هو فعل مبنى للمجهول، أما الضمير فى قوله «تأويله» فالمقصود به تفسيره وذكر مايرمز إليه.

﴿لايأتيكما طعام﴾ فى هذه الجملة ظاهرة ترددت فى بداية الجزء المعروض وهذه الظاهرة هى تقدم المفعول به على الفاعل فى الجملة الفعلية وقد وردت فى قوله ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ ممايدل على أن التقديم والتأخير ظاهرة شائعة فى اللغة العربية من ناحية وفى أسلوب القرآن الكريم من ناحية أخرى؛ وهذا التقديم ليس ملستزماً فى سائر التراكيب العربية بل يستخدم وفقاً للحاجة وذلك لبيان أهمية المتقدم بالنسبة للمتكلم.

﴿لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله﴾ المخاطبان فى هذه الآية «كُمَا» هما صاحباه فى السجن واستخدام «لا – إلا» أسلوب خاص فى العربية ويمكن التعبير عن معنى الآية فى الكلام العادى بأسلوب آخر هو «كلما أتاكم طعام أخبرتكم بتأويله وعبرت لكم عن مصدره» لكن هذا الأسلوب المتبع فى الآية سيتردد كثيراً فى هذه السورة – إذن ماهى وظيفة هذه الأدوات؟.

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٧).

هذه الأدوات تفيد تأكيد يوسف على أنه هو وحده الذى يملك المقدرة على هذا التفسير.

وفى العربية أساليب تشترك فيها جميع مستويات اللغة ولذا فهى من طبيعة اللغة واستعمالاتها. وهناك خصوصيات يختص بها كل مستوى لغوى دون الآخر، فنحن فى النثر العادى نستطيع أن نفرق بين أساليبه وبين أساليب الشعر فالفرق بينهما واضح فالنثر كلام عادى والشعر كلام موزون منغم؛ أما أسلوب القرآن ففيه لون من الانسجام أى تناسق الأساليب بعضها مع بعضها الآخر.

«قبل أن يأتيكما» : «قبل» ظرف يستخدم لتحديد الزمان وقد أراد به يوسف أنه لن يخبرهما برزقهما حين يأتيهما الرزق وإنما سيخبرهم بذلك قبل أن يروا بأعينهم هذا الرزق وذلك عن طريق الرؤيا لأن علم الغيب إنما يختص به الله وحده. أما «أنْ» فهى أن الناصبة التى تدخل على الفعل المضارع وتتحد مع الفعل لتكون مصدراً مؤولاً أى تحول الفعل إلى اسم وبذلك تكون الجملة «قبل إتيانكما».

﴿إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾[1] «إنّ» المكسورة الهمزة وقد وردت هكذا لأنها فى بداية الجملة أما كلمة ملة فهى معرّفة بالإضافة وجملة ﴿لايؤمنون بالله﴾ جملة فى محل جر نعت والمقصود بـ﴿لايؤمنون﴾ هم فرعون وقومه وأتباعه وأنصاره.

«وهم بالآخرة هم كافرون» نلاحظ هنا تكراراً أولاً من حيث المعنى فقوله ﴿لايؤمنون بالله﴾ يساوى ﴿هم بالآخرة هم كافرون﴾ أما التكرار اللفظى ففى قوله «هم» التى ترددت مرتين فى جملة واحدة وذلك يدل على أنه يعنيهم وحدهم بالصفة السابقة.

هناك لون من التقابل فى المعنى بين قوله «إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله» وبين قوله ﴿وَاتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾[1]، فالتضاد يتضح

(١) سورة يوسف الآية (٣٧).

(٢) سورة يوسف الآية (٣٨).

بين الفعلين ﴿تركت – اتبعت﴾ وبين ﴿ملة قوم لايؤمنون بالله﴾ ﴿وملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾، وفى قوله «آبائى» إجمال فصّله فى قوله «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» وهذه الأسماء كان من الأصل أن ترد مجرورة بالكسرة لأن كلمة «أبائى» مجرورة بالإضافة لكن هذه الأسماء وردت مجرورة بالفتحة لأنها ممنوعة من الصرف والسبب هو كونها أعلاماً أعجمية أما لماذا تم تحديد نوع هذا الاسم بعلامة الجر؟ فذلك لأن الجر مختص بالأسماء وحسب فلايدخل على الأفعال والا الحروف ولذلك ميِّزت اللغة بين الأسماء العربية وغير العربية بهذه العلامة المخالفة للعرف المألوف فى الاستعمال.

﴿ماكان لنا أن نشرك بالله من شئ﴾[1]. «لنا» الضمير يعود على يوسف وابائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما كلمة «من شئ» فقد أضافت إلى الجملة معنىً جديداً وذلك بإضافة العنصرين «من وشئ» فزيادة الحرف (من) يفيد التبعيض أى ولو بعض شئ، أما كلمة «شئ» فقد وردت منكرة أى ليس فى قلوبنا أنا وأبائى من الشرك ولو التافهة اليسيرة أى ليس فى صدرونا شئ من الشرك.

﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾[2]. «ذلك» المقصود به الإشارة إلى الإيمان والضمير فى «علينا» أى يوسف وآبائه أما الناس فهم أهل مصر وعلى هذا ففى وفود يوسف على مصر فائدتان جليلتان الأولى: على أهل مصر فقد كادت تصيبهم مجاعة فعبَّر لهم يوسف عن الرؤيا وتدبر لهم الأمر وحفظ لهم غلالهم فى سالبها وأطعم المصريين بنظام يتسع لسبع سنوات وإلى أن ينزل الغيث ولقد علّم يوسف فى سجنه الناس فى مصر آيات من الإيمان بالله وحب الخير هذا هو الفضل الأول؛ أما الفضل الثانى فقد أصاب أهل يوسف وأخوته ما أصاب المصريين من مجاعة ولقد وفد إخوته إليه وأخذوا من غلال مصر مايكفى حاجة أهلهم، ولقد لقّن إخوته درساً لا ينسونه وهو الإيمان بالله وضرورة نزع الغل من الصدور وأن الله يكافئ المحسنين فقد أنعم الله عليه وعلى أخيه فى مصر وقد هداه

(١) سورة يوسف الآية (٣٨).

(٢) سورة يوسف الآية (٣٨).

الله – أى يوسف – إلى العفو عن إخوته ﴿ولكنَّ أكثر الناس لايشكرون﴾(١).

«لكنَّ» وردت بتشديد النون حرف ناسخ من أخوات إنَّ المشددة النون وهى إنَّ وأنَّ ولكنَّ وكأنَّ، وهذا التشديد فى النون هو سبب إعمالها النحوى بمعنى أنها تدخل على الجملة الإسمية فتحوِّل المبتدأ المرفوع إلى اسمها المنصوب وهذا الحرف الناسخ يفيد معنى محدداً وهو أن الكلام السابق على «لكن» مخالف أو مناقض لما بعدها ذلك أن يوسف كان يحدِّث رفيقيه فى السجن عن موقفين متضادين لفريقين من البشر ، الفريق الأول هم أهل مصر الذين لايتبعون الملة الصحيحة ويعبدون إما فرعون ذات أو عجلاً، والفريق الثانى هم سلالة إبراهيم أبى الأنبياء ومنهم يوسف وأسرته وجده إسحاق وهؤلاء يتبعون ملة الدين الحنيف أى يؤمنون بالله الواحد وهذان الفريقان سواء المؤمن منهم أو الكافر قد تفضَّل الله عليهم بالرزق والستر والحماية والأمان فبالرغم من أن الكافر يكفر بالله وبنعمه إلا أن الله لايختص قوماً دون قوم بالفضل فهو يرسل شمسه لتضئ للفريقين وليسعى الفريقان فى مناكب الأرض فيرزقوا منها وكذا ينبت النبات فى الأرض جميعاً فلايختص بها قوماً دون قوم، وينزل المطر على مناطق كثيرة من الأرض لكنَّ كثيراً من البشر لايشكرون هذا الفضل، هذا الذى أراده يوسف وهو درس جليل وعبرة عظيمة ورسالة جليلة لم يتوان يوسف عن أدائها حتى بدخوله [illegible]جن، وهذه الرسالة لاتقتصر على صاحبيه فى السجن بل هى للبشرية جميعاً وسوف تتردد هذه الجملة من حديث يوسف فى آيات قادمة لتقرير الفائدة وتأكيدها، فالتكرار سمة موجودة فى لغة القرآن الكريم لتأكيد الفكرة والثبات عليها لأنها مبدأ هام.

أما كلمة «الناس» فقد جاءت على الإطلاق فلم يحدد بها يوسف قوماً دون قوم ولافريقاً دون فريق ذلك أن كثيراً من الناس منْ آمن منهم أو من كفر لايشكر الله على نعمائه التى أسبغها عليهم.

﴿ياصاحبى السجن أأربابٌ متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾(١).

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٩).

(٢) سورة يوسف الآية (٣٩).

«ياصاحبى السجن» تركيب يفيد النداء والنداء نوع من الطلب والطلب لابد له من جواب، وجواب الطلب فى حالتنا هذه هو أسلوب الاستفهام التالى ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾.

والنداء فى اللغة أصله أن يكون للعاقل حتى يسمع النداء فيرد على المنادى فيتم جواب الطلب، أما مايحدث فى الشعر من مخاطبة الحيوان أو نداء الأطلال أو نداء الناقة أو الديار فهذه كلها ضرورات فنية يلجأ إليها الشاعر ليبث شكواه ونجواه إلى الجماد عوضاً عن الإنسان لأنه لايجد الرفيق فى الصحراء. ولدينا أسلوب استفهام وأسلوب الاستفهام لابد أن تتصدره الأداة مثل «أأرباب» وفى حالتنا هذه تكون الهمزة هى أداة الاستفهام وليس لها تأثير إعرابى على مايليها من كلمات وهناك أداة أخرى فى هذا الأسلوب هى «أم» وتسمى «أم المعادلة» وذلك لأن يوسف لديه فكرة إيمانية لايريد أن يفرضها فرضاً على رفيقيه بالرغم من إيمانه بها بل إنها وظيفته فى هذه الحياة؛ ولكن للأسلوب الإنشائى تأثير على المستمع فى الإقناع ليس لغيره من الأساليب. فهذا الأسلوب يجذب المستمع إليك أولاً فتمتلك حواسه معك، ثم إنه يدعو إلى إعمال العقل والتفكر وذلك بعرض الفكرتين معاً ولكن بطريقة فنية بحيث يعرض أولاً فتمتلك حواسه معك، ثم إنه يدعو إلى إعمال العقل والتفكر وذلك بعرض الفكرتين معاً ولكن بطريقة فنية بحيث يعرض أولاً الفكرة المرفوضة تسبقها أداة الاستفهام التى تفيد الإنكار، أما الفكرة الصائبة فتأتى بعد «أم» لتقريرها ولتثبت فى ذهن المتلقى وهذا يتناسب مع مراد يوسف؛ فبعد أن بيّن لهم مصدر هذا الفضل فلم ينسبه إلى نفسه ولا إلى آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وقد أراد يوسف أن يتخذ من هذه القضية الإيمانية مدخلاً إلى قضية التوحيد؛ وقد استخدمت فى المقارنة خصيصة لغوية تعين على الاختيار الصائب الذى أراده يوسف فوصف الأرباب بما يناسبها وقال ﴿متفرقون﴾ واختار للفظ الجلالة كلمة لاتطلق إلا عليه لتفيد أنه واحد متفرد فى هذا الكون فالرب يمكن أن يُجمع إلى أرباب أما كلمة الله فلاتستعمل إلا كما هى ولاتطلق على بشر، وقد أكد هذا المعنى بالصفات التالية ﴿الواحد القهار﴾، وقد استخدمت

في الوصف المشتقات مثل «متفرقة» وهى اسم فاعل و «الواحد» وهو اسم فاعل و «القهار» صيغة مبالغة.

﴿إن الحكم إلا لله﴾[1] «إن» هذه أداة نفى وتكون دائما مكسورة الهمزة مسكنة النون وهى تؤدى معنى «ما» النافية ومن سماتها أنها تدخل على الجملة الاسمية وترد معها «إلا» لتنفى النفى.

وهذا التركيب ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أصله «الحكم لله» وهو جملة خبرية فدخلت عليها إن للنفى ثم دخلت «إلا» لإلغاء النفى لكن مافائدة هذه الأدوات التى يلغى بعضها بعضاً؟ لقد أفادت هذه الأدوات أن الحكم لله ولاحكم لغيره من الآلهة التى سماها البشر بأسماء لاعلاقة لله بها، وهذا الأسلوب تكرر فى الجزء الذى نعرض له أربع مرات ﴿لا - إلا - ما - إلا﴾.

﴿لكن أكثر الناس لايعلمون﴾[2] «لكنّ» المضعفة النون «أكثر» اسمها منصوب، وجملة ﴿لا يعلمون﴾ فعلية فى محل رفع خبر، «لا» هى النافية أى ليس لها تأثير على الأفعال وذلك لأن «يعلمون» فعل من الأفعال الخمسة وقد ورد مرفوعاً بثبوت النون.

وهنا نلاحظ أنه سبق ذكر جملة «لكن أكثر الناس لايشكرون» وقد جاءت بعد ذكر الفضل، فقد تفضل الله على أهل مصر كما تفضل على أهل يوسف ولذلك فإن الشكر يناسب الفضل أما قوله «لايعلمون» فهو مناسب لفكرة التوحيد التى تحتاج إلى تفكر وتأمل وتدبر فى خلق الله ومخلوقاته.

﴿ياصاحبى السجن أما أحدكما﴾[3] يكرر يوسف جملة ياصاحبى السجن فلماذا؟ وقد قام يوسف باتباع طريقة خاصة فى الإجابة على السجينين فما هى؟ إن يوسف النبى عليه السلام يعلم ديانة هؤلاء القوم الذى أصبح بينهم وهى ليست

---

(١) سورة يوسف الآية (٤٠).

(٢) سورة يوسف الآية (٤٠).

(٣) سورة يوسف الآية (٤١).

ديانة توحيد فاتبع يوسف منهجاً تربوياً فى الرد على السجينين فهو أولاً يقربهما من نفسه فيقول لهما «ياصاحبى السجن» ويكررها بالرغم من أن هناك فرقاً شاسعاً بينه وبينهما فهما مجرمان لكنه دخل السجن عنوة وظلماً وهو برئ كما أنه نبى وسليل أنبياء وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وبعد أن قرّب هذين السجينين بدأ يلقنهما دروساً هامة قبل أن يفسر لهما حلميهما فبيّن لهما أنه ترك دين أقوام لايؤمنون بالله وهم ملوك مصر وأنه يتبع ديناً حنيفاً نزل على آبائه وأنَّ هناك إلهاً واحداً يتفضل على الناس جميعاً دون تفرقة فالمؤمن كالكافر فى الرزق وفى حظه من المطر ومن الشمس ومن مساحة الأرض التى يعيش عليها بنباتها وحيوانها ومع ذلك فإنهم يكفرون به ولايشكرون، وأن الإنسان إذا أعمل عقله وتدبّر فسيصل إلى وحدانية الله ومع هذا الوضوح فإن أكثر الناس لايعقلون ولايعلمون .. إذن ما الهدف من ذكر يوسف لهذه القضايا الإيمانية؟.

إن هدف يوسف يدعو إلى الحض على هذه المعانى الإيمانية ونبذ ماعداها من صفات الكفر والجحد لأنعم الله .. إذن يوسف يدعو صاحبيه بأسلوب فيه ترغيب وليس فرضاً لما يريد وإن كان ذلك واقعاً صحيحاً ونحن نلحظ ذلك فى نوع الأساليب التى حللناها فكثير منها غير مباشر أى أساليب إنشائية، كما تستخدم أدوات خاصة لأداء هذه المعانى ومنها الأسلوب المفرغ ﴿ما - إلا﴾ و ﴿إن - إلا﴾ ومثلها زيادة حرف الجر «من» الذى يؤكد النفى كما فى قوله **﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾**[1] فالتركيب بدون حرف الجر هو «ما أنزل الله سلطاناً» وهذا التركيب لايخل بالمعنى الأصلى .. إذن فإن يوسف يتبّع منهجاً تربوياً وأسلوباً خاصاً فى تعليم رفيقيه وذلك نابع من التربية الخاصة والمؤهلات التى أوتيها الرسل؛ وبهذا يمكن للنبى أن يتعامل مع كلٍ بطريقته وأن يتخاطب مع الناس على قدر أفهامهم ولذا اختار يوسف منهجاً مناسباً للسجينين حتى يقتنعا بما سيقوله لهما. ماذا أفاد قول «إن الحكم إلا لله» ولماذا لم يقل «الحكم لله» ؟(الحكم لله)جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر وهى تفيد أن الأمر جميعه ملك لله أما

---

(١) سورة يوسف الآية (٤٠).

صياغة الأسلوب بالنفى والاستثناء «إن - إلا» فهذه الصياغة على هذا النحو تفيد فائدتين الأولى: أن الأمر لله جميعه والثانية: وهى الأهم أنه ليس هناك من سيشترك مع الله فى هذا الأمر وقد استعمل هذه الأسلوب مع هؤلاء القوم لأنهم لم يكونوا يعرفون دين التوحيد وإنما جاءهم يوسف ليعلمهم بهذا الأمر ونلحظ ذلك من الاستفهام الإنكارى فى قوله **﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾** وفى هذا إرشادهما إلى أن هناك إلهاً آخر لاشريك له. **﴿ياصاحبى السجن أمّا أحدكما فيسقي ربه خمراً﴾**[1] «أما» حرف تفصيل وهمزته همزة قطع وقد ورد فى هذا الموضع ليفصل ماسيقصه يوسف على رفيقيه والدليل على ذلك أنه قبل أن يورد حرف التفصيل جاء بصيغة المثنى «صاحبى» وبعد ذكر «أما» بدأ يتناول كل شخص على حدة فقال أحدكما/ الآخر والفعل «يسقى» فعل متعد لمفعولين المفعول الأول هو «ربه» والمفعول الثانى هو «خمراً». ولكن كيف تتفق الجملة «يسقي خمراً» مع المفعول به «ربه» ؟. لقد جاءت كلمات القرآن محاكية لحال القوم الذين نزل بينهم يوسف، فيوسف سليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الموحدين وأهل مصر وملكهم ورفيقا السجن وامرأة العزيز ليسوا من الموحدين وكل من الفريقين يستعمل كلمة الرب فإذا أطلق يوسف هذه الكلمة فإنما يعنى بها «الله الواحد القهار» وإذا أطلق أهل مصر هذه الكلمة فإنما يعنون بها سيدهم أو عزيزهم أو ملكهم من البشر ولذا فلكلمة الرب فى هذه السورة مدلولان الأول: بشرى والثانى: هو الإله الحقيقى لهذا الكون.

﴿قُضى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾[2] مادلالة التعبير بالفعل المبنى للمجهول فى قوله «قُضى» ؟ الحقيقة أن السائل معلوم وهما الصديقان والمسؤل معلوم وهو يوسف والإجابة بتفسير الحلمين قام بها يوسف أما قصد يوسف التعبير بالفعل المبنى للمجهول فهو نوع من التأدب مع الله ومع الناس فيوسف من البشر وقد علّمه الله إمكانية التعبير عن الأحلام دون سائر الناس لكنه لايريد أن ينسب إلى

---

(١) سورة يوسف الآية (٤١).

(١) سورة يوسف الآية (٤١).

نفسه هذا الفضل ويتضح ذلك من قوله ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾[1] أما كلمة الأمر فهي اختصار لحكاية الحلمين وهو موافق لخصيصة الإيجاز التى تتسم بها لغة القرآن والفعل (تستفتيان) من الأفعال الخمسة التى ترفع بثبوت النون وأسند الفعل إلى ألف الاثنين، والتاء والسين والتاء فى بداية الفعل تدلان على الطلب والمعنى تطلبان الإفتاء أو التفسير ولما كانت كلمة الأمر مبهمة لذا فقد وصفت بقوله «الذى تستفتيان».

﴿وقال للذى ظن أنه ناجٍ منهما اذكرنى عند ربك﴾[2] نلاحظ أن هناك إيجازاً فى بعض المواضع ومنها قوله «أحدهما» «الآخر» «الأمر» فهذه كلها مواضع إيجاز ولكن عند التعبير عن الأشياء نفسها فى مواضع أخرى نجد تفصيلاً فحين أراد يوسف أن يشير إلى الشخص الأول عبّر القرآن عن ذلك ﴿وقال للذى ظن أنه ناجٍ منهما﴾ وذلك لأن التفصيل هنا هام لأن هذا الصاحب سيكون همزة وصل بين يوسف وبين ملك مصر الذى سيحتاج إلى قدرة يوسف على التعبير عن الأحلام. وكلمة ﴿ناجٍ﴾ هى اسم منقوص وقد حذفت ياؤه لأنه فى موضع رفع وقد وضع تنوين ليدل على هذا الحذف.

ولما عبّر يوسف بقوله «ربك» ولم يقل «ربنا» ؟ المقصود برب هذا الصاحب هو سيده عزيز مصر أما رب يوسف فهو الله الواحد. «قال» فعل ماضٍ والفاعل هو يوسف ولابد لهذا الفعل من جملة تسمى جملة مقول القول. «ظن أنه ناجٍ منهما» هناك رأيان: الأول: أن يعود الضمير فى كلمة «أنه» على صاحب السجن وفى هذه الحالة يكون صاحب السجن متشككاً فيما قاله له يوسف ويتضح ذلك فى قوله «ظن»، والثانى: أن يكون الضمير فى قوله «أنه» عائداً على يوسف ولكن فى هذه الحالة لايكون الفعل ظن وارداً بمعناه الحقيقى ولكن ظن بمعنى علم فهناك ظاهرة فى اللغة العربية اسمها «التضمين» أى يتضمن الفعل معنى فعل

(١) سورة يوسف الآية (٣٨).

(١) سورة يوسف الآية (٤٢).

آخر وتتم هذه الظاهرة خصوصاً فى أفعال القلوب أى ظن وأخواتها فأحيانا تأتى رأى بمعنى شاهد، وتأتى ظن أحياناً بمعنى اتهم وقد تأتى علم بمعنى عرف وقد تأتى تقول بمعنى تظن فإذا قلنا أتقول الجو حاراً معناها تشك أو تظن وعند عود الضمير على يوسف تكون ظن بمعنى علم أما إذا عاد الضمير على صاحب السجن فتكون الجملة على النحو التالى: ظن نفسه ناجياً. وجملة **﴿الذى ظن أنه ناج منهما﴾** يمكن التعبير عنها بكلمة واحدة هى الصاحب الأول.

﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾[1]. الأصل أن يُذكر الاسم صريحاً أولاً وإذا أردنا التعبير عنه مرة أخرى فإننا نستعيض بالضمائر منعاً للتكرار وقصداً للإيجاز،وقد وضعت اللغة نظاماً شاملاً للتعبير عن المسميات بالضمائر فهناك ضمائر للغائب وضمائر للمتكلم وضمائر للمخاطب سواء أكان ذلك مفرداً أم مثنى أم جمعاً كما أن للمؤنث ضمائر خاصة به وللمذكر ضمائر أخرى، ولكن مرّ علينا اسمان هما الصاحب الأول ويوسف عليه السلام، وقد وصى يوسف صاحبه أن يذكر قصته للملك أى يذّكره بيوسف أما الذى اعتاد أن يذكر ربه دائما ويستعين به فهو يوسف لكنه فى هذه المرة سأل صاحبه أن يسأل له فرعون للعفو عنه وفى هذه الحالة يكون قد استعان بغير الله بسبب ذلك الشيطان الذى أنساه ذكر ربه. **﴿فلبث فى السجن بضع سنين﴾**[2]. الفعل «لبث» بمعنى مكث والضمير المستتر هنا يعود على يوسف إذ إن الحوار هنا دار بين شخصين وحسب هما يوسف وصاحبه أما صاحبه فقد نجى من هذا السجن ليعمل ساقياً للملك أما الذى بقى فهو يوسف وقد عبّر القرآن عن المدة الزمنية التى مكثها يوسف فى السجن بقول «بضع سنين» وكلمة «سنين» لها مفرد وهو سنة ومثنى وهو سنتان، ونظام اللغة فيه أعداد إلى عشرة وألفاظ للعقود هى عشرون - ثلاثون - إلى تسعين ومازاد على ذلك فهو مئة إلى ألف ولم تكن الأرقام غريبة على لسان العربى بل إن هناك أمماً أخرى استعانت بالأرقام العربية فى تعاملها وهم الهنود حتى إن الصفر استعارته اللغات

(١) سورة يوسف الآية (٤٢).

(٢) سورة يوسف الآية (٤٢).

من العربية وحين نزل القرآن بلغة العرب كانت هذه الأرقام مستعملة فى العربية ولكن لماذا عبَّر القرآن بكلمة بضع ؟.

الحقيقة أن القرآن نزل فى البيئة العربية أى غير بيئة يوسف وفى زمن بعد يوسف بقرون عديدة، وحين يقصُّ القرآن هذا القصص إنما يركز على أحداث بعينها ويهمل أحداثاً أخرى؛ فالأحداث والشخصيات التى يدقق فيها القرآن ويفصلها إنما لأنها تخدم قضايا إيمانية سترد فى تفاصيل القصة،وموضوع سجن يوسف مايخدم القصة فيه هو القضايا الإيمانية التى يريد أن يقررها يوسف،ثانيا: مسألة قدرته على التعبير عن الأحلام وتفسيرها،وثالثاً: ذلك الصاحب الذى سيخبر الملك بأن هناك رجلاً صالحاً يدعى يوسف له قدرة على تفسير الأحلام التى رآها الملك فى منامه والتى ستجعل فى النهاية من يوسف عزيزاً لمصر؛ أما مدة سجنه فلاتخدم الموضوع ولا القصة و «بضع» تدل على الجمع أى أكثر من سنتين ولكنها مدة غير محدودة،ولعلنا لاحظنا سابقاً أن التعبير القرآنى يوجز فى بعض المواضع ويفصل فى مواضع أخرى،فحين عبَّر عن الصاحب بقوله «أحدهما» كان ذلك إيجازاً وفى موضع آخر قال «للذى ظن أنه ناج منهما» وهو تعبير عن الشخص نفسه وهنا عبَّر عن السنين بأنها بضع وفى مواضع أخرى سيذكر العدد مفصلاً. ﴿**وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان**﴾[1] . لقد اعتدنا فى الآيات السابقة على لون من الحذف وقد يكون هذا الحذف فى كلمة أو جزء من كلمة أو جملة لكننا فى هذا الموضع نجد إنتقالة فجائية إذ سبق أن تعرضنا لحوار دار فى السجن بين يوسف وصاحبه ونحن الآن فى حوار آخر لابد أنه يدور فى قصر فرعون ومعنى ذلك أن هناك حذفاً فى سياقات ومواقف كاملة إذ فى القصص البشرى يتطلب ذلك أن يذكر عدداً من الجمل لتتصل أجزاء القصة أو الرواية ببعضها ومنها «فودع الصاحب الناجى يوسف وخرج ليمارس حياته وأثبت براعة فى العمل حتى رشح ليعمل فى قصر فرعون واختاره المسئولون ليعمل ساقياً لفرعون وتقرَّب هذا الصاحب من فرعون نفسه وهكذا.»

(١) سورة يوسف الآية (٤٣).

«قال» فعل ماض و «الملك» فاعله، وبعد الفعل «قال» لابد أن تكون إن مكسورة الهمزة لأنها تبدأ جملة جديدة،والفعل «أرى» هنا يعد من أفعال القلوب أى من الأفعال التى تنصب مفعولين ﴿متعدية﴾ وتسمي رأى المنامية أو الحلمية أو القلبية وهى تختلف عن الفعل شاهد أو أبصر فكل منها يتعدى لمفعول واحد،وهنا موقفان أو مشهدان الأول : خاص بالبقرات والثاني خاص بالسنبلات وفى هذين المشهدين نجد تفصيلا بالأرقام مثل «سبع بقرات» - «سبع عجاف» - «سبع سنبلات».. وهكذا وقد فصل الرقم هنا لأن له أهمية فالمجاعة التى ستلِمْ بمصر وماجاورها ستستمر سبع سنوات ولهذا الرقم أهمية فى الاستعانة بيوسف عليه السلام وهى سبب فى إخراجه من السجن وليتبوأ مكانة عليا فى مصر إذاً لو كانت هذه المجاعة ستستغرق أسابيع أو شهور مادعا ذلك إلى قلق الملك وأهل مصر ولذا فصَّل القرآن فى هذه الجزئية فى الرقم الأول فى العدد والثانى يطابق العدد المعدود فتقول رجل أو رجُل واحد وامرأه وامرأة واحدة وفى المثنى رجلان وامرأتان أما العدد من ثلاثة إلى تسعة فإن العدد يخالف المعدود تذكيراً وتأنيثاً مثل ثلاثة رجال فثلاثة مؤنثة أمّا المعدود فمفرده مذكر وهو رجل ومثله ثلاث بنات فالعدد ثلاث مذكر والمعدود بنات مفرده بنت وهو مؤنث ومنه ماورد فى الآية «سبع بقرات» فالعدد سبع مذكر والمعدود بقرات مفرده بقرة مؤنث ومثله «سبع سنبلات» فالعدد سبع مذكر والمعدود سنبلات مفرده سنبلة مؤنث ومثله فى القرآن «سبع ليال وثمانية أيام».

﴿البقرات﴾ جمع مؤنث سالم وقد وصفت بجمع تكسير سمان كما وصفت بجمع التكسير عجاف ووصفت السنبلات وهى جمع مؤنث سالم بكلمة خُضر وهى جمع تكسير وجمع التكسير حين يوصف به لاتلحق به علامات التأنيث لأنه سيتحول إلى جمع مؤنث سالم كما فى كلمة يابسات.

نلاحظ أن العدد «سبع» مذكر والمعدود «بقرات» مؤنث، أما الصفة «سمان» فهى مذكر لأنها جمع تكسير، أما كلمة **﴿يأكلهن سبعُ عجاف﴾**[1]. ففيها

---

(١) سورة يوسف الآية (٤٣).

حذف فالعدد هو «سبع» والصفة هي «عجاف» وهي مذكر أيضا أما المعدود «بقرات» فقد حذفت في هذه الجملة ولذلك فقد ألحق الضمير الدال على المؤنث بالفعل «يأكلهن» وقد تكرر هذا في قوله «سبع سنبلات خضر» و «سبع» هو العدد المذكر والمعدود هو سنبلات وهو مؤنث، أما الوصف «خضر» فقد جاء مذكراً وفي قوله ﴿وأخر يابسات﴾ [1]. حذف فالعدد محذوف والمقصود «سبع أُخر» أما كلمة «يابسات» فقد وردت مؤنثة لأنها صفة لكلمة «أخر» وليس وصفاً للعدد «سبع»؛ ومن هنا نلاحظ أن جمع التكسير «سمان» و «عجاف» و «خضر» يرد وصفاً للعدد «سبع»، «البقرات» و «السنبلات» التي هي جمع مؤنث سالم وردت بقيمتها الرمزية وليست اللفظية - فهذا أسلوب في التعبير ليس مباشراً وذلك لأن البقرة الواحدة ترمز للسنة، فالسنة التي فيها رخاء تعد بقرة سمينة أما السنة الجدباء والتي يحل فيها الجفاف فتعد بقرةً عجفاء وكذا السنبلة فالخضراء ترمز للرخاء واليابسة ترمز للجدب وقد ورد هذا الأسلوب مقصوداً إليه فلو ورد هذا الأسلوب مباشراً ما كان ليوسف من حاجة يوكلها إليه عزيز مصر ولكن أراد الله أن يمكن ليوسف في الأرض بأن جعل له قدرة على تفسير هذه الرموز التي يعجز عن تفسيرها غيره.

وهكذا تضافرت أدوات اللغة وأساليبها التعبيرية للتعبير المحكم الدقيق عن المعاني التي تضمنتها القصة، كما تناسبت هذه الأدوات من ناحية أخرى مع أحداث القصة ومراد القرآن؛ من ناحية أخرى نجد توافقاً بين قواعد النحو وأساليب التعبير وهذا ماقد لاتراه متحققاً في بالدرجة نفسها مواضع أُخر كما في سورة الشورى وذلك لأن طبيعة التعبير في سورة يوسف التي هي قصة كاملة تختلف عن طبيعة التعبير في سورة الشورى.

﴿حم عسق﴾[2]. هذه حروف مقطعة، قال النحاة العرب بأنها لامحل لها من الإعراب أي لاموقع لها ولاصلة تربطها بما يليها من أجزاء الكلام. وقال العلماء

---

(١) سورة يوسف الآية (٤٣).

(٢) سورة الشورى الآية (١ ، ٢).

بأن هذه الأحرف إذا وردت على هيئة حرفين متصلين أو تكونت الأحرف من مقطعين وحسب مثل «حم» أو «يس» أو «طه» فإنها في هذه الحالة تعد ذات معنى ودلالة كأن تكون اسماً لعلم يتصل بموضوع السورة، أما إذا زاد عدد الأحرف عن اثنين أو مقطعين مثل «حم عسق» أو «طسم» أو «الم» أو «المر» أو «كهيعص» فإنها في هذه الحالة حروف مقطعة لامعنى لها.

ورأى آخر يرى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلّم نبيه محمد(ﷺ) بأن القرآن العظيم تتكون كلماته من هذه الأحرف البسيطة لكنها تشمل معانى عظيمة ومقاصد شريفة ومع هذا فإن الكافرين يعجزون عن الإتيان بمثله وهم من هم في إمارة الفصاحة والبيان.

والحقيقة أن أفكار العلماء عن سر هذه الأحرف التي تفتتح بها السور والآيات ليست نهائية وإنما هي محاولات لاستكناه أسرارها ولايعلم حقيقتها إلا المولى عز وجل.

﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾(١). لقد قولنا أن الأحرف المقطعة لامعنى لها ومن ثم فلا محل لها من الإعراب فالنحو يتصل اتصالاً وثيقاً بالمعنى، فمثلا «آلم» في فواتح السور لامعنى لها لانبتات الصلة بما يجاورها من كلمات،أما إذا وردت الأحرف نفسها برسمها الإملائي في تركيب آخر ولها صلة بما يجاورها فحينئذ يكون لها معنى «ألم تسأل نفسك» فالهمزة للاستفهام وذلك لعلاقتها بالفعل «تسأل» و «لم» حرف نفي وجزم؛ والحقيقة أن الأحرف عندما تدخل في بناء أي كلمة ومعها الحركات كالفتحة والكسرة والضمة فإنها تعطى معنى محدداً وحينئذ تصبح كلمة من الكلام العربى الذى ينقسم إلى اسم وفعل وحرف وعليه سنحلل الآيات لنكشف معانيها وأسرارها اللغوية.

«كذلك» تنقسم إلى أربعة أجزاء فالكاف الأولى حرف تشبيه وجر، و «ذا»

(١) سورة الشورى الآية (٣).

إسم إشارة مجرور بالكاف واللام حرف يستخدم للإشارة إلى البعيد والكاف حرف للخطاب، ونحن نصطلح على جعل كل حرف جر اتصل باسم مجرور فى اللغة العربية يشبه جملة تتعلق بعنصر محذوف فى الجملة المذكورة وهذا العنصر فى هذه الحالة نعدّه مفعولا مطلقا هو إيحاءً ودلنا على العنصر المحذوف الفعل «يوحى» وكأن أصل التركيب «يوحى الله إليك إيحاءً كذلك الإيحاء» والمقصود أن الله يوحى إلى الرسول إيحاءً كذلك الإيحاء الذى أوحاه إلى الرسل والأنبياء الذين أرسلهم لهداية البشر قبل سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾ كسيدنا موسى وعيسى ومن سبقهم.

«وإلى الذين من قبلك» الواو هنا تسمى واو العطف، عطف النسق أى تعطف شيئاً على شئ شبيهه كعطف اسم على اسم أو فعل على فعل أو جملة على جملة، وهى هنا تعطف جملة على جملة بالرغم من أن القارئ يتوهم أنها تعطف حرفاً على حرف حين يرى «إليك وإلى الذين من قبلك» فبعد الواو عنصر محذوف وهو الفعل «أوحى» دلنا على الفعل السابق «يوحى» جوّزه ظاهرة العطف وظاهرة أخرى وخصيصة هامة من خصائص اللغة العربية وهى الإيجاز وهى أن تدل بالمفردات القليلة على المعانى الكثيرة وكأن أصل التركيب (يوحى الله إليك يامحمد ايحاءً كذلك الإيحاء الذى أوحاه إلى الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله لهداية البشر فى سالف الأزمان﴾.

ولك أن تتصور مدى الإطالة التى ظهرت عند تحليل الآية الموجزة بالرغم من أن المعنى لم يزد شيئاً بل قلّ جمال التركيب وروعته وإحكامه، أما تعدد الصفات فى قوله «العزيز الحكيم» فهذا مما يتيحه نظام اللغة فالصفة والحال والخبر مما يمكن أن يتعدد سواء على هذه الهيئة أو فى هيئات تركيبية أخرى. **﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾**[1] . هاتان جملتان اسميتان استخدمت فى تأليفهما واو النسق

(١) سورة الشورى الآية (٤).

لعدم تكرار شبه الجملة الذى يقوم بوظيفة الخبر المقدم، أضف ذلك إلى الفعل «استقر» المحذوف بعد الاسم الموصول.

وعبرت الآية بالاسم الموصول «ما» ليفيد العموم والشمول سواء بالنسبة لمخلوقات الأرض أو مخلوقات السماء والتعبير بهذه الأداة «ما» بإفادته للعموم والشمول كان يمكن أن يغنى عن ذكر الجملة الثانية «وما فى الأرض» على أن يكون التعبير «له مافى الكون»،ولكن يبدو والله أعلم أن لهذا التعبير على هذه الهيئة فائدتين الأولى:تتعلق باستساغة التركيب الحادث من تساوى الجملتين مع المفارقة بين لفظتى «السموات والأرض» حيث وصلت الأولى وتم الوقف على الثانية والفائدة الثانية:دلالية ستتضح فى الآية التالية. ﴿**تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم**﴾[1] . فالضمير فى قوله «فوقهن» الذى عبر عنها بنون الإناث محير فإلى من يعود هذا الضمير؟ فإذا بحثنا الآية السابقة فلن نجد إلا ﴿ما فى السموات ومافى الأرض﴾ وكلاهما معطوف على الآخر فسيتبادر إلى الذهن أن الضمير يرجع إلى كليهما لكن هناك مصادمة فى المعنى إذ كيف تتفطر السموات من فوق مافى السموات!.﴿**والملائكة يسبحون بحمد ربهم**﴾:فى أساليب البشر تبدو هذه الواو وكأنها القائمة بوظيفة الحال لورود التركيب على هيئة خاصة قد توهم ذلك. ﴿**تكاد السموات يتفطرن والملائكة يسبحون**﴾ فهذه قاعدة نحوية ويجب ألا تتصادم معانى النحو مع الدلالات الدقيقة للتركيب فالإعراب فرع المعنى كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى[2] .

أى أن المعنى هو الأصل وعليه ينبنى الإعراب وكذا التحليل وإذا نظرنا إلى حال الملائكة فسنجد أن وظيفتهم هى التسبيح الدائم الدائب المستمر بحمد ربهم والاستغفار لما يصنع البشر من خطايا وآثام توشك أن تجعل السماء تنفطر من

---

(١) سورة الشورى الآية (٥).

(٢) عبد القاهر الجرجانى – دلائل الاعجاز – ص ٦٤.

فوقهم إذ إن السماء لاتتفطر حقيقة إنما هى تكاد تتفطر لولا تسبيح الملائكة واستغفارهم الدائم لأن خطايا البشر مستمرة أيضا وهذا الدأب من الملائكة وذاك الاستمرار البشرى فى ارتكاب المعاصى والآثام والعلاقة الدلالية بينهما هى التى توهم بأن هذه الواو هى واو الحال وأن جملة «والملائكة يسبحون» تؤدى وظيفة الحال ولما كانت الحال منتقلة أى ليست ثابتة ولذا نعبر دائما عن ذلك بقولنا «دوام الحال من المحال» فإذا قلنا «أقبل زيد ضاحكاً». فمعناها أن حالة الضحك انتابت زيداً لحظة إقباله وأنه لم يكن يضحك قبل ذلك كأن يكون قد رأى شيئاً ساراً فاستبشر وضحك فإذا قسنا هذه الحالة بحالة الملائكة فلايمكن على الإطلاق أن يقوم الملائكة بالتسبيح والاستغفار لحظة تفطر السموات أو ارتكاب البشر المعاصى وحسب، وعلى هذا فمعانى النحو تابعة للدلالة من ناحية وهى فى الوحى القرآنى يجب ألا تسلك إلا مسالك محدودة تختلف عن مسلكها فى تراكيب البشر خصوصاً الفنية.

والتعبير «لمن فى الأرض» أوضح لنا أن الضمير فى «من فوقهن» يعود إلى من فى الأرض خصوصاً والمقصود بهم البشر وليس ما فى السموات ومافى الأرض إذ إن «ما» العامة الشاملة تخصصت فى هذه الآية وأصبحت «من فى الأرض».

وقد افتتح التركيب «ألا إن الله هو الغفور الرحيم» بالأداه «ألا» لتنبه القابل نصاً بالمعنى السابق وهو قبول الله لاستغفار الملائكة وفى هذا التركيب لايتصادم تعدد الخبر مع دلالة الغفران والرحمة أو اختلاف محل الضمير «هو» وفقاً للمذهبين المعروفين. ولايعدّ هذا التركيب الأخير مضاداً للإيجاز الشائع فى بنية التراكيب فهو إنما ورد لإفادة معنى لم يكن ليعرف مماسبق فتسبيح الملائكة واستغفارهم حالت دون تفطر السموات لكن إفادة قبول الغفران لم يكن ليفهم إلا من التأكيد والتنبيه باستخدام الأداتين «ألا - إنّ» ثم التعبير بالجملة الاسمية «الله هو الغفور الرحيم».

وليس التعقيب أو الإطناب بإضافة مركبات لاحقة للتركيب الأصلى هو الوسيلة الأوحد بل إن تقديم بعض الوحدات اللغوية لتحظى بوظائف نحوية مختلفة

عن وظيفتها الأصل مما يعد مفيداً فى إيضاح الدلالة؛ فتقديم المركب «من دونه» على المفعول به «أولياء» فى قوله ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾[1]. أفادت مدى إفتراء البشر باشراكهم واتخاذهم معبودات أخرى دونية، وقد كان هذا المركب صفة لأولياء لكنه أصبح حالاً فهذه المعبودات مؤقتة ودونية وكأن التعبير «الذين اتخذوا أولياء مغايرين لله».

وتؤدى الأدوات أيضا دوراً فى تأكيد الدلالة والقطع بها مثل «ما - ب» فى قوله ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾[2].

وفى قوله ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا﴾[3]. فالمركب «كذلك» له التحليل السابق نفسه الذى أجريناه فى بداية السورة فجزؤه الأول به جملة يتعلق بعنصر لغوى محذوف هو المصدر إيحاءً واللام للدلالة على البعد والكاف لخطاب النبى ﴿ﷺ﴾، لكن صيغة الفعل هنا تغيرت «أوحينا» فقد تحولت إلى دلالة الزمن الماضى لكنها فى بداية السورة أفادت الاستمرار فالوحى مستمر منذ الأنبياء والرسل السابقين حتى هذا العهد الذى يوحي فيه إلى محمد، وعهد البشر بهذا الوحى وهذه الرسالات واحد فهم يقابلونه بعصيان الله ورسله ومعاندة الرسل باتخاذ آلهة دونية؛ ويبدو والله أعلم أن تحول صيغة الفعل فى هذه المرة إلى المعنى للدلالة على أن هذا الوحى بقوله تعالى «قرآناً عربياً» أى عربياً فى صياغته وتأليفه وجرى تراكيبه على السنن العربى المألوف بالرغم مما فيه من إعجاز لغوى ومضمون لم يتكشف كله إلى الآن وهو رحمة للعالمين وليس هدى للعرب وحسب. ونستفيد هذه الدلالة من قوله «أم القرى ومن حولها»[4]. فالإنذار والدعوة لايخصان أم القرى وحدها فـ«من» تفيد العموم و«حولها» لم تفد تخصيصاً.

---

(١) سورة الشورى الآية (٦).

(٢) سورة الشورى الآية (٦).

(٣) سورة الشورى الآية (٧).

(٤) سورة الشورى الآية (٧).

وفى قوله ﴿وتنذر يوم الجمع﴾[1] . عطف نسق أى عطف جملة فعلية على أخرى لكن المنَذر هنا شئ مختلف،فقد كان فى السابق أم القرى ومن يحيطون بها لكنه فى هذه الحالة مكون تركيبى يدل على الزمن،وإذا بحثنا عن مميز آخر غير الدلالة ليكون أكثر تحديداً فسنجد علامة الفتحة على آخر «يومَ» فإذا كان النسق هنا تاماً فسنعد يوماً منذراً أيضاً من بين المنذَرين وهذا معنى مضحك بطبيعة الحال، أما إذا عددناه ظرفاً للزمان فستكون هناك مصا دمة أخرى بين القواعد وبين الدلالة تماماً كالتى حدثت فى حالة تسبيح الملائكة «تكاد السموات يتفطّرن».

فالظرف «يوم الجمع» الذى هو وعاء للزمان ودال على موعد بعينه هو يوم القيامة سيفيد أن النبى ﴿ﷺ﴾ قد أوحى إليه القرآن لينذر قومه وعشيرته الأقربين وكذا سائر الأمم والأمبراطوريات التى تواجدت فينذر هؤلاء جميعاً فى يوم القيامة أى يوم أن اقترب للناس حسابهم وهذا معنى مؤسف/ففى هذه الحالة لن يكون الرسول قد قام بوظيفته وهى هداية الناس من الضلال فى دنياهم وبيان الحق من الباطل للاستعداد ليوم القيامة الذى لا يعلم موعده إلا الله وعلى هذا المعنى الأخير فلانستطيع أن نعد «يوم» ظرفاً أى وعاءً للزمان من الناحية النحوية.

وعلى هذا فلفظة «يوم» فى هذا الموضع هى لفظة دالة على الزمن من حيث مادتها اللغوية خصوصاً عند إضافة لفظة «الجمع» إليها حيث تكسبها تحديداً وتأكيداً لكنها من حيث قواعد النحو تتجرد من معنى الظرفية وتتحول إلى المفعولية أى إنها أصبحت مفعولاً به والمعنى والله أعلم أننا أوحينا لك يامحمد إيحاءً وهو قرآن عربى الصياغة والتأليف لتنذر قومك والأقوام الذين يعيشون فى زمانك وتحذرهم من حساب يوم القيامة الذى هو آت لاريب فيه، وقد أفاد المركب «لا ريب فيه» أن زمن الإنذار غير زمن يوم الجمع فزمن الإنذار فى حياة الرسول ﴿ﷺ﴾ وقد قام به بنفسه،أما زمن الحساب فإنما يكون بعد البعث الذى لايعلم موعده إلا الله لكنه آت لا ريب فيه والرسول نفسه لم يكن يعلم هذا الموعد حتى يعدهم بالإنذار فيه وبهذا تتوافق الدلالة مع الوظيفة النحوية للمكون موضع المسألة.

---

(١) سورة الشورى الآية (٧).

وقواعد اللغة تفيد بأن المبتدأ يجب أن يكون معرفة ويمكن للخبر أو يرد نكرة إذ كيف للإنسان أن يخبر عن شئ مجهول للسامع لكن النحاة جوّزوا أن يبدأ بالنكرة فى حالات بجويز تقديم شبه الجملة لكننا فى التركيب القرآنى نجد واقعاً مخالفاً لما شاع عن التراكيب التى يصنعها البشر وذلك فى قوله ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾[1] والأساليب البشرية لاتتبع هذا النسق الخاص من الأساليب العالية الراقية،ولذا فإن النحاة عندما يتعرضون لمثل هذه التراكيب التى تعلو على نظام القواعد التى وضعها البشر والتى استُمد أغلبها بل جلها من تحليل تراكيب هذا النص .. يفسر النحاة ذلك بالتنويع بين الجمل فالجملتان اسميتان تتكون كل منهما من مبتدأ نكرة وجار ومجرور يتعلق بمحذوف خبر لكنهما تختلفان فى الدلالة وكأن دلالة هذه الجمل الموجزة «اعلم يا محمد أنه فى ذلك اليوم الموعود الذى يتم للناس فيه حسابهم سيكون هناك فريقان فريق اهتدى بما أوحينا إليك وما أوحينا للرسل من قبلك وهؤلاء مقرهم الجنة وفريق آخر اتخذوا آلهة دونية فأشركوا بالله وأولئك مقرهم جهنم.

وعلى من يتعامل مع هذا النص القرآنى ومعانيه ومفرداته أن يعلم أنه يتعامل مع نص ذى خصوصية فاللفظة الواحدة فيه تأخذ دلالات خاصة فى تراكيب هذا النص،فألفاظ الصلاة والزكاة والحج قد اكتسبت دلالات خاصة عند ورودها فى تراكيب هذا النص ولم تكن لها هذه الدلالات قبل نزول هذا النص الكريم هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الألفاظ نفسها بدلالاتها تأخذ فى السياق القرآنى دلالة خاصة قد يصدم القارئ عند تحليله لها وعند عقد نسبة بينها وبين مايسبقها أو يليها من تراكيب.

ولقد أشرنا إلى مدى مايمكن أن يحدث من تصادم بين قواعد النحو فى نظام اللغة بين المعانى القرآنية ولكن قد يحدث تصادم أيضا بين المعانى وبعضها حين نقيس هذه المعانى القرآنية بما فطر عليه البشر من الأخذ والعطاء والثواب والعقاب

---

(١) سورة الشورى الآية (٧).

ففي قوله ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ و ﴿الذين﴾ اسم موصول يفيد الخصوص ولابد له من جملة صلة لتحديد من يشملهم وهي ﴿اتخذوا من دونه أولياء﴾، والحقيقة أنه يمكن الاستعاضة عن كل من الاسم الموصول وجملة الصلة بمتعلقاتها بلفظة مفردة واحدة هي «المشركون» وهي في هذه الحالة مبتدأ خبره جملة ﴿الله حفيظ عليهم﴾ وهنا يحدث التصادم في المعنى فإذا كان المشركون سيحظون بهذا الحفظ فماذا عسى أن يكون جزاء المؤمنين؟ وهذا يحتاج إلى تدبر في إدراك لفظة «حفيظ» ألها دلالة خاصة، أم أن للتركيب بكامله معنى خافياً علينا؟

وبطبيعة الحال لابد أن يكون الجواب في النص نفسه ولذا فسننظر في الجملة التالية ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فالواو فيها عاطفة عطف نسق و «ما» حرف نفي والخطاب فيها للرسول ﴿ﷺ﴾ والجملة في حالة الإثبات هي «أنت وكيل» وحينما أراد الله أن يخفف عن نبيه عبء وكالة أمر هؤلاء المشركين ومسؤليتهم أخبر جل وعز بالنفي «ما أنت وكيل» ولما كان التركيب يختص بهؤلاء المشركين وأن هناك صلة وعلاقة نحوية بين الجملتين وردت شبه الجملة «عليهم» بالإضافة إلى عطف النسق «و».

ومن هذا نجد أن الضمير «أنت» مبتدأ وليس له من خبر سوى «وكيل» وهنا نلمس زيادة حرف الباء عن المعاني النحوية إذ يعبر النحاة عن ذلك بأنه خبر مرفوع بضمة مقدرة حال دون ظهورها على آخره اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد وهي الكسرة.

والحقيقة أن هذا الحرف الزائد عن معاني النحو لابد أن له قيمة وظيفية من حيث الدلالة، فنفي وكالة أمر المشركين إلى رسول الله يمكن أن يتحقق بالتركيب «ما أنت وكيل» ولما أراد الله تعالى أن ينفي عن الرسول أدنى مسئولية أو وكالة بأمرهم وردت الباء في هذا الموضع مؤتلفة مع حرف النفي لتصنع تركيباً خاصاً يفيد المعنى المقصود ويضفي عليه التوكيد.

وإذا لم يكن للرسول وكالة بأمر المشركين فهي إذن لله تعالى وحده وعلى هذا فقد يتطرق إلى الفهم أن دلالة «حفيظ» هي وكيل أو مسئول كما قد يتبادر إلى الفهم أنها بمعنى «رقيب» فالطبيعة البشرية تسرع دائماً إلى مثل هذه المعاني، وقد تستبعد دلالة الحفظ والصون خصوصاً مع المشركين ولكن من يتتبع تراكيب هذا النص ودلالاتها الخاصة وسياقاته وما تحويه من أحداث فسنجد أن هناك منزلتين الأولى لله ورسله والثانية للبشر الذين أنزلت إليهم هذه الرسالات أي لهدايتهم وبين هاتين المنزلتين لن تجد لمبدأ «الإحسان بالإحسان والإساءة بالإساءة» تطبيقاً تاماً صارماً فالعبد يعصى ويرتكب الاثام ويشرك بخالقه ومع ذلك فهو يقبل توبته ويرزقه بل قد يزيد له في الرزق ويتفضل عليه بالنعم في وقت كفره، والله هو خالق المؤمن والمشرك وهو وكيلهم جميعاً وهو أرحم بهم من أنفسهم فقد وسعت رحمة ربي كل شئ ففي سورة «طه» يكلم الله نبيه موسى ويأمره هو وأخاه هارون **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أويخشى﴾**[1].

نجد أن الإساءة من فرعون تقابل بالإحسان من موسى وفقاً لأمر ربه الذى يرى في ذلك حكمه، فقد يؤدى هذا الإحسان إلي أن يهتدى فرعون إلي سواء السبيل لكن استعمالنا المألوف للمفردات والتراكيب عند القول أو التلقى يجعل هناك تصادماً في المعانى بين الفعل وردّ الفعل «إنه طغى = قولاله قولاً ليناً» وعلى هذا يكون إلف هذه المعاني القرآنية هو المخرج لتدبُّر معانيه التى تتجاوز قواعد النحو ونظام اللغة ودلالة المعاجم.

ولكن إذا تأملنا لفظة «حفيظ» سنجد أنها من حيث المبنى الصرفي صفة مشبهة باسم الفاعل ولابد لها من دلالة خاصة تختلف عن التعبير بصيغة إسم الفاعل فهي ترد على هذا النحو لتفيد ثبات الحدث.

وقد يكون الله عز وجل قد أورد هذه الصيغة على هذا النحو - والله أعلم - إنما لإفادة إنه سيحفظ هؤلاء المشركين إلى حين حتى يطمعهم الإحسان في الهداية إلى سواء السبيل.

(١) سورة الآية الشورى (٤٣ ، ٤٤).

﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾[1] وهذا التركيب يتكون من أربعة عناصر هى الأداة «لو» حرف شرط يدل على الامتناع والعنصر الثانى هو جملة الشرط «شاء» والعنصر الثالث هو اللام،وليس من شك فى أنها تقوم بضم العنصرين الأساسيين لتركيب الشرط والجواب على أنهما مؤلّف واحد،وفى هذا الخصوص يسمى التركيب بعناصره جميعاً جملة شرط بالرغم من أنه يتكون من جملتين فى إطار اصطلاح النحاة وفى إطار تشكيل الجمل البسيطة ذات العناصر الأساسية.

والعنصر الرابع هو جملة الجواب ﴿جعلهم أمة واحدة﴾ وليس من شك فى أن هذا التركيب المكتمل العناصر قد يغيب عنه عنصران فى بعض الاستعمالات بحيث يمكن إدراكه من خلال العناصر الأخرى المذكورة من التركيب وإلفه لدى السامع أو القارئ، كما يمكن إدراك غياب هذه العناصر بوسيلة أخرى هى القرائن السياقية والحالية للنص. والبناء الداخلى لمثل هذا التركيب يدل على أن أفعاله قد حدثت فى الزمن الماضى وهى فى الحقيقة لم تحدث وأن الأدوات التى وردت فيه (لو –ل) تخلصه للاستقبال. (ولكن يدخل من يشاء فى رحمته) لكن بسكون النون ترد على هذا النحو وفى هذا الموضع لسبقها بالواو ولدخولها على جملة فعلية ولاعمل لها لكنها فى غير هذا التأليف والذى أفهمنا عدم الحدوث هو طبيعة هذا التأليف ترد مضعّفة النون، كما تدخل على الجملة الاسمية فتنصب العنصر الأول وترفع العنصر الثانى وهذا هو التأثير الذى أصبح لها والذى يجعلها تدخل فى إطار الحروف ذات العمل النحوى وهى «إنّ واخواتها».

والجملة ﴿يدخل من يشاء فى رحمته﴾ الفعل «يدخل» ذو حدث وزمن وفى حالة إفراده يدل على الانتقال من حيز لآخر وهذا يستوجب أن تكون العناصر المتحدة معه فى تأليف ما دالة على ذلك،ومن العناصر المتحدة مع هذا الفعل «فى رحمته» ، فالمركب المؤلّف من الجار والمجرور هو شبه الجملة وشبه الجملة فى اللغة العربية يضم كل من الجار والمجرور والظرف،والظرف هو وعاء إما ليدل على الزمن

---

(١) سورة الشورى الآية (٨).

أو المكان ولذا فالجار والمجرور لابد أن يحدد لنا إما مكاناً ذا حيز وحجم أو زماناً يمكن قياسه بوحدات معينة أو فترات من هذا الزمن.

وما يمكن تحديده لابد أن يكون أمراً محساً ولكن كلمة «رحمة» هى أمر معنوى غير محس، ومن هنا نجد تصادماً خصوصاً فى التأليف بين «يدخل» و «رحمة» فكيف يمكن التوفيق بين عناصر هذا التأليف؟

إن هذه الجملة تعد تعبيراً غير مباشر وهو فى الوقت نفسه من الأساليب العالية الراقية ولكن لابد لهذا التصادم من تحليل قريب من نظام القواعد وقريب إلى الفهم البشرى، فالنحو بما يشمله من قواعد واسطة بين الفكر والمعانى وبين الإبداع فى التأليف/فالمضاد والمقابل لمعنى الرحمة هو الشقاء والشقاء يعنى فى فكر المؤمن عذاب يوم القيامة ودخول النار أو جهنم ولها فى ذهن المؤمن تصور عرفه من معانى آيات القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول «ﷺ» إذن فالرحمة خصوصاً إذا كانت من الله عز وجل فهى تعنى النعيم ودخول الجنة والجنة فى ذهن المؤمن مكان ذو نخيل و أعناب وأنهار جارية أى أنها ذات حيز يمكن الدخول إليه وعلى هذا يمكن التوفيق بين أجزاء التأليف.

والحقيقة أن اللغة بدأت بسيطة للتعبير عن حاجات الإنسان التى لاتكاد تتعدى تجهيزه لطعامه وشرابه وستر بدنه وأن تطور الحياة واكبه تطور اللغة من ناحية والاستعمال من ناحية أخرى.

وفى الحقيقة أيضاً أن مفردات اللغة محدودة وأن المعانى أكثر من هذه المفردات ولذا فلابد من معادلة بين المفردات وبين المعانى وهذا التعادل إنما يتم بأمرين إما بمساواة عدد المفردات لعدد المعانى أو استخدام المفردة الواحدة لعدد من المعانى والأمر الأول لايمكن تحقيقه على مستوى لغات البشر جميعاً، أما الأمر الثانى فمتحقق فى جميع لغات البشر. وقد كانت للعربية فى هذا الشأن خصوصيات فالمفردة الواحدة تستخدم للتعبير عن العديد من المعانى فالعين تدل على الباصرة وعين الماء والجاسوس إلى آخر المعانى التى تتوسع فيها كتب فقه اللغة

وتستخدم العربية المفردة الواحدة للتعبير عن المعنى وضده كالجون للأبيض والأسود والقُرء للحيض والطهاره كما تستخدم الموصولات الاسمية خصوصاً «ما - من» للدلالة على المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع وهذا يكسب اللغة مرونة واتساعاً للعديد من الاستعمالات ومن أخص خصوصيات العربية أن الأداة الواحدة قد تكون اسما فى بعض الاستعمالات وقد تكون هى نفسها حرفاً فى استعمالات أخرى فمثلاً «على» يمكن أن ترد حرفاً للجر ويمكن أن تكون فعلاً بمعنى يعلو وكتب النحو تفرد باباً كاملاً لهذه الخصوصية هو باب حروف الجر. وأداتا «ماعدا - ماخلا» تعدان أفعالاً أما إذا جردتا من هذه الأداة فإنهما تعدان حرفين يجران الاسم الذى يليهما، ومن هذه الخصوصيات أيضاً تعدد الوظائف النحوية للمفردة الواحدة فالمفرد الواحد ليمكن أن يقوم بأكثر من وظيفة نحوية إذا تحققت فيه شرط هذه الوظيفة فالمفرد «محمد» يكون فى وظيفة المبتدأ فى «محمد رسول» وهو فاعل فى «جاء محمد» وهو مفعول به فى «قابلت محمداً» وتعدد هذه الوسائل فى اللغة العربية أكسبها مرونة فى الاستعمال وقدرة فائقة فى أداء المعانى المطروحة ومايستجد من معان أو استعمالات.

والحقيقة أن مفردات اللغة استخدمت فى بدايتها للتعبير عن المحَسات وهذا موافق لطبيعة نشأة الحياة والإنسان وحاجته الأساسية لأن المحسّات أسبق استعمالا فى حياة الإنسان من المعنويات ولما طرأت المعنويات على حياة الإنسان كمعانى السلام والأمن والقومية والوطنية والرحمة والشقاء استخدمت الألفاظ نفسها الدالة على المحسات للدلالة على بعض المعنويات ومن هنا جاءت التعابير غير المباشرة والاستعمالات الخاصة فكلمة «ملحمة» موجودة فى اللغة العربية وهى فى العبرية بالأحرف نفسها والترتيب نفسه مع اختلاف بناء الصيغة فهى فى العبرية بكسر الميم وسكون اللام وفتح الحاء ومد الميم الثانية وهى تدل على التحام البشر ببعضهم فى المعارك أى يمس لحم الرجل الأول لحم الرجل الثانى، واللفظة نفسها تستخدم الآن فى التعبير عن المعارك الكبرى الفاصلة التى قد تتم بأسلحة الكترونية وصواريخ موجّهة وقد لايكون للإنسان فيها أى دور سوى ضغطه على أجهزة التحكم فى انطلاق هذه الأسلحة.

﴿والظالمون مالهم من ولى ولانصير﴾[1]. وهذه الجملة المركبة وردت على هذا النحو اسمية فـ«الظالمون» مبتدأ تم الحكم عليه بالجملة «مالهم من ولى ولانصير» ودلالة هذه الجملة تقتضى التضاد مع الجملة السابقة أى سيطرد الله المشركين من رحمته وسيبعدهم عن جناته جزاءً بما ظلموا وأشركوا وتركيب الجملة البسيط «الظالمون ليس لهم ولى» وقد وردت «من» زائدة عن معانى النحو فتركيب الجملة البسيط من مبتدأ وخبر ولكن ورود «من» كانت له فائدة فى الدلالة فهو لنفى وجود ولى من أى نوع أو جنس وقد دلل على ذلك ورود «ولانصير» فـ «لا» زائدة لتأكيد النفى وهذه خاصة أسلوبية تتردد فى الآيات كما فى قوله ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾.﴿أم اتخذوا من دونه أولياء﴾[2]، «أم» حرف يستخدم فى العربية فى حالة المعادلة أو التسوية كقوله تعالى ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾[3]. وكقولنا ﴿أأكلت عنباً أم تمراً﴾؟ وهى تدخل على الأساليب الإنشائية لكنها فى هذه الآية لم ترد للتسوية أو التخيير بين أمرين بل وردت فى أسلوب خبرى لتفيد أمراً واقعاً حاصلاً بالفعل وهو إشراكهم بالله ولذلك فقد وردت «أم» لتؤدى وظيفة دلالية جديدة هى الإضراب أى عما قبلها فهى بمعنى بل أو قد.

﴿فالله هو الولى وهى يحى الموتى وهو على كل شئ قدير﴾[4]. نلحظ فى هذه الجمل خاصة أسلوبية تتعلق بالتكرار وهى إعادة ذكر إسم الجلالة بلفظه أو بالضمير الذى ينوب عنه ﴿الله هو الولى – وهو – وهو﴾ بالرغم من وجود سببين تركيبيين يقتضيان الحذف دون الإخلال بالمعنى، الأول:هو التعبير عن لفظ الجلالة بالضمير فى قوله «من دونه» والثانى:هو وجود عطف النسق الذى تردد ثلاث مرات هذا من الناحية التركيبية لكن الدلالة تقتضى هذا التردد فى كل

(١) سورة الشورى الآية (٨).

(٢) سورة الشورى آية (٩).

(٣) سورة البقرة الآية (٦).

(٤) سورة الشورى الآية (٩).

جملة من الجمل التى تبين قدرته عز وجل لمن لايدركها من المشركين، ففى الآية السابقة على هذه الآية موقفان متضادان الأول:هو اتساع رحمة الله لمن يشاء من عباده،والثانى:هو عدم شمول هذه الرحمة لمن أشرك بالله وقد عاند المشركون وكابروا واتخذوا من دونه أولياء بالرغم من هذين الموقفين الواضحين وبالرغم من تردد هذا المعنى فى قوله ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾[1].

ويبدو أن هؤلاء المشركين قد جمدت عقولهم وتحجرت أفهامهم فكان لابد من تكرار ذكر لفظ الجلالة بنفسه أو بما ينوب عنه من ضمائر لمناسبة هذه الأفهام التى لاتدرك من أول وهلة.

والخاصة الأسلوبيّة الثانية فى قوله (وهو على كل شئ قدير) فـ«هو» ضمير مبتدأ و «قدير» هى الخبر ولم يتواليا بل تقدمت «على كل شئ» على عاملها النحوى «قدير» ولهذا التركيب الخاص ضرورة دلالية خصوصاً أنه ذكر فى الجمل السابقة عليها قدرة الله على الإحياء والإماتة وهما قدرتان عظيمتان بل هما أعظم ما فى هذه الحياة والكون وتتضاءل أمامهما أمور كثيرة فى الحياة وحركة الكون ولإرادة الإيجاز فى هذا المقام ولأن قدرات الله متناهية تقدم قوله «على كل شئ» لبيان أهميته وتسليط الأضواء عليه فالرغبة هنا لإبراز تعدد الأشياء مع اختصار اللفظ وليس القدرة عليها أما التعبير عن هذه القدرة فقد استخدمت له صيغة خاصة هى صيغة «فعيل» وهى إحدى أوزان صيغ المبالغة «قدير» وهى مبالغة فى حدوث الفعل أى كثرة تردد حصول القدرة فالتعبير بقوله « كل شئ» يفيد أن الأشياء فى هذا الكون والحياة غير متناهية ولذا فالقدرة غير متناهية وهى مستمرة باستمرار وجود هذه الأشياء أضف ذلك إلى أن هناك بدائل لغوية متاحة فى نظام اللغة يمكن التعبير بها فى هذا التركيب مثل «قدر أو قادر» لكن قدير أقدر على التعبير عن المعانى السابقة مجتمعة.

---

(٤) سورة الشورى الآية (٧).

﴿وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله﴾[1]. فى اللغة تراكيب ترد متلازمة إما لإفادة المعنى أو لإلفها هكذا عند المستمع وإذا ذكر أحدها فإنه يتوقع ذكر قرينه وإن لم يكن المتكلم قد نطق به ومن الأول «ما» فهو اسم موصول فى معناه ومبتدأ من حيث وظيفته النحوية غير أن قرينه وهو الخبر لم يرد مجاوراً له فى الموقع بل فصل بينهما بالتركيب(اختلفتم فيه من ش) لذا فالخبر (حكمه) ورد مقترنا بالفاء وهى تؤدى وظيفة دلالية هى ربط الخبر بالمبتدأ وإن طال الكلام بينهما وهذه الفاء غير مقترنة بكل خبر فإذا قلنا «محمد رسول» أو «زيد مجتهد» فلا حاجة بنا إلى ربط المكوّنين لأنهما متلازمان لايفصل بينهما فاصل والعربية فى ذلك أوضح مايكون فلكل مبنى معنى وأى زيادة فى المبنى تقابلها زيادة فى المعنى. وقد سمى «ما» موصولاً ولم يسم واصلاً لأنه لايصل بنفسه لإتمام الفائدة بل لابد من جملة تتصل به وتتلازم معه وهى جملة الصلة «اختلفتم» وقد كان لدينا نوعان من التلازم تركيبيان الأول فى الوظائف النحوية بين المبتدأ والخبر وكل منهما فى محل رفع، والثانى فى الوظائف الدلالية بين الموصول وجملة الصلة بدليل أن جملة الصلة لامحل لها من الإعراب وقد أولى نظام اللغة فى هذا التركيب التلازم الدلالى موقعه مقارنة بالتلازم فى الوظائف النحوية بالرغم من وجود العناصر التركيبية التى تحفظ الوظيفة كالفاء التى اقترنت بالخبر وذلك لأن اللغة استعمال وتركيب. أما مسألة الوظائف التى ألبستها المكونات فيه من صنع النحاة وفى قوله ﴿ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب﴾ ترددت كل من الخاصتين الأسلوبيتين التكرار والتقديم فقد ذكر اسم الجلالة لفظاً فى قوله «إلى الله» ومع ذلك فقد تم التعبير عن اسمه عز وجل بالإشاره «ذلكم» اللفظ «الله» والنسبة «ربى» وفى هذه النسبة دلالة خاصة فى الإقناع فنسبة الرب إلى نفسى معناها أننى اتخذته ولياً ونصيراً واقتنعت به إلهاً ورباً أضف ذلك إلى التعبير عنه بضمير الغائب فى «عليه وإليه».

والخاصة الثانية هى تقديم شبه الجملة على الفعل مرتين فى قوله «عليه توكلت وإليه أنيب» فالجملتان فعليتان والأصل أن يتصدرهما الفعل أضف ذلك

---

(1) سورة الشورى الآية (١٠).

إلى التنوع فى صيغة كل فعل من حيث صياغته لزمن الماضى «توكلت» والحاضر والمستقبل فى «أنيب».

والتكرار نلحظه فى صدارة الآية التالية بوسيلة أخرى تضاف إلى التكرار بالإشارة واللفظ والمرادف وضمير الغائب، تلك الوسيلة الجديدة هى حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه وهو شائع فى العربية فإذا قلت «مررت بضعيف قواه» أى رجل ضعيف و «أحسنت إلى مسكين» أى إنسان مسكين وقد ورد ذلك فى قوله تعالى ﴿فاطر السموات والأرض﴾(١). فقد وردت «فاطر» على صيغة اسم الفاعل،واسم الفاعل يعمل عمل الفعل المضارع والفعل ذو عنصرين الحدث والزمن، أما من حيث الحدث فقد فطر الله السموات والأرض منذ خلقت الخليقة وقبل نزول القرآن،وأما الزمن فالمضارع يدل على الحاضر والمستقبل لكن القرآن أُنزل لمن يعيشون على ظهر الأرض وتحت السماء،والحقيقة أن الصيغة أى اسم الفاعل وردت مضافة إلى السموات والأرض وذلك فقد أدت المعنى بدقة إذ تم خلق السموات والأرض من قبل بعث النبى ونزول القرآن،أما دلالة صيغة اسم الفاعل على الحاضر والمستقبل فذلك مقترن بتنوين الصيغة ونصب مابعدها والقصة فى ذلك شهيرة إذ أتى نحوى إلى القاضى(٢). وقال له إذا أتاك رجلان وقال لك أحدهما «أنا قاتلُ زيدٍ» بالإضافة وقال لك الآخر «أنا قاتلٌ زيداً» بالتنوين والنصب فلأيهما تحكم؟، قال القاضى أحكم لكليهما فقال النحوى لابل تحكم للأول أى بالإضافة فذلك الذى قتل أما من قال بالتنوين والنصب فلم يقتل لكنه عازم على ذلك ومن ذلك قوله تعالى ﴿ولاتقولن لشئ إنى فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ فقوله «غداً - ويشاء الله» تدل على أن الحدث عند تنوين اسم الفاعل لم يتم بعد.

﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه﴾(٣)، «جعل»

---

(١) سورة الشورى الاية (١١).

(٢) النحوى هو الكسائى والفقيه هو أبو يوسف القاضى، وكانا فى مجلس بحضرة الرشيد - انظر: الأشباه والنظائر - السيوطى ج٣ ص ٢٢٤ - ط حيدر آباد ١٣٥٩.

(٣) سورة الشورى الآية (١١).

فعل متعدٍ لمفعولين والمقصود به صيّر أى صيّر أنفسكم أزواجاً لكم والأنفس المقصود بها من أهلكم وأقربائكم أو من دينكم أو من أوطانكم وآصرة الزواج تؤلف بين كل هؤلاء، أما «من» فهى للتبعيض أو التجزئ فالإنسان يتزوج من بعض أهله وليس كلهم فنحن إذا قلنا ﴿أكلت اللحم﴾ أو ﴿شربت اللبن﴾ فمعناه أننا أكلنا وشربنا الكمية المقدمة أو المشتراه جميعها أما إذا قلت ﴿أكلت من اللحم﴾ و ﴿شربت من اللبن﴾ فمعناه أننى تناولت بعضه بم يسد حاجتى ويكفينى.

أما العطف فى قوله «ومن الأنعام أزواجاً» فيقتضى بعض المغايرة إذ لم يخلق الله الأنعام لتكون أزواجاً للناس بل لتكون أزواج الأنعام فى خدمة الإنسان بما فيها من منافع لكن الجملة الأولى تعنى أن الله آلَفَ بين الناس وبعضهم ليكونوا أزواجاً.

والضمير فى قوله «يذرؤكم فيه» يدل على المفرد الغائب ومايسبقه من مفردات لايدل على المفرد الغائب فما سبقه هو الأزواج والأنعام والأنفس والسموات والأرض وكلها لاتناسب هذا الضمير والمسألة أن هناك شبه جملة هى «فيه» فإذا دلت على مكان فيمكن أن يكون الكون الذى يتألف من السموات والأرض وإن دلت على أمر معنوى فهو الزواج.

وضمير الغائب فى قوله «ليس كمثله شئ» بالطريقة نفسها لايدل على مذكور سابق وإنما يدل على لاحق وهو لفظ الجلالة فى قوله «وهو السميع البصير» والكاف تُعرف بأنها حرف تشبيه وجر وهى تساوى تماماً كلمة «مثل» فإذا حللنا الجملة على هذا النحو فستصبح «ليس مثل مثله شئ» وبذلك نكون قد أثبتنا مِثْلاً لله وهذا مستحيل فالله واحد لاشريك له لكن خطورة الأمر أن ترد هذه الجملة فى القرآن وأن تُفهم بهذه الدلالة.فالحقيقة أن «ليس» ناسخ يفيد النفى ويحتاج فى تركيبه إلى اسمين وحسب، فأصل التركيب «ليس شئ مثله» ومعناه «شئ لايشبهه» وبهذا يكون هناك عنصر زائد عن التركيب وهو الكاف لكن

تراكيب اللغة كثيراً ماتورد حرف الجر الزائد فى سياق النفى وقد تردد ذلك فى هذه السورة عينها وذلك فى قوله (ما أنت عليهم بوكيل فالباء جر زائد ومثله قوله «مالهم من ولى» فـ«من» حرف جر زائد أضف ذلك إلى أن اتحاد حرف الجر مع مكّون آخر يعطى مسوغاً لتقدم الخبر على اسم ليس وفوق ذلك فإن كلمة «مثل» تدل على تأكيد الذات وليس على وجودها فإذا قلت لصديق لى «إن علياً بدر منه كذا وكذا» فيردّ قائلاً «مثله لايفعل ذلك» وهو يقصد علياً ذاته.

وتقدُّم شبه الجملة وتصدره للتراكيب شائع فى العربية ومن ذلك قوله **﴿له مقاليد السموات والأرض﴾**[1]. والأرض مفردة وردت معطوفة على السموات وهى على صيغة جمع الإناث لكن حركة الكسرة على آخر الأرض تدل على أن أصل التركيب مقاليد السموات ومقاليد الأرض. والحقيقة أن عطف النسق يمثل ظاهرة أسلوبية يبدو والله أعلم أنها وظفت للإيجاز واختصار أكبر عدد من المكونات فالفعل «يبسط» يؤلف جملة فعلية وردت مكتملة العناصر فى قوله «يبسط الرزق لمن يشاء» وورد الفعل «يقدر» معطوف على «يبسط» لكنه ورد بدون متعلقات وسّوغ ذلك عطف النسق وأصل التركيب اللغوى «ويقدر على بسط الرزق لمن يشاء» أما ورود «عليم» على وزن صيغة المبالغة «فعيل» فللمبالغة فى معنى العلم واستمراريته وقد دل على ذلك قوله «بكل شئ» التى تقدمت على معمولها للأهمية.

﴿شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى اوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه﴾[2]. إنه من شروط الرسالة اللغوية الجيدة أن لا يصاب المستمع بنوع من الملل خصوصاً إذ أردنا أن نوصل إليه شيئا مقنعاً وإيماناً بالغيب. وفى هذه الآية تكرار لكن فيه تنوعا داخليا مثال ذلك إلى تكرار الأسماء الموصولة فقد وردت ثلاثة أسماء موصولة متتالية –

---

(١) سورة الشورى الآية (١٢).

(٢) سورة الشورى الآية (١١).

ورد الأول بصيغة «ما» والثاني بصيغة «الذى» والثالث بصيغة «ما» وهكذا ترى إن «الذى» فصلت بين « ما – وما» وهو تنويع لفظى لاتختلف فيه الدلالة.

والتنويع فى الأفعال وهذه الأفعال وردت فى جمل صلة الموصول الثلاثة أيضاً وهى على الترتيب «وصى» بصيغة المفرد الغائب «وأوحينا» وضمير الجمع للتعظيم ووصينا وهكذا ترى أن الفعل أوحى فصل بين فعلين من مادة واحدة وهما «وصى ووصينا».

المقصود بالخطاب فى قوله «شرع لكم» الرسول والمسلمين والمقصود بالخطاب فى قوله «أوحينا إليك» هو الرسول عليه الصلاة والسلام وقد تكررت هذه الصيغة فى بداية السورة حيث قال عز وجل «كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك» وقوله «وأوحينا إليك قرآناً عربياً» هذه الآية تسمى تركيباً موسعاً وذلك لأنها تحتوى على فعل رئيس هو الفعل «شرع» ومجموعة من الأفعال الثانوية مثل «وصى – أوحينا – وصينا» «أقيموا – تتفرقوا» والفعل «شرع» فاعله لفظ الجلالة أما المفعول فهو متعدد وهو الأسماء الموصولة الثلاثة «ما – الذى – ما» وبالرغم من أن هذه الأسماء الموصولة وردت معها جمل صلة لتتم معناها مثل «وصى به نوحا – أوحينا إليك» – «وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى» إلا أن ذلك لم يوضح المعنى ولذلك وردت جملة مفسرة هى «أن أقيموا الدين» وتسمى «أن» فى صدارة هذه الجملة «أن» المفسرة أى أن مابعدها تفسير لما قبلها وقد ربط بين أجزاء هذا التركيب الموسع أدوات منها العطف كما فى «والذى – وما – وأن» المفسرة فى «أن أقيموا» والتوكيد بالنفى فى قوله «ولاتتفرقوا»، وقد أدى هذا التركيب الموسع دلالات جليلة منها أن الدين الإسلامى قائم على احترام الأديان السابقة وكتب الله ورسله والإيمان بها، ومنها أيضا أن الأديان السابقة دعت لوحدانية الله قبل أن يصيبها التحريف، ومنها أيضا عدم الاختلاف، والاجتماع على الدين الإسلامى الواحد لأنه مكمل لهذه الأديان ومنها أيضا اتصال رسالات إبراهيم وموسى وعيسى، فقد وردت جميعاً داخل جملة واحدة مما يدل على اتحاد

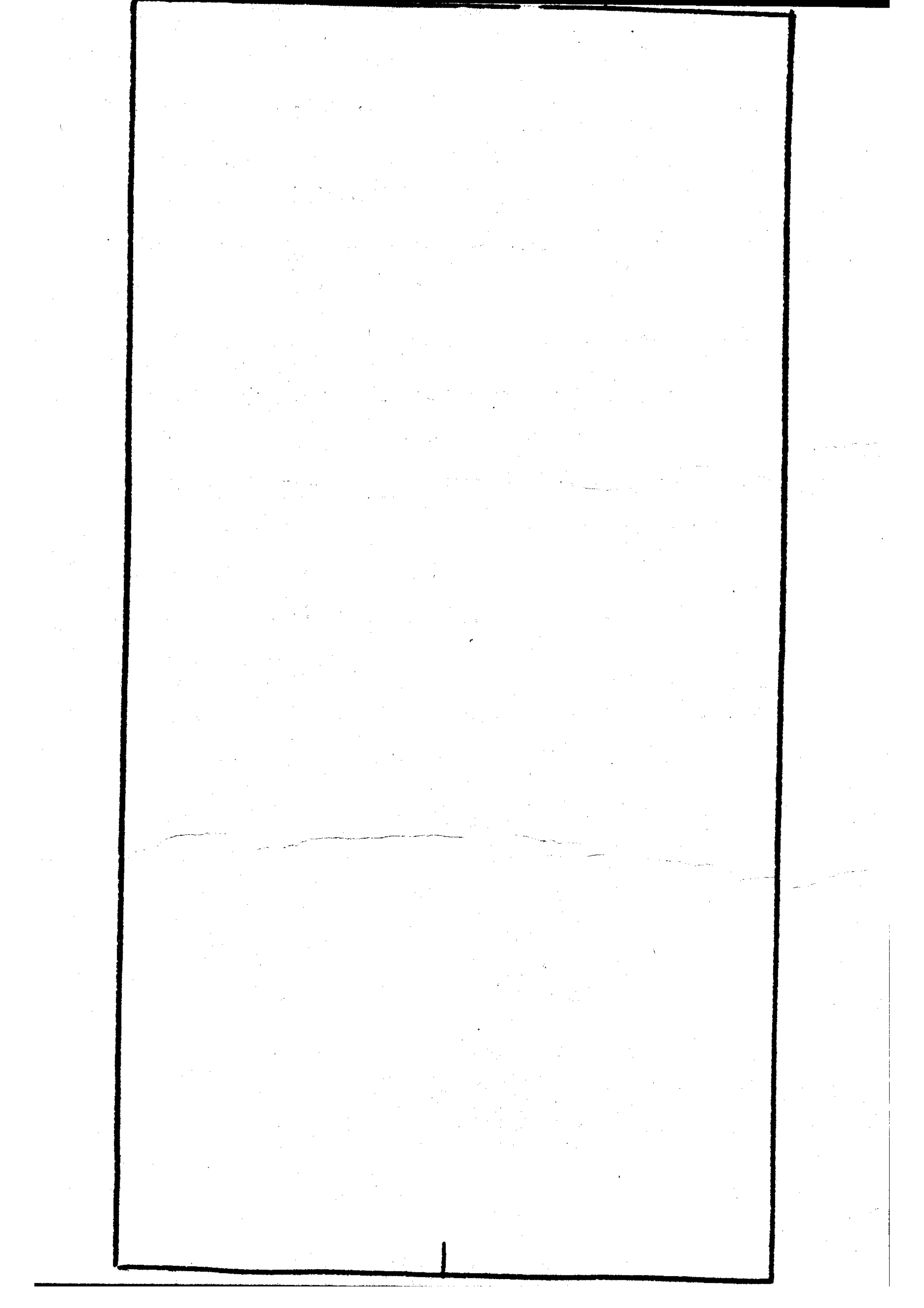
المنهج، وهنا نلحظ أن حرفا واحداً وهو الواو استخدم مرة لاجتزاء المكونات ومرة أخرى فى توسيع الجمل والتراكيب لكنه فى كل مرة يؤدى وظيفة مختلفة، كما نلحظ أيضا أن هناك ترابطاً داخليا بين مكونات التراكيب لتأدية الدلالة، لكن ليس بالضرورة أن تحوى السورة الواحدة مضموناً واحداً كما لاحظنا ذلك فى سورة يوسف.

عن هذا التوجه نفسه عبَّر ابن عاشور، وإن كان ذلك بطريقة حديثة قائلاً: «الانتقال من غرض إلى غرض فى القرآن الكريم لاتلزم له قوة ارتباط لأن القرآن ليس كتاب تدريس يرتب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعض ولكنه كتاب تذكير وموعظة فهو مجموع ما نزل من الوحى فى هذه الأمة وتشريعها وموعظتها وتعليمها؛ فقد يجمع فيه الشئ للشئ من غير لزوم ارتباط وتفرع مناسبة وربما كفى فى ذلك نزولا الغرض الثانى عقب الغرض الأول، أو تكون الآية مأموراً بإلحاقها بموضع معين من إحدى سور القرآن ولايخلو ذلك من مناسبة فى المعانى أو فى انسجام نظم الكلام»[1].

وفى هذا مايكفى للاقتناع بوعى المفسرين بارتباط آى القرآن بعضها ببعض بل بحثوا فى أنواع المناسبة والعلاقات القائمة بين الآيات من جهة وبين السور من جهة أخرى. وهذا ما عرضنا له عرضاً مفصلاً فى الباب الأول من هذا البحث.

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» - جـ٣ ص ٤٦٥ الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤م.



الفصل الثالث

مدلول الرمز فى حمّى المتنبى

نالت أبا الطيب بمصر حمّى فقال القصيدة يصفها ويعرض بالرحيل عن مصر وذلك في ذى الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة (٩٥٩م)، ويبدو أن هذه الحمى لم تكن داءً مرضياً حقيقياً إنما هى رمز لحالة اليأس التى ألمت بأبى الطيب المتنبى فى مصر، فقد كان أبو الطيب طموحاً ذا آمال عِراض؛ فقد كان شاعر الأمير البطل سيف الدولة الحمدانى وكان صديقاً له.

وكان الأمير سيف الدولة النموذج والمثل للقائد العربى فى نظر المتنبى وقد بدا ذلك فى أشعار المتنبى فهو حين يمجده إنما يمجد البطولة العربية والشهامة والكرم، وقد افتقر المتنبى إلى هذه المعانى الجليلة فى مصر فلم يجد القائد النموذج ولم يجد مكانته الرفيعة التى كان يحظى بها عند سيف الدولة وتبددت آماله وأحلامه فأضاف ذلك حزناً إلى نفسه يزيد على حزنه لفراقه سيف الدولة وخروجه من عنده مكسور النفس وسياق هذه القصيدة يعكس هذه الأحزان مجتمعة خصوصاً أن المتبنى يعترف نصاً ولغة فى هذه القصيدة بأنه ليس مريضاً بداء حقيقى وليس عند الأطباء دواء لدائه فهو فارس مغوار تعوّد أن يجوب فى السرايا مقاتلا، فارساً يتقلد السيف الهندوانى وهو يسخر من الطبيب الذى يقرر بأن داءه كان سببه الطعام والشراب الذى يتناوله.

والمتنبى يرى أن علاج نفسه فى الانطلاق نحو تحقيق الآمال والبطولة والعيش فى كنف قائد نموذج ومثال، فيبدأ المتنبى قصيدته على عادة الشعراء العرب باستيقاف الرفيق ومخاطبته وإن لم يكن هناك رفيق حقيقى لكنها ضرورة فنية يلجأ إليها المتنبى ليجعلها مفتحاً لبثّ صراعه الداخلى يقول:

مَلُومكُمـــا يَجلّ عن المَـــلامِ   وَوَقْعُ فَـــعَـــالِه فَـــوْقَ الكَلامِ[1]

---

(١) التبيان فى شرح الديوان، العكبرى، ج ٣، قافية الميم.

يخاطب صاحبيه اللذين يلومانه على ركوب الأسفار والأخطار فى طلب المجد يقول: ملومكما يعنى نفسه يجل عن الملام لأنه لايأتى مايلام عليه وفعله فوق كلام القائلين فهو أعلى من أن يصل إليه الملام.

اللغة العربية لغة اشتقاقية أى أنها تشتق من صيغة الفعل عدداً من صيغ الأسماء منها المصادر واسم الفاعل والمفعول وصيغ المبالغة وأسماء المصادر والصفة المشبهة ...الخ.

وهذه الظاهرة اللغوية التى تتسم بها العربية دون سائر اللغات الإلصاقية أى التى تستعين بالسوابق واللواحق للتعبير عن المعانى المتعددة؛ واللغة العربية تتمتع أيضا بإمكانية الاستعانة باللواصق واللواحق أيضا.

وقد أتاحت ظاهرة الاشتقاق للمتنبى أن يصوغ فى هذا القالب الشعرى المحدود معانيه التى يريدها.

فالقصيدة من بحر «الوافر» وتفعيلاته «مفاعلتين + مفاعلتن + فعولن» وهو بحر ذو إيقاع سلس لأن التفعيلة الواحدة تبدأ بوتد مجموع تليه فاصلة وهكذا يظل هذا التسلسل بين الوتد والفاصلة حتى تفعيلة «فعولن» التى تبدأ بوتد لكنها لاتنتهى بفاصلة إنما تنتهى بسبب خفيف يعطى لوناً من الضعف فى تيار الهواء ومجرى النَّفَس المندفع من الرئتين إلى خارج الفـم فيعكس النزعة الحزينة التى انتابت الشاعر وتتيح له فرصة إفراغ مابداخله من شحنات عاطفية حزينة متألمة، أضف ذلك إلى اختيار الشاعر أحد الحروف الشفهية وهو الميم ليكون روياً لقصيدته وكذلك حركة الكسرة التى تصاحب هذه الميم فتدل على انكسار نفسه وتحطم آماله،والحركة ممتدة فى نهاية كل بيت بحيث تصنع مقطعاً مفتوحاً يستروح فيها النفَس فيخرج ظفرات النفس وما أصابها من قنوط كما فى القوافى «الملام - الكلام - لئام - المقام - بغُامِى».

والإيقاع بهذا يعدّ لحناً جنائزياً باكياً لما اشتملت عليه القصيدة من عناصر

ومؤثرات إيقاعية، أضف ذلك إلى اللغة بمفرداتها وتراكيبها ومافيها من رمز يشبه إلى حدٍ بعيد العناصر الرومانسية فى الشعر الحديث عن الشعراء المحدثين.

فالمشتقات المطروحة فى نظام اللغة استفاد منها المتنبى فى صنع تراكيبه للتعبير عن معانيه، فالبيت الأول يتكون من جملتين اسميتين الأولى فى الشطر الأول وتتكون بدورها من جملة مركبة مبتدؤها اسم مكون من مضاف ومضاف إليه «مَلومكما» وخبرها جملة فعلية «يجلّ»،والجملة الأخرى فى الشطر الثانى ولكن حدث فيها تعديل فالمبتدأ «وَقْعُ» وهى صيغة مصدر والخبر «فَوْق» وكان يمكن أن ترد صياغة الشطر الثانى كصياغة الشطر الأول بحيث يكون المبتدأ اسماً وهى ضرورة لغوية وعُرْف نحوى والخبر جملة فعلية فتكون الصياغة «وفعاله تقع فوق الكلام» لكن استخدام صيغة المصدر «وْقع» كثّفت الدلالة وأعطت المعانى أثراً قوياً ولذا فهذه الصيغة فى هذا الموضع ذات طاقة دلالية عالية خصوصاً عند إضافتها لصيغة فى هذا الموضع ذات طاقة دلالية عالية خصوصاً عند إضافتها لصيغة «فعاله»،وهذا التصرف فى الاستعمال قد يكون للإيقاع دور فيه فالشاعر محكوم بما أقره نظام العروض والقافية العربى الذى يعتمد على الكمية صوامت وحركات، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى تحكم ومهارة من الشاعر فى استخدام وحدات اللغة وتأليفها لإكسابها الطاقة الدلالية المقصودة.

فنظام اللغة يتيح إمكانات والشاعر هو الذى يكسبها الطاقة الدلالية المقصودة من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه يوظّف وحدات اللغة فى التعبير عن معانيه وإحداث لون من المؤثرات الإيقاعية الداخلية النابعة من التحكم فى التأليف والصياغة والمهارة فى التصرف فى المواد اللغوية والصيغ التى تنبنى عليها والقوالب التى تصب فيها هذه العناصر قد تفوق الإطار الموسيقى الخارجى للشعر العربى. ومن هذه الإمكانات صيغة اسم المفعول «ملوم» وصيغة اسم المصدر «الملام» وتكثيف استخدام الأحرف ذات التردد العالى كاللام والميم فى الشطر الأول ومن هذه الإمكانات أيضا صيغة المصدر «وْقع» واسم المصدر «الكلام».

وغالبا ما تكون لتراكيب البيت صورة تركيبية مبسطة يضيف إليها الشاعر عناصر إضافية من وحدات اللغة لالتكثف المعنى وحسب وإنما غالباً ماترد لإضافة تفاصيل للأحداث ففى قوله:

ذَرانـى والـفــــــلاة بـلا دَلـيـلٍ   وَوَجْـــهى والـهــجــيــرَ بلا لثــام

فالصورة المبسطة لهذا التركيب «ذرانى والفلاة – ووجهى والهجير» وقد استفاد الشاعر من خصيصة الإيجاز فى العربية فتجنب أن يكرر ذكر الفعل «ذرا» فى الشطر الثانى لوروده فى الشطر الأول من ناحية ولاستخدام عطف النسق الذى يتيحه له نظام اللغة باستعمال الواو فى بداية الشطر الثانى وقد وظّف الحرف نفسه وهو الواو لوظيفة أخرى هى المعّية والمصاحبة فأحدث بذلك لوناً من التعادل فى المعنى والإيقاع فى كل من الشطرين «ذرانى والفلاة = وجهى والهجير».

ولم يكتف الشاعر بهذا المعنى المحدود فلديه معاناة يريد أن يبرزها وآلام نفسية يريد أن يطرحها وقيم بطولية وفروسية أراد أن يستعرضها فأضاف إلى مهاراته وقوته الجسدية مهارات أخرى تمثلت فى تحكمه فى اللغة فأوجز باستخدامه عطف النسق وواو المعية واستخدم مركبين متماثلين فى النمط ومتعادلين فى الإيقاع «بلا دليل – بلا لثام» وهو يريد من الصورة الكلية التركيبية للبيت: اتركانى أسلك الفلاة بغير دليل يهدينى لأنى خبير بمسالكها وأمشى فى الهجير بغير لثام يقى وجهى لأننى اعتدت ذلك.

ويصنع مقابلة لغوية بقوله:

فـــإنى أســـــتـــريحُ بذى وهذا   وأتعبُ بالإناخـــةِ والُمــــقَــــامِ

وهو يصنعها بمهارة فى تشكيل تركيبى الشطرين فقد ورد الفعل «أستريح» متمماً لمعمولى «إنّ» فى حين ورد الفعل «أتعب» أساساً لتشكيل التركيب الثانى وذلك حتى يتسع الكمّ العروضى والزمنى من وحدات البيت للمصدر «المُقام» لإتمام قافية البيت بالرغم من أن «الإناخة» هى «المقام» بل هى طول المقام.

ويتضح دور الإيقاع في تشكيل اللغة من استثماره لظاهرة الإيجاز النصف الأول من البيت حيث يقول ﴿أستريح بذى وهذا﴾ وذى يقصد بها فلاة ويقصد بـ«هذا» الهجير وهاتان المفردتان ذكرتا في البيت السابق وقد استخدم اسمى إشارة في الرمز إليها ولم يكن هذا الرمز مخلاً بدلالة المرموز إليها بل إنه أضفى على التركيب لونين من الجمال الأول: إيقاعى حيث أحدث تعادلاً بين «ذى وهذا = الإناخة والمقام»، واللون الثانى في المقابلة بين شطرى البيت التى صنعت على هيئة «فعل + نسق» أى «أستريح + ذى + هذا» + «أتعب + الإناخة + المقام»، وقد استخدم عطف النسق لربط عناصر التركيب الكلى داخلياً وخارجياً، فالنسق الخارجى بين نصفى البيت حيث عطف جملة فعلية على جملة فعلية والنسق الداخلى متكرر بين اسمين في كل جملة ففى الجملة الأولى بين اسمى إشارة وفى الثانية بين مصدرين.

وهذه القدرة على التأليف تظهر أيضاً في ربطها في الجمل الاسمية حيث يستخدم عطف النسق أيضاً في ربطها خصوصاً أن تعلق معنى شرطى البيت بشئ واحد كالراحلة لكنه يتصرف في الصياغة فهو يستخدم الاحتراز بالجملة الاعتراضية «إن حِرتُ» ويجعل ماقبلها يؤدى وظيفة المبتدأ وإن تكون من عنصرين «عيون رواحلى» ويجعل مايلى المركب الاعتراضى خبراً وإن أضافه إلى نفسه «عينى» وذلك في قوله:

عيـــونُ رواحلِي إن حـــرتُ عـــينى .:. وكُلّ بغــــامِ رازحــــةٍ بُغــــامي

ويستخدم في النصف الثانى من البيت وسيلة تركيبية أخرى غير الاعتراض بين المبتدأ والخبر، هذه الوسيلة هى تكثيف العناصر الإضافية للمبتدأ وصولاً إلى الخبر الذى أضافه إلى نفسه أولاً للقافية وثانيا لتكثيف عنصر الإيقاع مع نهاية الشطر الأول فقد أضاف «كل» إلى «بغام» إلى «رازحة» ومعناه إن حارت عينى فأنا بهيمة مثل رواحلى وعينى كعيونها وصوتى كصوتها ويريدُ أنه بدوى عارف

بدلالات النجوم فى الليل فيقول: إن تحيرت فى المفازة فعينى البصيرة عين راحلتى ومنطقى الفصيح بغامها ويرى عيون رواحلى تنوب عن عينى إذا ضللت فأهتدى بها وإذا احتجت إلى أن أصوت ليسمع الحى فصوتها يقوم مقام صوتى وإنما قال بغامى على الاستعارة.

وكان أبو الطيب متمكناً من قواعد صياغة الشعر وهو ذو خبرة لغوية واسعة وكانت تحدث بينه وبين اللغويين مشادات تصل إلى الضرب أحياناً وقد ضربه عالم النحو ابن خالويه: بمفتاح فشجّ رأسه لخلاف على صياغة الشعر فى مجلس الأمير سيف الدولة وكان معاصراً لأدباء ولغويين متميزين فى تاريخ العربية أمثال أبى فراس الحمدانى من الشعراء وابن جنى الذى شرح ديوانه وكذا أبو البقاء العكبرى. والواحدى والبرقوقى والتبريزى ناهينا بدراسات حديثة عديدة وهذا يعكس لنا مقدار شاعريته وقد قال عن شعره.

﴿أنا الذى نظر الأعـــمى إلى أدبى   وأسـمعت كلمـاتى من به صمم﴾
﴿أنام ملء جـفـونى عن شـواردها   ويسـهـر الخلقُ جرّاها ويختـصم﴾

فقال الأديب المشهور أبو العلاء المعرى أنا ذلك الأعمى الذى قصده المتنبى. ويكفينا دليلاً على شاعرية المتنبى وتمكنه من اللغة أن أبا العلاء المعرى على قدر علمه كان يجعله نموذجاً ومثالاً يحتذى به. والمتنبى يعدّ من أكثر الشعراء العرب شهرة على الإطلاق وكيف لاوقد قيل عنه أنه مالئ الدنيا وشاغل الناس فقد تميز شعره بالإثارة وبخصائص أعطته درجة التفوق على كثير من الشعراء ومن هذه الأمور استخدامه للرموز فى قصائده أحياناً. بحيث ينخدع القارئ للقصيدة فى بدايتها بالرمز الذى أوحاه إليه شعر المتنبى إلا أنه مايلبث أن يكتشف المغزى الحقيقى وراء تلك الرموز. من تلك الرموز «الحمى» فلابد أن القارئ عندما يقرأ هذه القصيدة أن يتبادر إلى ذهنه على الفور أن المتنبى يحكى على حاله ومرضه بعد إصابته بالحمى ولكن مع الانتقال فى القراءة من بيت إلى آخر نكتشف أن

الحمى ماكانت إلا رمزاً لشئ ماأراد المتنبى إيصاله للناس بطريقة رمزية ... قال المتنبى.

فـــإنى أســـتـــريح بذى وهذا   وأتـعب بـالإناخـــة والمقـــام

هذا ليس حال مريض نائم بل حال رجل نشيط يحب الحركة ولايركن إلى الراحة والرقود ... وقال:

يذم لمهـــجـــتى ربى وســـيـــفى   إذا احـــتـــاج الوحـيـــد إلى الذمـــام

وهو هنا رجل شجاع مقدام لايترك سيفة أبداً فهو دائماً مشارك فى الحروب والمعارك وكيف لا وهو القائل

الخـيل والليل والبـيـداء تعـرفنى   والسـيف والرمح والقـرطاس والقلم

وقال ...

ولا أمـسى لأهل البـخل ضـيـفـا   وليس قـرى سـوى مخ النعـام

ومن هذا البيت نبدأ فى اكتشاف المرض الحقيقى الذى يعانى منه المتنبى وهو مرض نفسى فى الحقيقة وليس مرض الحمى كما أوهمنا بذلك المتنبى فى البداية فهو يتكلم عن رجل بخيل بعينه يكره المتنبى الإقامة عنده وهو كافور الأخشيدى. وقال ...

وآنـــف مـــن أخـــى لأبـــى وأمـــى   إذا مـــالم أجـــده من الكرام

فهو فى هذا البيت يوضح بجلاء كراهيته للبخل والبخلاء وأنفته منهم حتى لو كان ذلك البخيل هو أخاه فهو لايحب إلا أهل الكرم ولايحب أن يعيش إلا فى أرض عز وكرم وهو القائل... «وكل مكان ينبت العز طيب».

وكذلك يقول المتنبى فى البيت الثانى عشر.

أرى الأجـداد تغلبـهـا كـثـيـراً   على الأولاد أخـــلاق اللـئـــام

ويعنى المتنبى فى هذا البيت أن لؤم الأخلاق يغلب الأصل الكريم فيكون الولد لئيماً وإن كان أجداده كراماً ويكمل المتنبى تذمره من كافور ومن الإقامة فى الأرض التى يحكمها فيقول:

أقمت بأرض مصر فلا ورائى   تخبُّ بى الركاب ولا أمامى

فقد ألزمه بالإقامة فى مصر ولم يعد يستطيع تركها بعد أن مدح كافوراً بقصائد عديدة طمعاً فى ولاية لم ينلها وإنما نال غضب سيف الدولة الحمدانى. لشخصية المتنبى جوانب ولشعره خصائص نستدل عليها من هذا النص ومن نصوص أخرى فقال النقاد أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى ويقصدون أن الحكمة ظاهرة واضحة فى شعر المتنبى ومنها.

يحب العاقلون على التصافى   وحب الجاهلين على الوسام

ومن يجد الطريق إلى المعالى   فلايذر المطى بلاسنام

وإن أسلم فما ابقى ولكن   سلمت من الحمام إلى الحمام

تمتع من سهاد أو رقاد   ولاتأمل قرى تحت الرجام

وتتميز الحكمة فى شعره بأن جملها قصيرة موجزة وأنها ليست مخصصة - أى تصلح لكل فرد وليست محددة بزمان أو مكان فهى صالحة لجميع العصور بالرغم من أنها مستمدة من التجارب الخاصة ، وكان المتنبى يقيم عند سيف الدولة الحمدانى فى حلب وكان هو القائد والنموذج الأوحد فى ذلك العصر فقد كان يتصدى للروم الذين يمثلون خطراً على الأمة الإسلامية وكان كريما جواداً ولذلك أحبه المتنبى وكان مثلاً أعلى له وقد عز على المتنبى أن يلتقى برجل مثل كافور ليست فيه صفة النخوة العربية ولايقوم بأعمال بطولية وهو ليس من الكرماء ولاجواداً هذا فى نظر المتنبى. لذا حدث عند المتنبى رد فعل عكسى فأنشأ قصيدته الحمى ينكر فيها هذه المعانى لجوانب شخصية كافور التى لاتعجبه وعلى هذا فالقصيدة ذات أفكار رئيسية هى أعراض الحمى التى انتابته وهى غير حقيقية وتشخيص المرض الحقيقى والخلاص من هذه الحمى وتلك هى الأفكار التى تضمنها النص من واقع بنياته وتراكيبه:

١- أعراض الحمى التى انتابته:

فــإنى أســتــريح بذى وهذا وأتـعب بـالإناخــة والمقــام

فالعرض الأول هو المكث وطول الإقامة دون نشاط فى قصر كافور.

ولأمــسى لأهل البـخل ضـيـفـاً وليس قـرى ســوى مخ النعــام

فهو يكره البخل ويود تحقيق طموحاته التى ضاعت عند كافور.

ولما صـــار ود الناس خـــبّـــاً جـزيت على ابتـسـام بابتـسـام
وصـرت أشك فـيـمن أصطفـيـه لـعـلـمـى أنـه بـعـض الأنـام

فلما صار وتحول الحب غُدراً أخذ المتنبى يبادل الناس غُدراً بغدر فالابتسام هنا ليس حقيقياً إنما هو قناع للغدر وقد صعب على المتنبى أن يتخير صديقاً مخلصاً واحداً لقلة هؤلاء الأصفياء.

وآنــف مــن أخــى لأبــى وأمــى إذا مـــالم أجـــده من الكرام

فهو لايحب إلا الكرم العربى الذى ألفه عند سيف الدولة.

أرى الأجـداد تغلبـهـا كـثـيـراً على الأولاد أخـــلاق اللئـــام

فـهـو يكره أن يصدر عن من يتعامل معهم لؤم وخبث وإن كانوا من أصل كريم.

عــجــبت لمن له قــدٌّ وحــدٌّ وينبــو نبــوة القــضم الكهــام

فهو لم يألف الجبن والتخاذل فهو فارس مقدام وأقام عند فارس قائد عربى أصيل هو سيف الدولة الحمدانى.

٢- تشخيص المرض:

الذى تبين لنا من خلال تحليل معانى القصيدة وأبياتها التى أفصح المتنبى فى

بعضها مما يجعل صدره ضيقاً ممايوحى بأنه مرض بمرض نفسى وليس عضوياً كما ادعى فى عنوان القصيدة

أقـمت بأرض مـصـر فـلا ورائى تخبُّ بى الركـاب ولا أمـامى

فعلّته الحقيقية هى الإقامة بمصر دون نشاط أو حركة قد اعتاد عليهما.

وملنى الفـراش وكـان جنبى يمل لقـاءه فى كل عـام

فالفراش وهو المكان الذى يجد فيه الإنسان راحته أصبح مصدر ألم بالنسبة للمتنبى:

قليل عـائدى سـقم فـؤادى كـثير حاسدى صعب مرامى

فمرضه الحقيقى هو عزلته وسقم فؤاده وليس جسده فهو مريض نفسياً أضف إلى ذلك مالقيه من حسد وبغض لكنّ هذا لايثنى عزيمته فهو يقول فى قوة «صعب مرامى» أى لايطاولنى أحد.

عليل الجـسم ممتنع القـيـام شـديد السكر من غـيـر المدام

فكل هذه المعانى التى أشرنا إليها يقول صراحة فى هذا البيت إنها هى التى جعلته عليلاً ممتنع القيام لايقدر على الحركة كمن أصابه السكر وهو ليس كذلك؛ وبعد هذه الصراحة التى يبدو منها المرض الحقيقى الذى أصاب المتنبى يلجأ إلى التعمية والإلباس وإحداث الغموض فينشئ مقطعاً مكوناً من ثمانية أبيات يبث فيه لوعته وحزنه مدعياً أن به حمى حقيقية فيصفها وصفاً دقيقاً يخدع القارئ وقد اقتبس منه هذه الطريقة الشاعر العربى أبو العلاء المعرى فى ديوانه سقط الزند.

وزائرتى كـأن بهـا حـيـاءً فـليـس تـزور إلا فـى الـظـلام

بذلت لهـا المطارف والحـشـايا فـعـافـتـهـا وباتت فى عظامى

يضـيق الجلد عن نفـسى وعنهـا فـتـوسـعـه بأنواع السـقـام

كأن الصبح يطردها فتجرى ... مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر ... إذا ألقاك فى الكرب العظام
أبنت الدهر عندى كل بنت ... فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحتِ مجرَّحاً لم يبق فيه ... مكان للسيوف ولاالسهام

٣- علاج الحمى الحقيقية: وفى هذه الأبيات يفصح عن سبيل العلاج وهو الرحيل عن قصر كافور فقد ضاق المتنبى بألوان المتاع فى هذا القصر والدعة والراحة إذ لم يكن ذلك مقترناً بالحرية والانطلاق والنشاط وتحقيق الطموحات.

ألا ياليت شعر يدى أتمسى ... تصرف فى عنان أو زمام
وهل أرمى هواى براقصات ... محلاه المقاود باللغام
فربتما شفيت غليل صدرى ... بسير أو قناة أو حسام
وضاقت خطة فخلصت منها ... خلاص الخمر من نسج الفدام
وفارقت الحبيب بلاوداع ... وودعت البلاد بلا سلام

وينشئ المتنبى مقطعاً مكوناً من ستة أبيات يسخر فيه ممن يصفه بأنه مريض وأن داءه فى معدته ويفسر المرض الحقيقى بأنه فارس جواد اعتاد ميادين القتال وليس هناك مايحد من نشاطه وأن هذه الإقامة بمصر كانت فترة ركود أضرت بجسمه ونفسه وعقله. وقد بث المتنبى هذه المعانى ألبسها ثوبا حزيناً يشبه إلى حد كبير أحزان الشعراء الرومانسيين فى العصر الحديث الذين كان يؤدى بهم الحزن إلى الإصابة بالأمراض الصدرية العنيفة - يقول المتنبى:

يقول لى الطبيب أكلت شيئا ... وداؤك فى شرابك والطعام
ومافى طبّه أنى جواد ... أضر بجسمه طول الجمام
تعوّد أن يغبّر فى السرايا ... ويدخل من قتام فى قتام
فأمسك لايطال له فيرعى ... ولاهو فى العليق ولا اللجام
فإن أمرض فما مرض اصطبارى ... وإن أحمم فماحم اعتزامى
وإن أسلم فما أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام

وللمتنبى سمات فى شخصيته لاتتضح فى هذه القصيدة بل يمكننا تلمسها فى أشعار أخرى فهو فارس وشاعر طموح إلى أبعد الحدود، منطلق لاتعوقه عوائق، يهتم بتحقيق المجد فى أى مكان.

ويرى أن وطنه ليس هو الذى ولد فيه أو الذى يعيش فيه مع أهله إنما وطنه الذى يحقق فيه المجد، وكل المعانى التى ذكرناها عن شخصية المتنبى لها شواهد فى هذه القصيدة.

وعلى هذا فإن العمل الواحد الناضج فكراً ونحواً وإبداعاً أى صياغة وتأليفاً يمكن أن يضم جوانب شخصية المنشئ وخصائص أعماله الفنية الأخرى، هذا فى بعض الأحيان مع بعض المنشئين غير أننا لانستطيع أن نعمم هذه الظاهرة.

فبعض الكتاب أو الشعراء لاتتضح ملامح فكرهم وإبداعهم. من خلال عمل واحد بل تحليل الأعمال مجتمعة.

وعلى هذا فإن أفكاراً تمثل مرحلة قطيعة سيف الدولة للمتنبى واتصاله بكافور تدور حولها معانى هذا النص وهى مرحلة تمرد على كل شيء،وتبدو ملامح هذه المرحلة من المعانى التالية المتمثلة فى هذا النص وهى تشخيص المرض عند المتنبى «الحمى المزيفة».وجوانب شخصية المتنبى ومنها الطموح والانطلاق وكره الحبس والسجن والرغبة فى تحقيق المجد والمال ومن هذه المعانى اكتشاف المرض الحقيقى وهو حبس كافور الأخشيدى للمتنبى فى قصره والمتنبى طموح إلى أبعد الحدود وقد شرح هذا السجن بالتفصيل فى قصيدة كاملة يسب فيها كافوراً ومملكته ويذم فيها أصله وبخله، مطلع هذه القصيدة هو:

عيد بأية حال عدت ياعيد … بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم … فليت دونك بيداً دونها بيد

أمسيت أروح مثرٍ خازناً ويداً … أنا الغنى وأموالى المواعيد

أصخرة أنا مالى لاتغيّرنى … هذى المُدام ولاهذى الأغاريد

ومن هذه المعانى الخلاص من هذه الحمى بالرغبة فى الانطلاق.

إذن «الحمى» عنوان رمزى أشار فيه المتنبى إلى فترة إقامته بمصر ومعاناته عند كافور الإخشيدى وفى القصيدة مايكشف زيف هذا العنوان فالمتنبى يعانى عناءاً نفسياً بدليل سخريته من الطبيب حيث يقول:

يقـول لى الطبـيب أكلت شـيـئـاً   وداؤك فى شـــرابك والطعـــام

فهذا أسلوب إنشائى استفهامى الغرض منه الإنكار.

والحقيقة أن حب سيف الدولة القديم تبدو ملامحه فى هذا النص فهو يحن إلى تلك الأيام التى قضاها عنده وهو فى هذا النص يتألم لزوالها فقد سجل المتنبى فى قصائده مآثر سيف الدولة الخالدة ودليل على ذلك قصيدته التى مطلعها.

ليــالىّ بعـــد الظاعنين شكولُ   طوال وليل العـــاشـــقين طويلُ
يبنّ لى البـــدر الذى لا أريده   ويخـــفين بدراً مـــا إليـــه وصــولُ
ومـــاقـبل سـيف الدولة إثّار عـاشق   ولكننى للنائبـــات حـــمــولُ

وهكذا. كان سيف الدولة مثلاً أعلى للمتنبى لكن الأيام لم تبق بينهما الود والصفاء إذ أدت الوشاية بين المتنبى وسيف الدولة إلى أن يطرده من قصره ومملكته بعد أن كان المتنبى هو الشاعر الوحيد الذى يُنشد قصائده أمام سيف الدولة وهو جالس فكان جميع الشعراء ينشدون قياماً. وبعد هذه الجفوة بين المتنبى وسيف الدولة اضطر المتنبى إلى أن يرحل عن حلب إلى مصر وقد أغراه كافور الأخشيدى بتحقيق طموحاته فى أن يجعله أميراً.

وقام المتنبى بإنشاد أشعاره على كافور لكن الأخير لم يحقق له شيئا فضاق صدر المتنبى وأصيب بالحمى النفسية التى تحدث عنها فى هذه القصيدة وقد رغب رغبة أكيدة فى الخلاص من كافور وفى القصيدة من الأبيات مايدل على هذا المعنى إذ يقول:

وضـــاقت خطة فــخلصت منهــا   خــلاص الخـمــر من نسج الفــدام

والمتنبي يعد نفسه هدفاً للدهر ببلاياه ورزاياه ويعد هذه الحمي إحدى هذه البليات فيسميها ابنة الدهر أى أنها من البلايا الكبرى التى مُنى بها فى حياته وقد أصيب بها فى وقت كبر فيه سنه وقعدت همته وأنه أصبح لايملك الرحيل فهو بلبل محبوس فى قصر لايستمتع بما فيه ولايملك التغريد.

والمتنبي يعجب كيف وجدت هذه الحمي طريقها إليه فقد أوسع بألوان جمة من البلايا. ويفصح عن ذلك فى البيت الثانى بأنه مجرّح فلم يبق فى جسده مكان لأى جرح آخر يقول المتنبي:

أبنـت الـدهـر عـنـدى كـل بـنـت   فكيف وصلت أنت من الزحـــام

جـرحتٍ مـجـرّحـا لم يبق فـيـه   مكان للســيــوف ولاالســهــام

وقد أنشأ المتنبي مقطعا يوضح فيه خطته للتخلص من هذا الداء الذى ألمّ به وهو الرحيل عن أرض مصر راكباً راحلته فربما يشفى ذلك غليل صدره، إذن هو ليس مريضا بحمى لكنه مغلول الصدر وفى يديه وقدميه أغلال كافور فهو يُشبّه نفسه بالخمر التى تفور فتتمرد على الغطاء الذى يمسكها داخل الزجاجة.

ألا ياليت شَــعــر يدى أتمسى   تـصــرف فى عنان أو زمـــام

وهل أرمى هواى براقــصـــاتٍ   مـــحــلاه المقــاود باللغــام

فـربتـمـا شـفـيتُ غليل صـدرى   بســيـــر أو قناة أو حُـــســام

وضـــاقت خطة فــخلصت منهــا   خــلاص الخـمــر من نسج الفــدام

وفـــارقتُ الحـــبـيب بلا وداع   وودعتُ البـــلاد بلا ســـلام

ومن تحليل معانى هذا النص نجد أن المتنبي ما كان له أن يصل إلى تحقيق هذه المعانى إلا بأدوات وصنعة؛ هذه الأدوات تتمثل فى المفردات والصيغ والأدوات التى أتاحتها اللغة أما الصنعة فتتمثل فى اختيار الأدواتِ وتأليف المفردات معاً وربطها بأدوات بحيث تؤدى الدلالات المقصودة أضف إلى ذلك إمكانات تصرفه

فى أدوات صنعته بالتقديم والتأخير والذكر والحذف وإعادة المعنى بمركبات أخرى لملء حشو البيت وأداء معنيين مختلفين باستخدام تركيبين متماثلى التأليف، والحذف والاستعاضة عن مكون تركيبى بمكون آخر قد يقل فى عدد حروفه وحركاته أو يزيد وفقاً للبناء العروضى المتاح كما أشرنا لذلك فى بداية تحليل هذا النص، وما كان يمكن لنا الكشف فى يسر عن هذه الخصائص وتلك الإمكانات إلا من خلال هذه الوسائل التى أتاحها نظام اللغة للمتنبى وتلك القواعد التى رصدها النحاة واللغويون وسجلوها لنا من خلال نصوص سبقت نصوص المتنبى.

ومن هذه الأدوات «ذى – هذا» التى استخدمها المتنبى للإشارة إلى الفلاة وإلى الهجير ويقصد حر الهجير فحذف المضاف واكتفى بالمضاف إليه لوضوح المعنى من تركيب البيت السابق على هذا البيت:

ذرانى والفلاة بلا دليل ووجهى والهجير بلا لثام

فإنى أستريح بذى وهذا وأتعب بالإناخة والمقام

غير أنه فى المصراع الثانى من البيت لم يستخدم الإشارة بل ذكر المفردين لفظاً لأنه لم يسبق ذكرهما «الإناخة والمقام» وبين اللفظين علاقة ترادف بغض النظر عن الفروق الدلالية بينهما، وبين المصراعين علاقة تقابل تتضح علاقة الضدية فيهما بين الفعلين «أستريح – أتعب» وهناك تماثل فى التأليف بين المصراعين تتضح فى صيغة الفعلين المضارعين وعلاقة العطف بين المفردات واتحاد الفعلين فى اصطحاب حرف جر واحد ومن تناسب التأليف مع الإيقاع إيراد مركب الشرط «إن حرت» احترازاً بين المبتدأ وخبره والأصل «عيون رواحلى عينى».

عيون رواحلى إن حرت عينى وكل بغام رازحة بغامى

ومن ذلك قلب التركيب بحيث ترد الجملة «يذم لمهجتى ربى وسيفى» سابقة على «إذا» تخلصاً من الرابط.

يذم لمهجتي ربي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذمام

يقول: إذا احتاج غيرى إلى ذمة تحميه عند انفراده فإنى أكون فى ذمة الله وذمة سيفى يعنى أنه لايصحب فى سفره أحداً ليأتنس بصحبته، وهذا التقديم لمناسبة الإيقاع، والتوافق مع الوحدات الزمنية للبنية العروضية لم يرصد اعتماداً على آراء النحاة فى هذه الظاهرة بل من مقارنة التراكيب الواردة فى النص ذاته لكشف تصرف الشاعر فى لغة النص وتجاوزاته وهذا ماسنعرض له عرضاً مفصلاً فى تحليل رسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وقومه حين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوه فى الكتب، أما إيراد التركيب دون تصرف فيتضح فى قول المتنبى:

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام

يريد: لما صار ود الناس مخادعة يبشون بوجوهم؛ وقلوبهم مطوية على المكر جاريتهم على أخلاقهم فابتسمت إليهم كما يتبسمون إليّ.

وأورد مصدر الفعل «أحب» بدلاً من تكرار الفعل «يحب» فى المصراع الثانى من البيت على وزن «فُعْل» وذلك للاستعاضة عن حرف المضارعة برابط هو حرف العطف الواو إذ بين مصراعى البيت تقابل فى المعنى يتضح من «العاقلون – الجاهلين» و «التصافى – الوسام» وهناك تماثل فى التأليف يتضح فى اختيار الفعل ومصدره أساساً لجملتى المصراعين «يحب – حب» وكذا حرف الجر المشترك بين الفعل والمصدر «على» فالعاقل إنما يحب من يحبه لأجل تصافى الود بينهما والحب لأجل جمال الصورة شأن الجُهّال لأنه ليس كل جميل المنظر أهلا للمودة:

يحب العاقلون على التصافى وحب الجاهلين على الوسام
وآنف من أخى لأبى وأمى إذا مالم أجده من الكرام

واستعاض عن لفظة «شقيقى» بـ«لأبى وأمى» والمعنى المراد يمكن أن يودى

بلفظة ﴿أخي﴾، لكن إضافة «لأبى وأمى» تستخدم للتأثير على المستمع لإيضاح مدى أنفة الشاعر واستنكافه ممن ليس بكريم، وله أى للشاعر وسيلة أخرى فى إحداث الأثر المراد فى المستمع وهو عطف لفظ مساوٍ للفظ آخر فى الوزن ونوع الصامت كحرف الدال والتنوين فى قوله «قدٌّ وحدٌّ» ليتضح المعنى من المفارقة بين «قد وحد» وبين «وينبو نبوة القضم الكهام» فى:

عجبت لمن له قد وحد   وينبو نبوة القضم الكهام

فالقد القامة والحد البأس يقوم: عجبت ممن توفرت فيه قوة الشباب وبأسه فإذا عرض له أمر نبا عنه كما ينبو السيف الكليل.

ومن تناسب التراكيب مع البنية العروضية أن يمتد عمل الفعل «عجبت» إلى البنية العروضية التالية للبيت الذى ورد فيه الفعل.

ومن يجد الطريق إلى المعالى   فلايذر المطىَّ بلاسنام

«من» معطوف على «من» فى البيت السابق أى وعجب ممن وجد الطريق المؤدية إلى المعالى فلم يبادر إلى قطعها حتى يذيب أسنمة الإبل بإدمان السير والتعب يشير بهذا البيت والسابق عليه إلى نفسه ويعرض بالرحيل عن مصر.

والمألوف عنده فى هذا النص عطف المتلازمين سواء أكانا مترادفين أم متضادين «الإناخة والمقام – أبى وأمى – قد وحد» غير أن حرف الروى ومجراه يؤثران على طريقة التأليف فالوراء والأمام متضادان فصلت بينهما الجملة «تخب بى الركاب» تستقر «ولا أمامى» فى نهاية البيت:

أقمت بأرض مصر فلا ورائى   تخب بى الركاب ولا أمامى

وقد يكون كسر العلاقة العرفية بين المسند والمسند إليه واقعاً بين الرغبة فى صنع ألوان بلاغية وبين التناسب فى التأليف والإيقاع ففى قوله «ملنى الفراش» عدم تناسب بين المسند والمسند إليه فقد أسند إلى الفراش مالايتناسب معه بل يتناسب مع الأحياء فى قوله:

وملني الفـــــراش وكـــــان جنبي   يمل لقـــــاءه في كل عــــام

يريد أنه طال مرضه حتى مله الفراش بعد أن كان هو يمل الفراش ولو لقيه مرة واحدة فى العام لأنه كان متواصل الأسفار.

ولتقديم الخبر النكرة خصيصة تركيبية بحيث تجعل هناك مساواة بين الجمل تتناسب مع الإيقاع وتتوزع معه توزيعاً عادلاً أضف ذلك إلى أنها تتيح للشاعر الاستفادة من إمكانية إفراد «كثير - قليل» فى قوله «قليل عائدى - كثر حاسدى» والمراد حسّادى كثيرون وعوّادى قليلون بما لايخرج على قوانين اللغة واستعمالاتها كما أن ذلك أتاح للشاعر الاستغناء عن الضمير «أنا» فى كل جملة اسمية بإضافة المبتدأ المؤخر إلى ضمير المتكلم.

يقول أنا غريب بها لايعودنى إلا القليل من الناس وفؤادى سقيم لتراكم الهموم عليه وحسادى كثير لوفور فضلى ومرامى صعب لأنى أطلب الملك، وقد أتاحت الخصائص التركيبية السابقة لوناً من تناسب الإيقاع وتساوى المركبات فى البيت التالى بالاستغناء عن المبتدأ وإيراد ثلاثة أخبار على هيئة مركبات إضافية ﴿عليل الجسم - ممتنع القيام - شديد السكر﴾ فى:

عليل الجســـم ممتنع القـــيـــام   شـــديد السكر من غـــيـــر المدام

والحقيقة أن «عليل الجسم» تساوى فى معناها «ممتنع القيام» والمركبان معاً توازى دلالتهما دلالة المصراع الثانى «شديد السكر من غير المدام» أى عاجز عن الحركة والنشاط من الهموم.

ووظف الشاعر «وزائرتى» توظيفاً دقيقاً للتهويل من أثرها وقد رشّح هذا التهويل بقوله ﴿تزور فى الظلام﴾ ولفظة زائرتى فيها إبهام متعمد وإيهام وهى معرفة بالإضافة نحوياً لكنها مبهمة دلالياً.

وزائرتى كـــأن بهـــا حـــيـــاءاً   فـــليـــس تـــزور إلا فـــى الـــظـــلام

وفى الاستعمال العربى تعابير مسكوكة أو جاهزة يستعيرها الشعراء مثل ﴿لله در فلان﴾ و ﴿ياليت شعرى﴾ أى ليت لى علم أو ليتنى أعلم وقد تصرّف المتنبى

فى هذا التعبير فلم يضفْه إلى نفسه وأضافه إلى يده فى قوله:

ألا ياليت شـعـر يدى أتمسى تصـرف فى عنان أو زمـام

يقال ليت شعرى ماصنع فلان أى ليتنى أشعر وخبر ليت محذوف أى ليت شعرى واقع ونحوه، يقول ليت يدى تعلم هذا تتصرف بعد هذا فى عنان فرس أو زمام ناقة. وأضاف الشعر إلى اليد مجازاً والمعنى ليتنى أعلم هل أتعافى فأسافر على الخيل والإبل.

وتشترك القوالب الفنية من مستويات اللغة المختلفة فى حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه قصداً للمبالغة أو توفير الجهد فى اللغة العادية ولغة النثر لكنها فى لغة الشعر للتناسب مع بنية البيت وكمه وقد تكون المستويات الأخرى قد استعارت هذه الخصيصة من مستوى لغة الشعر دون أن يدرى مستخدموها أنها خصيصة توظَف من أجل النظم استعمل المتنبى «راقصات» ويقصد الإبل.

وهل أرمى هواى براقـصـات محـلاة المقـاود باللغـام

فالرقص ضرب من الخبب أى بإبل راقصة أى وهل أقصد ما أهواه من المطالب بإبل قد جمد الزبد على مقاودها فصار عليها مثل الحلى الفضية.

واستخدمت «أل» فى «الحبيب» لتدل على «كل من أحببت» واستخدمت أيضاً فى «الطعام» لتدل على «طعامك» خصوصاً أنها معطوفة على «شرابك» وذلك من أجل حرف الروى ومجراه والقافية.

وفـارقت الحـبـيب بلا وداع وودعت البـلاد بلا سـلام

يقـول لى الطبـيب أكلت شيئـاً وداؤك فى شـرابك والطعـام

وأنا شديد الصبر قوى العزيمة وهما جملتان اسميتان خبريتان صاغهما المتنبى إبداعاً فى تركيبين متماثلين فى التأليف، متوازيين فى المعنى.

فإن أمرض فما مرض اصطبارى وإن أحـمُم فمـاحم اعتـزامى

الباب الثالث

(بين الجاحظ وسهل بن هارون)

الفصل الأول
تحليل النص

مستوى لغة النثر الفنى (رسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وقومه)
هذا النص الذى نحلله من كتاب البخلاء للجاحظ ومعنى هذا أن الجاحظ سيعرض علينا نماذج للبخل والبخلاء فى الأقاليم المختلفة - هذه واحدة والثانية أن هذه النصوص التى حواها كتاب البخلاء هى من تأليف الجاحظ ولكن تصادفنا مشكلتان - الأولى أن هذا النص اسمه رسالة سهل بن هارون ومعنى ذلك أن الذى كتبها هو سهل بن هارون ويدافع فيها عن نفسه حين أُتهم بالبخل والحقيقة أن سهل بن هارون ليس شخصية عادية إنما هو كاتب وربما كان يحظى بمكانة أدبية تفوق مكانة الجاحظ حتى إن الجاحظ فى بداية حياته الأدبية كان يكتب ويوقع باسم سهل بن هارون حتى تحظى كتاباته برواج لدى القراء،وبهذا تتضح المشكلتان اللتان تتعلقان بنسبة النص إلى أيهما !! ألسهل هو أم للجاحظ؟ والنقطة الثانية هى أيعدّ هذا النص وسيلة ضد سهل بن هارون بحيث نعده بخيلاً أم أنها تدافع عن تصرفات سهل بالحجج والبراهين لتجعله يخرج عن دائرة البخلاء؟ وهذا غير موافق لعنوان الكتاب فالأصل أن يعرض الكتاب لنوادر البخلاء. وهذا النص المدروس يقع داخل كتاب البخلاء وهناك معضلة ثالثة وهى ما اقتبس فى هذه الرسالة من أقوال الحكماء والخلفاء والرسول عليه الصلاة والسلام بنصها - وما اقتبس وليس بنصه أى تصرف فيه الكاتب.

إذا ما الحل للتثبت من نسبة هذا النص؟ وهل هو يوقع فى البخل أم يخرج عنه، ومسألة التصرف فى النصوص المختلفة.

الحقيقة أنه لحل هذه المسائل لابد من تحليل معانى النص وجمله وأفكاره وأساليبه فإنه إذا كانت موافقاً لأسلوب الجاحظ المعتاد - إذاً فالرسالة له لكنه يستخدم حيلاً فنية أدبية فهو ينسب النص لسهل كما يبدو فى مظهر المدافع ليبرئه

من البخل) وهو فى الحقيقة يعرض لصور تجعل القارىء نفسه هو الذى يحكم بالبخل فلا يتهم بنفسه سهلاً بالبخل وهذه الحيل الفنية غالباً مايتبعها الأدباء تخلصاً من المسئولية ولقد لاحظنا شيئاً من هذا فى الرمز الذى استخدمه المتنبى عنواناً لقصيدته وهو الحمى وعند تحليل معانى القصيدة لم نجد هناك مرضاً عضوياً ولكن كانت هناك أشياء أخرى بيناها فى تحليل القصيدة ويلوح لنا حلٌ لهذه المعضلات من العنوان فالجاحظ لم يقل ذموا تصرفاته ولكن قال (ذموا مذهبه فى البخل) فكأنه يلمح من طرف خفىّ أن سهلا يعد بخيلاً - ليس ذلك فحسب بل إن له في البخل مذهباً وسنتبع الخصائص الفنية للرسالة حتى نؤكد نسبة الرسالة ونحلل الأساليب المتبعة فيها.

الخصيصة الأولى: فى هذا النص هى الافتتاحية الدعائية (أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وجعلكم من أهله)[1] هذه الافتتاحية الدعائية يدل ظاهرها على أنها موجهة لمحمد بن زياد وقومه ولكنها موجهة إلى القراء وهذا أسلوب عادة مايستخدمه الجاحظ فى كتاباته ويبدو أنها ضرورة فنية كان يتبعها الكتّاب فى ذلك الوقت وهى تشبه فى الشعر المقدمة الطللية أى الوقوف على الأطلال وبكائها وهى فى هذا النص ضرورة الافتتاحية الدعائية) وذلك لأن الخطاب من الناحية الفنية موجه إلى قوم لايوافقون الكاتب فى الرأى وهو يريد إقناعهم بمذهبه فلابد أن يبدأ بمقدمة رقيقة تؤثر فى السامع حتي يتمكن من إلقاء أفكاره لتستقر فى عقولهم دون تدقيق أو تمحيص.

الخصيصة الثانية: هى البسط وفيها يطرح الكاتب مقدمة للإقناع يقول الكاتب (وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمّة فتأمل عيّاباً، فإنه إنما يعيب بفضل مافيه من العيب وأول العيب أن تعيب ماليس بعيب)، وفى هذه الجمل حيلة فنية فهو يذم بأسلوب غير مباشر العيّابين وهو يقصد آل زياد الذين يذمون مذهب البخل فهو يقصد من وراء هذه المقولة أن سهلاً ليس أهلاً للذم

---

(١) البخلاء - الجاحظ - ص٩ تحقيق د/ طه الحاجزى.

وإنما أهل الذم هم الذين يعيبون عليه مسلكه الاقتصادى فى الحياة وهو يردد هذه المقولة مجردة من الأشخاص ومن الزمان ومن المكان أى أنها مقولة عامة وكأنها مُسلمة أو قانون غير قابل للبحث فتثير فى القارىء أو السامع أن محمد بن زياد وآله هم أهل العيب وإنما يعيبون لكثرة عيوبهم.

الخصيصة الثالثة: الإقناع المنطقى وسوق الحجج والبراهين (وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم) وهو بهذه المقولة يضع الثقة فى مستعمه أو قارىء كلماته فيقنعهم بأن فيهم عيباً وإنما أراد بمقولته هذه إصلاح هذا العيب.

الخصيصة الرابعة: هى الاحتراز أى الاحتراس فى التعبير وذلك باستخدام أسلوب الشرط كما فى قوله (**ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية**) وفى هذه الجملة ترشيح للفكرة السابقة أى توثيق لها وتأييد بأنه إنما يريد بما سوف يلى من أفكاره إصلاح أمرهم ولم يستخدم لذلك جملة خبرية كأن يقول «إنما أريد صلاح أمركم» بل استخدم أسلوباً شرطيا بقوله (ولئن أخطأنا - فما أخطأنا) والأساليب الإنشائية أكثر تأثيراً فى القارىء لأنها تخاطبه دون أن تقرر عليه حكماً أضف إلى ذلك تكرار التوكيد والترشيح مع التنويع فى الأساليب ومن ذلك قوله (ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم وشهرنا به فى الآفاق دونكم) فهذا الأسلوب الهدف منه الإقناع بما سوف يأتى من تفضيل وهو فى الوقت نفسه ترشيح لما سبق وهو يسلك فى هذا مسلك الدعاة، فالإنسان يدعو لنفسه بما يدعو به للناس فنقول مثلاً اللهم عافنا وعافكم - أضف ذلك إلى الخصيصة الإيقاعية فى قوله (بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم وشهرنا به فى الآفاق دونكم) وهناك حيلة فنية أسلوبية فى قوله عند مخاطبتهم (**قد تعلمون**) فهذا الأسلوب للتقليل والتشكيك فى معرفتهم وعند حديثه عن نفسه قال (قد اخترناه لأنفسنا) وهذا الأسلوب فيه تحقيق وتأكيد وذلك

بتغيير صيغة الفعل وبنائه ليدل فى ظاهره على تغيير الزمن من مضارع إلى ماض لكنه فى الحقيقة يهدف إلى التشكيك فى الفعل المسند إليهم باستخدام صيغة المضارع مع (قد) وتحقيق الفعل لنفسه باستخدام صيغة الماضى.

الخصيصة الخامسة: هى تأييد المعنى والرغبة فى إقراره بتكرار الفكرة مع تنوع الأسلوب - يقول الكاتب (ولو كان ذكر العيوب براً وفضلاً، لرأينا أن فى أنفسنا عن ذلك شغلا) فهذا أسلوب إنشائى وهو شرط فيه لو الامتناعية فذكر العيوب ليس فضلاً ولا برّا ولو كان ذكر العيوب فيه فضل فلن يهتم الكاتب بأن يحظى بهذا الفضل فهو ينزه عن ذلك، ونلحظ دقة استعمال الأسلوب فى قوله (لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شغلاً) فالانشغال عن الشىء معناه الرفض والانشغال بالشىء معناه الاهتمام وكان الكاتب قد ذكر هذا المعنى فى بداية الرسالة حين قال:

(إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عياباً، فإنه إنما يعيب بفضل مافيه من العيب وأول العيب أن تعيب ماليس بعيب).

الخصيصة السادسة: التحليل ويسوق فيها الكاتب نماذج من تصرفاته ومسالكه فى حياته المعيشية كان قد صنع لها مقدمة ساق فيها الحجج والبراهين وخاطب فيها العقل والمنطق واستشهد فيها بمقولات ونوّع فيها الأساليب ودقق فى اختيار العبارة وهو الآن يعرض لمسألة العجين وهى عادة تحدث فى كل منزل وليست قضية يتحدث بها فى الكتب لكنه يحتشد لها احتشادا كاملاً بذكر مايقابلها عند أحد الخلفاء وهو عمر بن الخطاب ثم يبرر صنيعه هذا مع خادمته بأنه إنما هو مسلك ومنهج يسلكه فى الرخيص والبسيط من الأمور كما يسلكه فى الغالى والعظيم من الأمور مما يجعل قضيته مقبولة لدى القارىء أو المستمع يقول الكاتب (عبتمونى بقولى لخادمتى أجيدى عجنه خميراً كما أجدته فطيراً، ليكون أطيب لطعمه وأزيد فى ريعه. وقد قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ورحمه لأهله: املكوا العجين فإنه أريع الطحينين.

وعبتم علىّ قولى: من لم يتعرف مواقع السرف فى الموجود الرخيص، لم يعرف الاقتصاد فى الممتنع الغالى.

والحقيقة أن رسول ﷺ كان قد أمر أحد الصحابة بأن يزيد فى الأدم أى يزيد الماء مع اللحم حتى يستفيد جيرانه من هذا الحساء إن لم يكن عندهم لحم، ومن هنا نرى صدق مقولة الكاتب ولكن مايجعلنا نحكم على مقولاته بأنها من الحيل الفنية، ذلك التوظيف لهذه المقولات فيما يخدم قضيته بالرغم من اختلال قضيته عن المقام الذى قال فيه الرسول هذه المقولة، فالرسول قالها ليتفضل المسلم على أخيه المسلم بما عنده أى أن المسألة تتعلق بالكرم والإحسان لكن الكاتب يأمر خادمته بأن تزيد الحساء لينتفع هو به حتى لايشترى لحماً مرة أخرى، فإذا أراد طعم اللحم شرب من الحساء ليجد فيه ذلك الطعم؛ وهذا يجعل القارىء المتأمل المحلل يحكم عليه بالبخل، أضف إلى ذلك أن ثقافة الكاتب تعد موسوعية والمعروف بهذه الثقافة الموسوعية هو الجاحظ الذى تنوعت قراءاته فشملت معارف عدة وعلوماً كثيرة كانت قد ظهرت فى عصره، ذلك أن الجاحظ كان يدخل محلات الوراقين فيبيت فيها حتى يفرغ من قراءة كل مافيها ثم يغادرها إلى وراق آخر.

وهذا التحليل الذى حللناه يجعلنا نشك فى أن الجاحظ هو منشىء هذا العمل الفنى وأنه أراد أن يعرض صوراً ونماذج يبدو فى ظاهرها أنها دفاع عن سهل بن هارون ومسلكه فى الحياة وأنها من جهة أخرى لوم وتقريع لمحمد بن زياد وقومه – لكنها فى الحقيقة تعريض بشح سهل بن هارون وبخله يصل إليه القارىء بسهولة.

الخصيصة السابعة: التحايل الفنى باتخاذ أمور لاجدال فيها من الفرائض لتقرير سلوكية من سلوكياته، ذلك أن الوضوء مطلب لاجدال فيه بالنسبة للمصلى المسلم فيتخذ الكاتب منه حيلة للإقرار بالاقتصاد فى صب الماء على أعضاء الجسد الداخلة فى الوضوء فإذا أسرف فى إسباغ الماء على الأعضاء فلن يكفى الماء حاجة الأعضاء وبذا لايتم الوضوء ولاتصح الصلاة، وهنا يضطر القارىء أو السامع إلى إقرار ما أقره الكاتب لأن المسألة تدخل فى فرض واجب وهو الصلاة لكننا لو تعمقنا المسألة فسنجد أن الكاتب يقر مبدأ منافياً لما أمر به الرسول وهو

إسباغ الوضوء - يقول الكاتب (**فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيله يدل حجمها على مبلغ الكفاية وأشف من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلاً على الماء، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله ورغبت عن التهاون به في ابتدائه، لخرج آخره على كفاية أوله، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر**) ولم يعتمد الكاتب على الفكر وحده في تقرير مايريد أن يقر من أمور بل هو يوظف اللغة توظيفا دقيقاً فمجموعة التراكيب السابقة تشكل قصة قصيرة وذلك لأنها تصور لقطة واحدة أو مشهداً واحداً هو لحظة الوضوء واللغة فيه موجزة والجمل قصيرة والأحداث متتابعة والقصة خالية من الجمل الاعتراضية أو الإطناب أو التكرار - ففي وصف الكيلة يستخدم الجملة.

(**يدل حجمها على مبلغ الكفاية**)، أي تكفي لحاجة الوضوء، (**وأشف من الكفاية**) أي تزيد على حاجة الوضوء - ويلجأ إلى اختصار ذكر المفردات بالاستعاضة عنها بالضمائر «فأجزائه» أي أجزاء الماء وعوض بالضمير عن الماء وقال «الأعضاء» ويريد أعضاء الجسم الداخلة في الوضوء واستعاض عن كلمة الجسم باستخدام الألف واللام وتسمى أل العهدية بمعنى الأعضاء المعهود أن تغسل في الوضوء و«عليها» أي على الأعضاء «أوائله» أي أوائل الوضوء أو أوائل الماء إذ يصح الاثنان «ابتدائه» أي ابتداء الوضوء أو الماء أيضاً «آخره - أوله» أي الماء وفي كلمة «نصيب الآخر» يقصد العضو الآخر وهذه الظاهرة تسمى حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه وهي شائعة في الشعر العربي من أجل الحذف والاختصار وهي موجودة في قول الله تعالى (منه آيات محكمات وأخر متشابهات) أي آيات أخر متشابهات - وهذا النوع من الحذف إنما يتم عند ذكر المفردة المحذوفة في جملة سابقة - وهناك وسائل فنية أخرى استعملها الكاتب في نسج قصته ومنها الاستعارة في قوله (**أن لو كنت مكنت الاقتصاد**) أي جعلت الاقتصاد يسيطر على الإسراف فقد جعل للاقتصاد مُكنة كما هي للانسان بحيث يسيطر على سلوكه، والوسيلة الفنية الثانية هي السجع بين الجمل بحيث ترد كل

كلمة فى نهاية جملة مساوية لآخر كلمة فى الجملة التالية إضافة إلى تساوى أواخر الجمل «فما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء».

«وجدت فى الأعضاء فضلاً على الماء» ولجأ الكاتب إلى ذكر لفظة «عبتم علىّ» قبل ذكر تفاصيل القصة وذكرها بصياغة أخرى بعد نسج تفاصيل القصة فقال «عبتمونى بذلك» والمقصود من كلمة (ذلك) أى ذلك الأمر الذى لايستحق العيب والهدف من ذكرها بعد نهاية القصة تخيل الكاتب أن القارىء أو المستمع قد اقتنع بما أراد هو أضف ذلك إلى الإتيان بمرادفات لكلمة العيب وهو التشنيع والتقبيح وهذه المرادفات تجعل القارىء يتعاطف معه وينفر من هذه الألفاظ فيتناسى مسألة البخل فى الماء أضف ذلك إلى ماسبق أن ذكره فى بداية الرسالة حين قال (إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيابا فإنما يعيب بفضل مافيه من العيب) فإذا عابوا عليه تصرفاته فهم أولى بالعيب وإذا شنعوا عليه فهم أولى بالتشنيع وإذا قبحوه فهم أهل القبح وأولى به.

كل هذه المعانى والدلالات لم يذكرها الكاتب صراحة إنما هى معانٍ مستترة وإيحاءات محسوسة يدركها القارىء الفطن من خلال الجمل القصيرة ذات الظلال والدلالات العميقة وهذا مايعرف بلغة الفن ففيها تلميح دون التصريح وفيها التورية والكناية قصداً للإيجاز مع المبالغة.

والحقيقة أن الكاتب اعتمد فى إقناعه على أحداث القصة ذاتها وتفاصيلها والمؤثرات الفنية والحيل فى الذهاب إلى مايقول به هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه يعقب على القصة بقول مأثور عن الحسن البصرى الذى هو أستاذ أحد أقطاب المعتزلة وله فكر عميق فى الدين والحياة يستشهد بقوله فى ترشيح وتأييد ماذهب إليه قائلا (**قال الحسن عند ذكر السرف: إنه ليكون فى الماعونين: الماء والكلأ. فلم يرض بذلك فى الماء،حتى أردفه بالكلأ**) فهناك توظيف لهذا القول المأثور لأن هذا القول يعد وثيقة يستشهد بها الكاتب لخدمة قضيته لكنه توظيف

فيه حيلة ومغالطة، ذلك لأن الحسن البصرى قال هذا القول فى مقام يختلف عن مقام هذه القصة - فالقصة تتحدث عن الوضوء وإسباغه واجب - لكن الحسن البصرى قال مقولته فى مقام إسراف حقيقى والتبذير من عمل الشيطان خصوصاً فى الماء والرزق فهما عماد حياة الإنسان ولاتقوم إلا بهما.

واختار الكاتب لتدعيم قضيته نصاً مميزاً للحسن البصرى اقترنت أهمية الماء فيه بأهمية الطعام وذلك تدعيما لما يريد أن يلفت النظر لأهميته وهو الماء الذى يتحدث عنه وعن قيمة المحافظة عليه وعدم السرف فيه، وقد يكون الحسن البصرى أراد ماء الشرب لأنه قرنه بالطعام لكن قضية الكاتب هى الماء المستعمل فى الوضوء، ومن هنا يتبين لنا المفارقة بين القضية التى تشغل الكاتب وبين النص الذى يريد أن يتخذه وثيقة لتدعيم مايقول ولإقناع المستمع بها وقد علق الكاتب بأسلوبه عقب المقولة فقال: (**فلم يرض بذلك فى الماء حتى أردفه بالكلأ**).

وفى قصة أخرى يوجه الكاتب نقده لمن عابه بالختم على فاكهة ثمينة ورطبة غريبة أى فاكهة نادرة والكاتب يستخدم أسلوب التضخيم فى عرض قضيته فيقول (عبتمونى حين ختمت على سد عظيم) فيفصّل هذا بأنه فاكهة عظيمة ورطبة غريبة.

ومسألة ذكر الفاكهة والرطب بعد كلمة سد عظيم تحدث مصادمة عند المستمع فالمستمع يظن أن السد العظيم هو سر من أسرار الدولة قد ختم عليه لكنه فى الحقيقة طعام يطعمه جميع الناس، ولفطنة الكاتب ذكر المبرر لذلك وهو الحرص من عبدٍ نهم أو صبى جشع أو أمة لكعاء وكل هذا يمكن أن يصدقه المستمع فيه لكنه حين يذكر الزوجة الخرقاء أى المسرفة حينئذ تفقد قضيته أهميتها بل صدقها فالزوجة مهما طعمت فلن تأكل الإما يسد حاجتها.

والحقيقة أن الكاتب حين ذكر الزوجة الخرقاء - لم تكن قضيته ناجحة ذلك أن من واجبات الزوج أن يوفر كل مايحتاجه بيته وإن كان هناك حرص من العبيد والإماء لئلا يسيئوا استعمال مافى بيت سيدهم فيفسدوا عليه حياته أما الزوجة فلا

- لذا لجأ الكاتب إلى إعادة تضخيم الأمور مما لاعلاقة له بحياة المنزل والتصرف فيه لكن المؤلف حريص على أن يبدو مسلكه أو مسلك سهل بن هارون فى صورة منهج للحياة وأن الرجال من القادة والسادة والحكماء والعقلاء إنما يصيرون عظاماً هكذا بفضل مانشئوا عليه من التدبير والحكمة فى حياتهم الخاصة فيكونون قادرين على تدبير أمور القول والدولة. (وليس من أصل الأدب ولافى ترتيب الحكم ولافى عادات القادة ولافى تدبير السادة أن يستوى فى نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لاتستوى مواضعهم فى المجلس ومواقع أسمائهم فى العنوانات ومايستقبلون من التحيات) وركز الكاتب فى هذا التتابع الجملى والمركبات المتسلسلة على أن يفيد المتسلسل الواحد منها معنىً واحداً أو مركباً واحداً مثل (وليس من أصل الأدب ولافى ترتيب الحكم ولافى عادات القادة وفى تدبير السادة) فكل مركب من هذه المركبات هو مضاف ومضاف إليه وكان من الممكن أن يحل مركب واحد محل هذه المركبات اللغوية الأربعة كأن يقول (ليس من الطبيعى أو ليس من الأصول) وهكذا ومثله المتتابعة اللغوية التالية (نفيس المأكول وغريب المشروب - ثمين الملبوس وخطير المركوب).

غير أن الكاتب بما تكون لديه من خبرة لغوية وامتلاك لناصية اللغة والتصرف فى مفرداتها وتراكيبها لجأ إلى تكرار المعنى الواحد بمركبات تختلف فى تأليفها عن النمط السابق بصنع أنماط تركيبية جديدة فاستعاض عن الإضافة بحروف جر فبدت المركبات الجديدة وهى على هيئة مفرد وشبه جملة وقد أحدث هذا تنويعاً للبعد عن إصابة القارىء بالملل من تكرار المركبات المتماثلة فى التأليف والمعنى (الناعم من كل فن واللبـاب من لكل شكل). وفى هذا إلحـاح على الفكرة لإقرارها ومثله الفاعل للفاعل بمستوى السابق حيث ورد على هيئة مركبين متعاطفين متماثلين فى التأليف يتشكل كل واحد منهما من اسم فاعل واسم مفعول (التابع والمتبوع والسيد والمسود) والتركيب (يستوى فى نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب، والناعم من كل فن واللباب من

كل شكل التابع والمتبوعُ والسيدُ والمسودُ) أصله جملة فعلية بسيطة يمكن أن تكون (لايستوى التابع والمتبوع في المسلك) لكن هناك فصلاً بين الفعل يستوى والفاعل الذى لم يرد مفرداً (التابع والمتبوعُ والسيدُ والمسودُ) بعدد من المركبات هى (فى نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللُّباب من كل شكل) وهذا اللون من التأليف يحدث تعمية ولبساً وتعقيداً خصوصاً أن المركبات الفاصلة بين الفعل والفاعل وإن تعلقت بالفعل لأنها أشباه جمل لم تكن جملاً اعتراضية قد أخذت هذه المركبات نمطين فى التأليف؛ الأول (نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب) والثانى (والناعم من كل فن واللُّباب من كل شكل) هذا التتابع والتنويع فى تأليف المركبات وبناء الصيغ قبل أن يرد الفعل وهذا أُسمّيه تخديراً لفظياً للقارىء أو المستمع وهو أيضاً من الحيل الفنية فضلاً عن أنه يعد غموضاً لولا وجود العلامة وهى الضمة على (التابع) لتحدد وظيفتها النحوية ومن ثم دلالاتها.

وهناك بناء داخلى فى هذه القصة يشترك مع أغلب القصص فى تماثل تأليف الجمل والمركبات وبناء الصيغ وهناك خصوصية فى هذه القصة وهى استعمال النعت استعمالاً خاصاً فى الموقع والتركيب بحيث يقدم أصل النعت على المنعوت فتحدث خصيصة تركيبية خاصة وهى أن يرد منكّراً فإذا أُعيد ترتيب المركب تقدم المنعوت وعرف النعت. مثل (أصل الأدب) واعادة ترتيبها (الأدب الأصيل) و (ترتيب الحكم) وإعادة ترتيبها (الحكم المرتبة) و(نفيس المأكول) وإعادة ترتيبها (المأكول النفيس) و(غريب المشروب)، وإعادة ترتيبها (المشروب الغريب) و(ثمين الملبوس) وإعادة ترتيبها (الملبوس الثمين)و(خطير المركوب) وإعادة ترتيبها (المركوب الخطير) وهناك تنويع فى قوله (الناعم من كل فن) وأصله (وكل فن ناعم) أى أصيل و(اللباب من كل شكل) وأصله (وكل شكل خالص).

والحقيقة أن ما نذهب إليه فى هذا التحليل ومالجأ الكاتب إلى استعماله ليس أصلاً فى الاستعمال وأنه أمر طبيعى بل استعمله الكاتب نفسه للنعت فى

بداية القصة وفى نهايتها يؤكد أنه يستخدم التأليف والبناء وسائل أسلوبية وحيلاً لغوية تدخل فى إطار إقناع القارىء أو المستمع ، ففى بداية القصة يقول (وعبتمونى حين ختمت على سد عظيم وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة ومن رطبة غريبة على عبدٍ نهم وصبى جشع وأمه لكعاء وزوجة خرقاء) فمركب النعت هنا يأخذ الترتيب الطبيعى ومن ثم يرد النعت والمنعوت منكرين (سد عظيم) و(شىء ثمين) و(فاكهة نفيسة)و(رطبة غريبة) و(عبدٍ نهم) و(صبى جشع) و(أمة لكعاء)، و(زوجة خرقاء) ومثله قوله فى نهاية القصة (وختم على كيس فارغ) وأورد أيضا فى نهاية القصة هذا النمط من النعت والمنعوت لكنهما وردا معرفين فى قوله (من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن وأعلف حماره السمسم المقشر) والمركبان هما (الدجاج المسمن) و(السمسم المقشر) والمركبان متماثلان لإحداث إيقاع ذلك أن بناءهما واحد فالمنعوت اسم جنس (الدجاج - السمسم) والنعت ورد بصيغة اسم المفعول من غير الثلاثى (المسمن - المقشر) وهذا ممايدخل فى إطار التخدير اللفظى، والحقيقة أن هذه الوسيلة فى كشف الاستعمال الخاص أو الخصائص الأسلوبية المميزة بالمقارنة بين بنيات النص نفسه أو بنيات أعمال مختلفة له، أو بنيات نصوص فى فترة زمنية واحدة وبيئة واحدة تعد وسيلة ناجعة فى رصد التجاوزات وتسجيل الخصائص والأنماط المستخدمة وطرق التأليف فى النثر وكشف الضرورات الحقيقية والتصرف فى استعمال لغة الشعر استعمالاً خاصاً قصداً لتوظيف اللغة وفق دلالات معينة بدلاً من عد كل شذوذ يرد فى لغة الشعر ضرورةً وإن لم تكن فى الحقيقة كذلك، والحقيقة أن النعت المتقدم على منعوته يفقد وظيفته النحوية فى هذه الحالة وقد ركز الكاتب فى هذه القصة على إبراز مفارقة بين العبد وسيده تكلف لها جهداً لغوياً عظيماً وذلك لتدعيم منهجه فى الدفاع عن قضيته فصنع بذلك منهجاً للتعامل ومراعاة المقام فأخذت المسألة شكلاً تربوياً دعم الكاتب هذا الموقف بتبريره فى أسلوب إنشائى وهو استفهام الغرض منه الإنكار إذ إن العبد لايعرف قيمة مافى بيت سيده لأنه لايعرف قيمته ولايدفع ثمنه ولايتكلف له مشقة (كما لاتستوى مواضعهم فى المجلس ومواقع أسمائهم فى

العنوانات ومايستقبلون به من التحيات وكيف وهم لايفقدون من ذلك مايفقد القادر ولايكترثون له اكتراث العارف.

والقارىء يلحظ مفارقة كبيرة بين بساطة الحدث وأصل القصة التى تتعلق بسلة فاكهة وبين الأحاجى والمبررات التى تتخذ شكلاً مضخماً ومنطقاً محكماً وبراعة لغوية ويبدو أن الكاتب يحس بهذه المفارقة فتجد فى الجمل التالية لوناً من اليأس فى الإقناع فيضع جملتين فاصلتين تدلان على أن كل إنسان يتصرف كيفما شاء وليس لأحد سلطان على زد عليه ذلك أن الجملتين تسلكان مسلك السخرية واللامنطقية وهذا مخالف لمسلك الكاتب فى الإقناع فى كل تفاصيل الرسالة، إذ كيف يطعم المرء كلبه دجاجاً وليس أى دجاج إنه الدجاج الذى تكلف له التسمين والتربية ويعلف حماره السمسم الذى قشره له بنفسه ! كيف يصنع المرء هذا وقد بخل على ابنه وزوجته بالفاكهة (صحيح أن هذه الحيوانات قد تكون مفيدة لحياة المرء لكنها ليست أغلى من زوجته وابنه. والحقيقة أن الكاتب يقصد بهذا التركيب ودلالته من يعيبونه بالبخل والشح فيقول لهم اصنعوا ماشئتم فى حياتكم أما أنا فلى مسلكى الخاص وإن لم يصرح بذلك.

والكاتب يختار من الأقوال والوثائق ماعظم وجل لشخصيات هى قمم فى الحكمة والتربية فى التراث العربى والإسلامى ثم هاهو يضرب لنا مثلاً بأحقر الحيوانات كالكلب والحمار يقول الكاتب (من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن وأعلف حماره السمسم المقشر) والجملتان متناسبتان تأليفاً وإيقاعاً ولكن معنى اليأس من الإقناع واضح من معنى هاتين الجملتين وذلك أن الكاتب يبخل على ابنه وزوجته بالفاكهة فكيف يطعم كلبه دجاجاً وحماره سمسماً والمبالغة واضحة فى وصف الدجاج بأنه مسمن والسمسم بأنه مقشر فكان الأولى أن يقشر السمسم لابنه. وتدعيماً للفكرة ذكر أمثلة لبعض الأئمة دون ذكر مسمياتهم وهذا مخالف لعادة الكاتب فى حشد أسماء مجموعة من الأعلام حفلت بها الكتب والموسوعات وظل ذكرها على الألسنة مرتبطاً بمواقفها الرشيدة مثل الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب والأحنف بن قيس والحسن البصرى لكنه فى هذه المرة يريد أن

يزيل عن نفسه اللوم فذكر لهم موقفاً لبعض الأئمة وقد ختموا على كيس فارغ أما هو فقد ختم على سلة فاكهة فليس هناك مبرر لتوجيه اللوم إليه - يقول الكاتب (فعبتمونى بالختم وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق وختم على كيس فارغ وقال طينة خير من طنة فأمسكتم عمن ختم على لاشيء وعبتم من ختم على شيء)، ومن الألفاظ المفاتيح فى الرسالة قوله (عبتمونى) فبعد أن عرض الكاتب للافتتاحية والتضمين لقول الأحنف بن قيس وبسط الفكرة الرئيسية وجعلها مقدمة لما سيرد من تفاصيل - بدأ بعد ذلك فى التفصيل والتحليل عارضاً لمجموعة من المواقف والمشاهد والأحداث التى أخذت عليه واتصف فيها بالبخل. وكانت جملة (عبتمونى) هى المفتاح الذى يبدأ به الأحداث فى الرسالة ومن أمثلة ذلك قوله (عبتمونى بقولى لخادمتى أجيدى عجنه خميراً كما أجدته فطيراً) وفى قصة ماء الوضوء قال (وعبتم عليّ قولي: من لم يتعرف مواقع السرف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواقع الاقتصاد فى الممتنع الغالى) وفى قصة ختمه على سلة الفاكهة قال (وعبتمونى حين ختمت على سد عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ومن رطبة غريبة) وكرر فى القصة نفسها قوله:

(فعبتمونى بالختم وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق وختم على كيس فارغ) وفى قصة زيادة ماء المرق قال (وعبتمونى حين قلت للغلام: إذا زدت فى المرق فزد فى الإنضاج لنجمع بين التأدم باللحم والمرق) وفى إطار حديثه عن الاحتفاظ بالقديم من الثياب والنعال قال (وعبتمونى بخصف النعال وبتصدير القميص).

ومن الألفاظ المفاتيح فى هذا النص استعمال الكاتب (قد قالوا - قد زعموا) ولاتظن هنا أن زعموا بمعنى قالوا إفكاً وإنما زعموا أى قالوا فى قوة وهو يستعين بهذا اللفظ المفتاح عنداستعانته بقول أو فكرة عند القدماء يريد أن يوظفها لخدمة مذهبه، وقد ترددت فى قصة تصدير القميص وخصف النعال بعد عرضه لتفاصيل القصة واستعراضه لقول الرسول والحكماء واستنفاذه للمؤثرات المنطقية واللغوية فقال (وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين) أى أن من يصلح قميصه أو نعله

فقد تواضع وبعد عن الكبْر واستفاد بقميصه ونعله، وقال (كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين) أى أن المرء بقلة عياله يحفظ ماله من الزوال ويكفيهم مؤونة الحياة، وباستخدامه هذه اللفظة يبعد عن نفسه شبهة الإلحاح فى الإقناع أى أن هذا الرأى لغيره على حين أنه مقتنع به، وسوقه للتدليل على قوة فكرته ونجاعتها.

الحقيقة أن الكاتب يستخدم وسيلتين للإقناع إحداهما فكرية وتتم بسوق الحجج والبراهين العقلية وكذا أقوال القدماء والحكماء أما الوسيلة الأخرى فهى وسيلة لغوية باستخدام الاساليب الإنشائية واستخدام صيغ صرفية متماثلة فى البناء وتراكيب نحوية متماثلة فى التأليف ويمكننا استعراض ذلك فى القصتين السابقتين - خصوصاً عند عرضه للختم على سلة الفاكهة وفى القصة التى تلتها عند خصفه للنعال وتصديره للقميص.

فمن الوسيلة الأولى أى الفكرية ماورد من تضخيم من حديث عن الفاكهة (سد عظيم وفيه شيء ثمين) وعرضه لأسباب الختم فى قوله (عبدٍ نهم وصبى جشع) وإدخاله الجوانب التربوية ومراعاة المقام فى أمر بسيط كسلة الفاكهة.

(ولافى عادات القادة ولافى تدبير السادة)، واستناده إلى مقامات مشابهة ومواقف تؤيد ماذهب إليه (وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق وختم على كيس فارغ) وتسجيله للاستنتاج الذى ينبغى أن يتوصل إليه القارىء بنفسه (فأمسكتم عمن ختم على لاشيء وعبتم من ختم على شيء) وفى قصة تصدير القميص وخصف النعال يلجأ الكاتب إلى جوانب خلقية فى تبرير سلوكه (أنفى للكبر وأشبه بالنسك)، وقوله (وأن الترقيع من الحزم وأن الاجتماع مع الحفظ وأن التفرق مع التضييع) واستناده إلى مسلك أشرف الخلق ﷺ فى حياته فيقول عنه.

(وقد كان النبى ﷺ يخصف نعله ويرقع ثوبه ويلطع إصبعه) وإذا كان الرسول يضرب المثل فى سلوكه تواضعاً وزهداً فالكاتب يسجل مسلك طلحة أجود العرب (ولقد لفقت سعدى ابنة عوف إزار طلحة ويعقب على ذلك بوصف طلحة بما يخدم مسلكه هو موقفه من الاتهام بالشح والبخل وهو طلحة الفياض وهو جواد قريش).

أضف ذلك إلى التضمين باستمداد قول الرسول ﷺ (لو أتيت بذراع لأكلت ولو دُعيت إلى كراع لأجبت) وكذا قول عمر بن الخطاب (من لم يستحِ من الحلال خفّت مؤونته وقل كبره) وحين يحتاج الكاتب إلى بسط فكرة بعينها ترشح ماذكره وماستمده من أقوال يورد مقولات غير منسوبة إلى أصحابها.

(وقالوا: لاجديد لمن لم يلبس الخَلق) وتكرار الغرض نفسه بصيغة أخرى (وقد علمنا أن الجديد فى غير موضعه دون الخلَق) وبعد عرض بعض الدلائل التى يرى الكاتب أنها تؤيد مذهبه وسردها يسجل مرة أخرى الاستنتاج الذى ينبغى أن يصل إليه القارىء (فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر) وعندما يرى الكاتب أنه بحاجة إلى الاستطراد يستخدم ما أشرنا إليه بأنه ألفاظ المفاتيح ليبدأ فى إعادة أدلته مرة أخرى (وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين؛ كما زعموا أن قلة العيال أ حد اليسارين).

فيصف مسلك رجل من حكماء العرب بقوله (وقد جبر الأحنف يدعنز) ويدعم ذلك بقوله (وقد أمر بذلك النعمان) وترشيح ذلك بتضمين قول الخليفة عمر (من أكل بيضة فقد أكل دجاجة).

ويضيف الكاتب إلى وسائله وسيلة أخرى بتضمين قصته قصصاً أخرى ومنها قصة زياد الذى أرسل رجلاً يرتاد له محدّثاً ذا صفات بعينها وقد عرف الرجل هذه الصفات من مسلك الرجل فى حياته يقول:-

(ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم فى مثل هذا اليوم، ورأيت ثياب الناس جدداً وثيابه به لبساً فظننت به الحزم).

ومثلها (وقال رجل لبعض السادة: أُهدى إليك دجاجة، قال: إن كان لابد فاجعلها بيّاضة).

أما الوسيلة اللغوية فتتمثل فى التحكم فى اختيار الجمل القصيرة ذات الإيقاع المؤثر واختيار الصيغ الصرفية المتماثلة والاعتماد على السجع والتوازى فى رصف المركبات فمن ذلك قصّة سلة الفاكهة.

(سد عظيم فيه شيء ثمين) فهناك تماثل في بناء صيغة عظيم وثمين و (فاكهة نفيسة ورطبة غريبة) والتماثل في صيغة عظيم وثمين و(فاكهة نفيسة ورطبة غريبة) والتماثل فى صيغة فعيلة ، ومثله بناء صيغة فعيلة، ومثله بناء صيغة فَعِل (عبد نهم وصبي جشع) في جشع ونهم.

وبناء صيغة فعلاء (أمة لكعاء زوجة خرقاء) فى لكعاء وخرقاء، والمركبات الإضافية التى ينتهى المضاف إليه فيها بحروف شفوية هى الباء والميم (ليس من أصل الأدب ولافى ترتيب الحكم)، وصيغة فَعْلة (ولافى عادات القادة ولافى تدبير السادة)، فى السادة والقادة وبناء صيغة اسم المفعول (نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب) فى المأكول والمشروب والملبوس والمركوب، واتباع صيغة اسم الفاعل باسم المفعول (التابع والمتبوع والسيد والمسود) وكذا السجع الحادث من تساوى الجمل خصوصاً فى نهاياتها مثل العنوانات والتحيات فى (لايفقدون من ذلك مايفقد القادر لايكترثون له اكتراث العارف) ومثله الاجتزاء بالحذف والاكتفاء بإيراد مركب واحد فى البداية والعطف عليه فى قوله (من شاء) واستخدم صيغتين متماثلتي الوزن مع وجود فرق دلالى فى (أطعم - أعلف) وتماثل بناء نهايتى الجملتين فى (الدجاج المسمن- السمسم المقشر) وذلك فى قوله (من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن وأعلف حماره السمسم المقشر) وصنع مشاكلة لفظية في قوله طينة خير من طنة.

وتتسم هذه القصة بمؤثرات لغوية وكثافة لفظية عالية النسبة وبراعة فى التأليف عن قصة خصف النعال وتصدير القميص ويبدو أن ذلك راجع إلى أن الأخيرة تغلب فيها المؤثرات الفكرية والبراهين والحجج العقلية والمنطقية إلى حد ذكر قصص داخل القصة الواحدة أو لأن قصة سلة الفاكهة أصغر حجماً،ففى قصة تصدير القميص وخصف النعال تماثل فى بناء صيغة أفعل مع اختلاف الدلالة باختلاف المادة اللغوية واستخدام العطف وسيلة للحذف لإحداث تماثل ومن ثَمّ إيقاع مؤثر (المخصوفة أبقى وأوطأ وأرقى، وأنفى للكبر وأشبه بالنسك).
ويبدو أن العطف فى هذه القصة يُعد بنية لغوية خاصة أو خصيصة أسلوبية فأورد

الكاتب عن الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث جمل فعلية متماثلة من تأليفه هو تصدرتها جميعاً (وكان النبيﷺ) وسوغ العطف الحذف وأيضاً عن التكرار فى قوله (يخصف نعله ويرقع ثوبه ويلطع إصبعه) وهناك قول الرسول ضمنه الكاتب قصته وفيه إيقاع حادث من تساوى جملتين فى بنائهما وأسلوبهما وبناء صيغ أفعالهم وللكاتب فيه فضل الاختيار وإن لم يكن التأليف (لو أتيت بذراع لأكلت لو دُعيتْ إلى كراع لأجبت) فهناك تناسب بين (أتيت - أكلت ودعيت - أجبت) وذراع - كراع ومن هذا التناسب (ثياب الناس جُدداً وثيابه لُبسا) فهناك تماثل فى بناء الصيغة بالرغم من التضاد فى المعنى بين (لبساً وجدداً) وترادف بين البنيات الكبرى وتردد فى هذه القصة ماذكره عن الله عز وجل بعد ذكره لما ورد عن الرسول واستخدم العطف وسيلة للحذف والتماثل فى الجمل الفعلية بذكر فعل واحد وفاعل لكل جملتين أو ثلاث (وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدراً وبوأ له موضعاً كما جعل لكل دهر رجالاً ولكل مقام مقالاً) وإلى جانب التماثل فى التأليف وتركيب الجمل وبناء الصيغ عمد الكاتب إلى صنع مفارقات فى الدلالة بقوله عن الله عز وجل (وقد أحيا بالسم وأمات بالغذاء وأغص بالماء وقتل بالدواء) بالرغم مما فى هذه المركبات من مغالطة ناشئة عن التعميم فليس كل السم محيي بل بعضه أو قليل منه وقد تؤدى زيادة جرعة الدواء إلى القتل وليس استعمال الدواء.

ومن المؤثرات الدلالية صنع تراكيب فيها مقابلة فى المعنى وتماثل فى التأليف (فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر)، وبالرغم من أن الكاتب يستخدم العطف استخداماً خاصاً فى البنية الداخلية للقصة قصداً للتماثل بإحداث إيقاع مابين المفردات أو الجمل غير أنه عند حاجته إلى وسائل أخرى كاستخدام الألفاظ المفاتيح (زعموا) يلجأ إلى التكرار مع توفير عنصر الإيقاع المؤثر بين التراكيب (وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين؛ كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين) وبين هذه التراكيب ترادف فى الدلالة الكلية بالرغم مما قد يكون من تضاد بين مفردات كل تركيب على حدة

والكاتب يلجأ إلى سرد بعض المواقف والأحداث التى تعرض له فى حياته اليومية ويبدو ظاهرها أنها دفاع عن مسلكه فى الحياة فإذا دقق فيها القارىء فسيجد نفسه يحكم على سالك هذا المذهب فى الحياة بالبخل والشح وهذه حيلة فنية قد يكون المقصود بها (الإلغاز) أى إرادة التشهير ببخل سهل بن هارون وهذه حيلة فنية بديعة لاتصدر إلا عن كاتب فذ.وسنلجأ الآن إلى تحليل ظاهرة شائعة فى الرسالة وهى التضمين أى اقتباس عدد من المقولات لأعلام أفذاذ فى الحكمة والعدل والرحمة وتوظيفها فنياً لخدمة الغرض الذى قصد إليه الكاتب، وقد يرتكب الكاتب فى أثناء ذلك مغالطات تخالف الحقائق وهذه المقولات تشبه الوثيقة التاريخية يثبت بها الكاتب بعض التصرفات التى يريد أن يجعلها حقائق «قال الأحنف بن قيس يامعشر بنى تميم لاتسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار» فهذه المقولة وجّهها أحد حكماء العرب المعروفين بالتعقل والتريث فى مواقف الشدة والمقام الذى قيلت فيه هذه المقولة هو فتنة كادت تحدث بين أهل هذه القبيلة وكادت ستؤدى بهم إلى وقيعة لاداعى لها،فالأحنف يحذرهم مغبة هذه الفتنه وسوء عاقبتها وهو يدرك بحكمته أن الذين يشعلون هذه الفتن هم أول من لايثبت فى قتال، فعلى القوم ألا يتّبعوا فتنة لأنهم بعد أن يشعلوا فتيل الحرب سيفرون ولايثبت لهم قدم.

ولكن ماعلاقة الفتنة والفرار والقتال بمحمد بن زياد، وآله الذين يذمون مسلك سهل بن هارون فى الحياة؟.

لم يجد الكاتب أمراً أخطر من الفتنة والقتال على حياة الناس فاستثمر هذا الموقف لصالح قضيته مضخماً الأحداث حتى يجعل لقضيته أهمية وذلك بمقارنتها بالخطوات العظيمة/ويعدّ هذا من الحيل الفنية البارعة. والمقولة الثانية التى يريد أن يستفيد منها الكاتب منتقاة من أقوال الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه - وهو من هو فى دقته وحكمته وشدته خصوصاً على أهل بيته فقد كان يجعل من نفسه وأهله مثلاً أعلى ونموذجاً يُحتذى لذلك فقد كان دائم الملاحظة مدققاً فى جميع أمور حياته بحيث لاتمتد يده إلى بيت مال المسلمين.

«وقد كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه ورحمه يقول لأهله: املكوا العجين فإنه أريع الطحينين» وفى هذه المقولة تساوٍ فى المقامين فالكاتب يحدّث خادمة والخليفة عمر يحدّث أهل بيته لكن الفارق هنا – أن الخليفة عمر كان زاهداً فى الحياة ولديه إحساس عظيم بالمسئولية ويهدف من مقولته ألا يستغل أهل بيته مكانته من الخلافة فيسرفوا فى إنفاقهم لكن الكاتب ليست لديه كل هذه المبررات فعمر يصنع ذلك لأنه قدوة والكاتب يسلك ذلك شحاً وبخلاً.

ويبدو أن الكاتب مدرك لما قد يصل إلى القارىء من الحكم عليه بالبخل والشح وعدم صحة اقتران موقفه بموقف عمر الخليفة فأردف ذلك بقوله (من لم يتعرف مواقف السرف فى الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد فى الممتنع الغالى). وهذه الجمل تَرِد ترشيحاً وتأييداً لغرض الكاتب وليس لأحداث الواقعة لأن أحداث الواقعة تجعلنا لانقتنع بما يذهب إليه/والكاتب يفترض هذا فيرى أن مايصنعه هذا مع خادمته لايعد تدخلاً فى أمور قد تبدو تافهة لكنه نظام للحياة شامل ومنهج قويم يصح فى الرخيص كما يصح فى الأمور العظيمة فيريد الكاتب أن يجعل من نفسه صاحب مبدأ وحكمة فى الحياة/والمقولة الثالثة للحسن البصرى والكاتب لايستشهد بأقوال أو حوادث تافهة لأن قضيته ستكون فى النهاية فاشلة وتافهة وإنما هو يستمد أهمية موضوعه من جلال قدر أصحاب المقولات التى يتخذها وثائق تاريخية/فالحسن البصرى أستاذ زعيم المعتزلة وهو واصل بن عطاء وله فى علم الكلام شأو بعيد يقول الحسن البصرى فى ذكر السرف (إنه ليكون فى الماعونين: الماء والكلأ فلم يرض بذلك فى الماء حتى أردفه بالكلأ).

والحقيقة أن الحسن البصرى قال مقولته فى مقام الإسراف وفى موضع النصح للناس ولهذا فمقولته مقبولة أما الكاتب فكان يتحدث عن الاقتصاد فى ماء الوضوء وأراد أن يؤيد مذهبه في هذا الاقتصاد فاستعان بهذه الوثيقة التاريخية التى تدعو إلى الاقتصاد فى الطعام والشراب ولذلك عقّب الكاتب على مقولة الحسن البصرى بقوله:

(فلم يرض بذلك فى الماء، حتى أردفه بالكلأ) وهو هنا يريد أن يجعل للماء أهمية الطعام، فقرنه به وعلق على ذلك، ولكن الحسن البصرى يتحدث عن ماء الشرب ووجوه المحافظة عليه لأنه عماد الحياة فى حين أن قضية الكاتب كانت عن ماء الوضوء ومن هنا - تتبين المفارقة بين الكاتب وبين مايريد أن يوظفها فيه.

وقد لجأ الكاتب إلى وسيلتين فى الإقناع بما يريد وإن كان مايريد هو مغالطة ومجافاة للواقع لكن هذا هو عمل الكاتب الفنان وهو محاولة الإقناع بصحة ماليس بصحيح فى ثوب فنى كما هو الحال فى الشعر لذلك قال النقاد العرب (إن أعزب الشعر أكذبه) والنثر كالشعر من حيث الخصائص الفنية. والوسيلتان هما. الإقناع الفكرى (العقلى) وذلك بسوق الحجج والبراهين العقلية واستخدام لغة المنطق وضرب الأمثلة من الحياة والاستشهاد بالمقولات والوثائق التاريخية وربط كل ذلك بما يريد أن يقنع المستمع. وإن كان فى ذلك قلب للحقائق وللعرف المألوف بين الناس والإقناع باستخدام مؤثرات لغوية كاختيار الجمل البسيطة القصيرة والبعد عن التراكيب الطويلة المعقدة واستخدام المساواة بين الجمل وكذلك السجع والترادف. وهذا ماعرضنا له عرضاً مفصلاً بتحليل قصتى (سلة الفاكهة وتصدير القميص وخصف النعال) وهو الأمر الذى ينطبق على قصص الرسالة جميعا لكننى لم أرد التكرار.

والحقيقة أن القارىء يستنتج ويشك فى أنه الجاحظ لماوضع فى الرسالة من آثار ثقافة الموسوعية التى شملت أموراً فلسفية ومنطقية كانت ذائعة فى عصره أضف إلى ذلك الإمكانات اللغوية من رقى الأسلوب والتحكم فى أنماط الجمل والقدرة على إحداث مساواة كل ذلك يجعلنا نحكم على النص بأنه يمكن أن يكون للجاحظ.

الحقيقة أن الكاتب قد أطال فى هاتين القصتين خصوصاً أنه استنفد عرض القصة وكذا المؤثرات اللغوية والحجج المنطقية فأطال بعد ذلك بقوله:

(كما لاتستوى مواضعهم فى المجلس ومواقع أسمائهم فى العنوانات ومايستقبلون به من التحيات وكيف وهم لايفقدون مايفقد القادر ولايكترثون له اكتراث العارف).

ويبدو أنه كانت هناك حوارات حول قصة سلة الفاكهة فحذفها الكاتب وأتى لنا بمايريد أن يقرره هو ويقنع به لذلك طالت وسائل الإقناع فى هذه المرة فأطال والدليل على ذلك هو الجملتان اللتان أردف بهما هذه القصة.

(ومن شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن وأعلف حماره السمسم المقشر) فهاتان الجملتان معناهما أن هذا هو سلوكى واصنع أنت يامحمد بن زياد وقومك ماتشاءون فهذا شأنى وذلك شأنكم.

والدليل الآخر على إحساس الكاتب بالفشل فى هذه القصة هو النماذج التى اختارها لضرب المثل، وهي الكلب والحمار بعد أن كان يستخدم فى وسائل إقناعه وثائق تاريخية لأشهر الخلق فى كل مجال فهذا تحول في المنهج بدأ به الكاتب رسالته، والجملتان الأخيرتان فيهما حيلة فنية المقصود منها التشهير بالذين يعيبون مسلكه فى الحياة فالدجاج المسمن أولى به أن يأكله البشر وهم يريدون إطعامه للكلاب وكذا السمسم المقشر. ويستمر الكاتب فى التعقيب على ختم سلة الفاكهة فيوظفها توظيفاً يخدم مسلكه فيختار نماذج بدون مسميات فبعض الناس ختم على سلة وبعضهم ختم على كيس فارغ ومع ذلك لم يعبه أحد. أما الكاتب فلديه العذر فى الختم فقد ختم على فاكهة نفيسة وغيره ختم على لاشيء وليس ضرورياً أن يطابق استعمالنا لمصطلح قصة قصيرة بالمفهوم الغربى أو الحديث لها إذ للاستعمال العربى خصوصية هذا إذا نظرنا لماورد فى رسالة سهل بن هارون من قصص من جهة حجمها وكمّ أحداثها، ففى القرآن الكريم كتاب الله العزيز ورد عن سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام قصص ثلاث متتابعة بعُقَدها وذلك فى سورة الكهف استغرقت القصص الآيات (٧٠ -٧٧) تبدأ أحداث كل منها فانطلقا فالقصة الأولى ﴿**فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولاتُرهقنى من أمرى عُسراً**﴾.

والقصة الثانية ﴿ **فأنطلقُا حتى إذا لقيا غلما فقتله قال أقتلت نفساً زكية**

بغير نفس لقد جئت شيئا نُكرا قال ألم أقلْ لك إنك لن تستطيع معى صبرا قال إن سألتك عن شيء بعدها فلاتصحبنى قد بلغت من لدنى عذرا﴾.
فالقصة الثالثة ﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾** والقرآن الكريم يتسم بلغته الخاصة وتراكيبه الفريدة المعجزة التى أوضحناها فى تحليل آيات سورة الشورى والكُتاب والشعراء يحرصون على حفظ آيات الكتاب العزيز للاحتذاء بها فى نسج لغة كتاباتهم، وليس من شك فى أن الكاتب أحد هؤلاء وليس غريباً أن يكون قد استفاد مما ورد فى القرآن خصوصاً استخدامه لجملة (عبتمونى) التى يتخذها مفتاحاً لأحداث قصصه، فإننا نلحظ بدء القصص القرآنية المذكورة بالجملة (فانطلقا) ولايفوتنا فى هذا المقام أن نلحظ في حل عقد القصص الثلاث التى تمتد من الآية (٧٨-٨٢) ورود ثلاثة أفعال أسند كل منها إلى غير ما أسند إليه الآخر ففى حل القصة الأولى قال الخضر (أردت) وفى حل القصة الثانية قال (أردنا) وفى حل القصة الثالثة قال (فأراد ربك) والحقيقة أن الآمر فى هذه القصص واحد وهو الله سبحانه وتعالى والمنفذ واحد وهو الخضر عليه السلام فما السبب فى إسناد الأفعال إلى ضمائر مختلفة !! فمن التأدب أن ينسب الخضر عمل الشر إلى نفسه وفعل الخير إلى الله سبحانه وتعالى فالقصة الأولى فيها إفساد للسفينة فقال (أردت) وفى القصة الثالثة عمل خير وهو بناء جدار متهدم فقال (أراد ربك) ولكن تظل هناك مسألة محيرة فى الفعل (أردنا) فالقصة الثانية فيها قتل لغلام وهو برىء فى نظر سيدنا موسى وفى قول الخضر (أردنا) أى الله وأنا، وبهذا قد نسب عملاً من الشر أو جزء منه إلى الله بغض النظر عن علم الله بالغيب، لكن هذا فى نظر موسى وهو بشر لايعلم الغيب والحقيقة أن القصة العادية فى عرف البشر لها أحداث تليها عقدة يليها حل لكن هذه القصص القرآنية وردت متتابعة وكذا عقدها ثم جاءت بعد ذلك الحلول متتابعة معاً فأسندت الأرادة فى حل كل قصة إلى ضمير مخالف للقصتين الأخريين تميزاً للحلول بأن هذا يخص الأولى وهذا يخص الثانية وهذا يخص الثالثة

على النحو (أردت - أردنا - أراد ربك) فيما يشبه الالتفات لشد انتباه المستمع خصوصاً أن هناك فاصلاً من الجمل بين القصص وحلولها أى بين كل عقدة وحلها والله أعلم.

ونعود مرة أخرى لنظام الوثائق التاريخية التى يستعين بها الكاتب تدعيماً لسلوكه فى الحياة ومنهجه الذى يعدُّه هو اقتصاداً وحكمة والتزاماً بما سلكه السابقون ويأخذ ذلك عليه محمد بن زياد وقومه بأنه بخل وشح وهذه وثيقة من أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة التى نجد لها أصلاً فى الصحيحين صحيح مسلم وصحيح البخارى والكاتب فى مثل هذه الأقوال لايزوّر ولايغير ولايبدل ولذلك أطلقنا عليها مصطلح وثائق تاريخية، أمّا مهارته هو فتكمن فى اختيار الوثيقة وتوظيفها فى موقف سلكه هو أو قصة حدثت له أو واقعة يريد أن يبرر مسلكه فيها فيوفق بين الوثيقة المستمدة من أقوال القدماء وبين مسلكه وقد اختار قول الرسول ﷺ:

(إذا طبختم لحماً فزيدوا فى الماء فإن لم يُصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً) فقول الرسول ﷺ يتعلق بالكرم والإحسان فإذا كانت هناك جماعة كبيرة ولديها قدر ضئيل من اللحم لايكفى حاجاتها فعليها حينئذ أن تُزيد فى المرق الذى هو بطبيعة الحال فيه طعم اللحم ودسمه فمن لم يُصب لحماً فهو من القناعة بحيث يكتفى بقدر من المرق هذه حالة، ومن ناحية أخرى إذا كان هناك جار مسلم ولديه قدر من اللحم يكفى حاجة أسرته وحسب، فعليه أن يُزيد فى المرق حتى إذا لم يستطع أن يهدى جيرانه من لحمه فيتفضل عليهم بهذا المرق وهذا فيه تفضُّل وإحسان، هذا هو ما أراده الرسول فى هذه الوثيقة أما مهارة الكاتب فقد استطاعت أن توظف هذه الوثيقة التى تتعلق بالكرم والإحسان واستطاعت أن توظفها فى موقف آخر قد يكون فيه شح أو اقتصاد فالرجل لديه قدر من اللحم والطبيعى أنه اشترى مايكفى حاجة أسرته فهو ليس فى حاجة حينئذ إلى زيادة المرق إذ ليست معه صحبة كبيرة ولم يتفضل على جار من الجيران وعليه فإنه سيزيد فى المرق من أجل الاقتصاد فى شراء اللحم أى حتى لايشترى لحماً مرة أخرى وهذا لايتعلق بالكرم والإحسان.

ونحن نعرض لنص مستغلق والتحليل هو الذى يكشف الجوانب المغلقة فى هذا النص فأولى المشاكل التى تعرض لنا فى هذا النص هى مسألة نسبة النص: ولم يكن هناك من سبيل سوى تحليل هذا النص تحليلاً فكرياً وأسلوبياً وفى إطار ذلك البحث عن بنية لغوية أو عدد من البُنى كونت معاً خصائص هذا النص بحيث يمكن إرجاع نسبته إلى صاحبه والحقيقة أن هناك بنيتين تركيبتين:

البنية الأولى: تتعلق بالنص بأكمله وهى تبدو فى تساوى أغلب الجمل من الناحية التركيبية التأليفية ومعها تماثل فى الصيغ الصرفية عند نهايات الجمل ليحدث بذلك لون من الإيقاع وقد درّج علماء العربية على عد مثل هذه الأنماط والتراكيب اللغوية ونظام التأليف فى الجمل من الألوان البلاغية وهى فى الحقيقة من حيث الأثر أى التأثير فى المستمع وكذا قدرة الكاتب تُعد من البلاغة،وهى فى الحقيقة تحتاج من النحوى واللغوى إلى الكشف عن هذه الأنماط باستخدام وسائل تحليل نحوية خصوصاً أنها تنتمى إلى نظام تأليف الجملة وبناء الصيغ، وفى إطار هذا أيضاً لدينا مايعرف بظاهرة التضمين أو بلغة الحداثيين التناص أى اختلاط أجزاء من نصوص أخرى بهذا النص قصداً من المؤلف وهدفاً إلى ذلك خدمة لما يعرض له من قضايا.

وعند التفصيل أو التحليل وهو الجزء المتبقى من النص توجد بنية لغوية داخلية أى نظام خاص فى تأليف الجمل وبناء الصيغ وإحداث متسلسلات أو متتابعات من التراكيب توظف وسيلةً للإقناع إلى جانب الوسيلة الفكرية المنطقية وهذه الوسيلة اللغوية عدّتها مكونات اللغة وطرق تأليفها وفق نظام خاص لايخضع لوزن ولاقافية كما رأينا فى قصيدة الحمى. بل الإيقاع واستخدام خصائص العربية استخداماً خاصاً يتيح التقديم والتأخير والفصل بين المتلازمين بجمل اعتراضية وصولاً إلى الأنماط التى يرى الكاتب أنها تحظى بالتأثير لدى المستمع.

يصنع الكاتب هذا بفضل ما أُوتى من ثقافة عربية واطلاع على آثار الأقدمين وما أُتيح فى هذا الوقت من ترجمة لثقافات أخرى غير عربيّة وما أتيح له هو من

تمكُّن من ناصية اللغة وقدرة خاصة على التصرف فى مفرداتها وتراكيبها لصنع مركبات خاصة بالمعانى التى يريدها وإذا ما تأملنا قول الرسول ﷺ.

(ما كان الحياء فى شىء إلا زانه وماكان الفحش فى شىء إلا شانه)(١)

فهذان تركيبان يخلوان من التعقيد والتصرف الكثير من حيث التقديم والتأخير أو الحذف أو الإكثار من الجمل الاعتراضية أو الاحتراز أو اللجوء إلى براهين عقلية ومنطقية، وبطبيعة الحال لن يلجأ الرسول ﷺ إلى ظاهرة التضمين أو استخدام الوثائق التاريخية كما رأينا عند كاتبنا، وكيف يحدث هذا وهو الذى أُوتى جوامع الكلم وهو الذى نزلت عليه تراكيب القرآن تلك المعجزة اللغوية التى تحدّت فصاحة العرب وبلاغتهم وهم أمراء البيان وملوكه، فعبارة الرسول عليه الصلاة والسلام بسيطة لاتحتاج إلى أى برهان فهى تصدر من فمه إلى قلوب المؤمنين الذين شرح قلوبهم للإيمان فحفظوا كلماته وليس معنى ذلك أنها تخلو من بلاغة وفصاحة وقدرة على اختيار التراكيب فالتركيبان متماثلان فى التأليف ولكل منهما أسلوب قصر، أداته «ما - إلا» لأن هناك عنصرين أساسيين فالزينة محصورة فى الحياء هذا بالنسبة للتركيب الأول والبغض والمهانة مقصورة على الفحش، وعلى هذا فهناك مقابلة بين العبارتين فالعبارتان متضادتان فى المعنى وبالتضاد يتضح المعنى ويقوى وبهذا يرغِّب الرسول فى الحياء ويجعل الفحش بغيضاً إلى نفس المؤمن، وقال ﷺ (أمرنى ربى أن أصل من قطعنى وأن أعطى من حرمنى وأن أعفو عمن ظلمنى وأن يكون صمتى فكراً ونطقى ذكراً ونظرى عبراً)(٢) فلجأ الرسول إلى التراكيب القصيرة المتماثله وكانت هناك مركبات ثوابت مثل «أمرنى ربى أن» ومثلها «وأن يكون» فبنى على الأولى ثلاث جمل فعلية ربط بينها بالعطف وهى (أصل من قطعنى - أعطى من حرمنى - أعفو عمن ظلمنى) وبنى على الثابتة الثانية معمولى كان وهما اسم كان وخبرها على النحو الآتى:

(١) صحيح مسلم، الجزء الخامس، الكتاب الثانى، ص ٢٧٨.

(٢) جامع الأصول من أحاديث الرسول، أبو السعادات بن الأثير الجزرى تحقيق محمد حامد الفقى، ط١، ج٥، ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.

(صمتي فكراً - نطقي ذكراً - نظري عبراً) هذا من حيث البناء العام للغة الحديث وهناك بُنى داخلية مبنية على التضاد فالوصل مع القطع والإعطاء مع الحرمان والعفو عند المظلمة وهذه المعانى تصنع لوناً من الترابط فى المجتمع فإذا قوبلت القطيعة بقطيعة وكذا الحرمان بالحرمان ومثله الظلم بالظلم فلن يكون هناك مجتمع إسلامى متكامل وهذا مالايريده الرسول للمسلمين لذلك وردت صياغة الحديث موافقة للمعانى المقصودة وقد وردت فى سهولة ويسر دون تعقيد لفظى أو تركيبى وكذلك معمولات كان، ورد كل شيء بما يناسبه فالصمت لاتكون فيه مضيعة للوقت وإنما للتفكر والتدبر، والنطق لايكون فى اللغو وإنما فى الذكر الحسن، والنظر لايكون فى فحش وإنما للاعتبار والتأس بالمثل الحسن. وهكذا وردت عبارات الرسول عليه الصلاة والسلام جامعة لكل المعانى المقصودة مانعة من كل مايشوبها، خالية من كل منطق أو تعقيد أو براهين أو حجج على عكس ماورد فى رسالة سهل بن هارون بالشكل الذى حللناها به/أما أسلوب المتنبى فى قصيدته الحمى فلم يكن فيه منطق أيضاً ولاحجج ولابراهين ولم تكن الأفكار مرتبة ففى القصيدة توتر انفعالى فيتحدث مفتخراً بنفسه ثم يلجأ إلى أبيات من الحكمة ثم يعود إلى نفسه مرة أخرى متحدثاً عن صفاته وشمائله ثم يتحدث عن مرضه بالتلميح دون التصريح ثم يشخِّص حالة نفسه ويذكر آلامها وأحلامه الضائعة ثم يعود إلى الحكمة ثم يصف حُمّاه وهكذا لانجد الأفكار مرتبة وليس فيها منطق وهذه طبيعة الشعر، وهكذا تتباين الأساليب العربية وفق القالب الذى تصب فيه المادة اللغوية ووفقاً لطبيعة الموضوع.

الفصل الثانى

نسبـــة النـــص

يشير الدكتور محمد أحمد الحوفى[1] إلى أن رسالة سهل بن هارون، تنتمى إلى فن الجاحظ وإن كانت تختلف عن قصص البخلاء الأخرى بعض الشيء. فكثيراً مايصدر الجاحظ بعض الأخبار بقوله حدثنا فلان، أو أخبرنى بعض أصحابنا. ولكن التعبير فى جميع ذلك - ماعدا رسالة سهل بن هارون، ومايشبهها مما هو معروف لغير الجاحظ، تعبير الجاحظ نفسه، سواء أكان قد سمع الخبر من غيره حقيقة أم لم يسمعه فإن أسلوبه المشرق كسا لخبر جدة وطرافة.

وقد يولد من الخبر الصغير أو الحادث التافه قضايا كبيرة، تنقل القارىء إلى تفكير وإلى جد وإلى مذاهب وآراء، وإلى مغالبة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين ضبط النفس والاستسلام للهوى، كل هذا فى أسلوب جاحظى فريد.

وفى إشارة أخرى عن قيمة كتاب البخلاء، وخصائص أساليبه، نجد لمحة مضادة للرأى الأول تفيد أن بعض الألفاظ غير المعربة التى وردت فى ثنايا تراكيبه، إنما يرجع إلى روايته عن أشخاص آخرين كسهل بن هارون، فهو يخاطب القراء بقوله «إن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً، أو كلاماً غير مُعْرب، ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك، لأن الإعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه من حده، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء، وأشحاء العلماء، كسهل بن هارون وأشباههم»[2]. ومع هذا فقد يكون اللفظ لسهل بن هارون أما صياغة الأساليب والحيل فهى من فن الجاحظ.

ومن سمات أدب الجاحظ وكتاباته الاستطراد، هذا الاستطراد ماعلته؟ أهو أثر من ثقافته الواسعة المتنوعة، فهو يحرص على تسجيل معارفه وثمرات قراءاته لينتفع بها قارؤه؟ أم هو نتيجة لتركيب عقله، وعجزه عن الترتيب والتبويب؟.

---

(١) الجاحظ - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٠ ص ٧١.

(٢) المرجع السابق ص ٧٢.

أغلب الظن أن الفرض الأول هو الصحيح، لأن الجاحظ الذكي الألمعي، الدقيق الملاحظة، الآخذ نفسه بالتفكير والتعقل، القدير على المحاجة والمجادلة، لم يكن ليعجز عن إدراك مافي أدبه من نماذج المعارف، واختلاط الألوان.

ولم يكن ليعجز عن التزام الفكرة، والموضوع الواحد، لو أنه قصد وأراد وإنما كان الجاحظ يعمد إلى الاستطراد عمداً، ويراه ضربا من الافتنان، وأسلوباً فى التثقيف، ونمطاً فى التأليف. لكن الذى لاننكره أن فى هذا الضرب من التأليف على تشويقه، وإمتاعه، مايعنى الدارسين، ويجهدهم، لأنهم يتلقفون الأفكار المتشابهة من مواضع عدة متباعدة. وكثيرا مايضطرون إلى التنقيب فى الكتاب الواحد عن فكرة تناثرت هنا وهناك.

ومهما يكن من شيء فإن هذه سمة قد انفرد بها الجاحظ، وليست تخلو من حُسن ولا من قُبح[1].

ويبدو أن بعض الباحثين استقروا على أن الرسالة لسهل وفقاً للعنوان المثبوت فى أول الرسالة، الذى أظن أن الناسخ هو الذى وضعه وأثبته تبعا لذلك المحقق الدكتور طه الحاجرى، فتحت عنوان « جدلية الفرقة والجماعة» أورد توفيق بكار نصاً لإحدى النوادر والطرائف التى وردت فى كتاب البخلاء وعنوانها «كلام بكلام» عن أحد شيوخ خراسان حين كان يأكل يوم الجمعة ومرّ به رجل فدعاه إلى طعام وفاكهة، فلبّى الرجل، فعاب عليه الشيخ الخراسانى تلبية الدعوة فى جدل منطقى، يفيد أن الدعوة كانت كلاماً والإجابة يجب أن تكون كلاماً، وليس جلوساً إلى الطعام، والنيل منه فهو كلام بكلام[2]. ويرى الأستاذ بكار أن هذه نادرة من أطرف نوادر البخلاء أوردها الجاحظ فى الفصل الأول من كتابه الشهير، وهو الفصل الذى بدأ فيه بأهل خراسان. لإكثار الناس فى أهل خراسان. والحقيقة

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٠.

(٢) انظر «جدلية الفرقة والجماعة» مجلة فصول - المجلد الرابع - العدد الرابع، يوليو، أغسطس، سبتمبر ١٩٨٤ - القاهرة ص ١٨٧.

المنسوبة إلى سهل بن هارون هى أول مايطالعنا فى هذا الكتاب وفيها أيضا طرائف ونوادر. ويرى الأستاذ بكار أن هذه النادرة من أبلغ الشواهد على مهارة الجاحظ فى فن الحكاية، بل على ثراء تراثنا القصصى. وهى هيكلياً، نص مستقل بنفسه، لأنها تكون داخل حدودها الذاتية وحدة متكاملة. ومن ثم فإنها تتيح للتحليل الشكلى موضوعاً كافيا، لكنها دلالياً تظل لامحالة جزءاً من كل، فلا يمكن أن تنفذ إلى أعمق دلالاتها، إلاإذا وضعناها فى سياق العلاقات التى تربطها بسائر نصوص كتاب «البخلاء» فهو المرجع الأول فى فهم بواطنها لأنه القاموس الضابط لمعانى ألفاظها[١].

والحقيقة أن رسالتنا المنسوبة إلى سهل تحفل بمجموعة من القصص القصار، كما تحفل أيضا بذلك الجدل المنطقى الذى يحوّل البخل المرذول إلى فضيلة، وينبذ الكرم المستحسن، ويحوله إلى رذيلة ووسيلة أو بالأحرى مصيبة، تُذهب المال، وتورث الفقر، وهى على هذا لاتنفصل فى خصائصها عن سائر الكتاب. فهناك وحدة مضمون وإن شئنا وحدة خصائص. وأنا أشك فى أن سبب ضم الجاحظ لهذه الرسالة فى كتابه، هو تلك الوحدة الموضوعية التى تجعل من الرسالة وسائر الكتاب نسيجاً واحداً فى الجدل، والحجاج، ومنطق المتكلمين، وقلب الحقائق، وإن كان هناك اختلاف فى الأُطر والبُنى الداخلية للتراكيب.

والباحث يتساءل عن مدى إسهام الجاحظ بفنه فى هذه النوادر أو بالأحرى يبحث عن دور الجاحظ فى هذا الكتاب أهو راوٍ أم منشىء؟ والحقيقة أن هذا التساؤل لايتوقف عند حد هذا النص «كلام بكلام»، بل يمتد إلى سائر الكتاب فبتداول الخبر بين الرواة من الناس إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى الجاحظ. ثم من الجاحظ إلى قرائه، تغيرت الأحداث جوهراً ومعنى، انتقلت من وضعها الواقعى إلى وضع لغوى، أصبحت أثرا بعد عين. كانت أحداثا مادية فصارت خبراً يقص. وليس الخبر كالعيان. فبينهما من المسافة مابين الشىء وعلامته تعينه ولاتشتبه به، إذ كلاهما قائم فى نظام على حدة فحكم الأشياء أن تخضع لنواميس الطبيعة، وحكم العلامات أن تخضع لقواعد اللسان.

(١) المرجع السابق ص ١٨٨.

وباختصار كانت الأحداث واقعاً فصارت نصاً، وهو التحول الرمزى من الحقيقة إلى التمثيل، أى من الحضور الآنى المباشر إلى صورة لفظية محاكية. ثم تطور الخبر ذاته من حال المنطوق إلى حال المكتوب، يوهم الإنسان أن النص سابق لكتابته، وأنه كان مهيأ قبل أن يدوّن، وأن دور الجاحظ لايعدو التسجيل الحرفى: تلقى الخبر من إبراهيم وهو «أحفظ الناس لما سمع» فسطّره فى صحائفه وهو آمن الكتاب لما نقل. وهذا ماكذبه المتن. فيكفى أن نلقى عليه نظرة ولو سريعة لنقتنع بأن نصه من إنشاء الجاحظ وبأسلوبه. طبعا لم يخترع الجاحظ الخبر بأحداثه وأشخاصه، ولكن إن لم يكن هو مبتدعه، فإنه لامحالة مؤلفه بالمعنى الأصلى للكلمة. فهو الذى رتب فصوله. ونسق معانيه، وكان لايستقر على حال لكثرة ماتتصرف بألفاظه ألسنة الرواة، حتى جاء الجاحظ فصقل مادته، وقيد بالخط صورته نهائيا، فصاغه وفق قواعد نوع جديد كان هو رائده، نوع النادرة الأدبية بحرارتها، وملحتها، ومايناسبها من مراتب الكلام، فارتقى بالخبر من عفوية المشافهة وعرضيتها، إلى تدبر الكتابة وثباتها، وبعد ماكان نكتة عابرة إذ هو نص أدبى[1]. لكن الرسالة المنسوبة إلى سهل لها وضع فريد فسهل بن هارون ليس شخصية عادية، وإنما هو كاتب بالرغم من تعلق مسألة البخل بسهل نفسه، وفى أساليب حياته ذاتها. وأن صفة البخل التى يتسم بها سهل أو بالأحرى يتهم بها، إنما هى صادرة عن محمد بن زياد وقومه. ويشهد للجاحظ فى نوادره عن البخلاء بقدرة عجيبة على تدبير الحوار، حتى ينطق النفوس بجواهر معانيها، ويشخص القضية بشتى أبعادها. مفروغ من أن العرب قديماً لم يعرفوا المسرح فى حدوده المقننة. على أننا نجد فى كتاب الجاحظ من المواقف الكلامية، وأنواع المجادلات، بل من «الطرادات» أو «الإطرادات» ولم لا؟ كرسالة الكندى، أو وصية خالويه، ماينتمى إلى صميم النوع.

وقد نبه الدكتور طه الحاجرى إلى ذلك بما يكفى من الكلام فى تقديمه

---

(١) «جدلية الفرقة والجماعة» ص ١٨٩.

لكتاب البخلاء. فينتقل الجاحظ من الخبر إلى النادرة، وإلى الرسالة والوصية. فهي ملحمة البخلاء. ببطلها الجماعي، يحكيها الجاحظ بكل الأشكال قفزاً فوق الحدود الفاصلة بين الأنواع. وقد صار من أسس «الرواية الحديثة» المزج بين الفنون في وحدة الكتابة الأدبية، غير أن رسالتنا المنسوبة إلى سهل لاتتسم بالطابع الحواري المسرحي، بل فيها خطاب للجماعة ويقصد بهم آل زياد تتمثل في لفظة «عبتموني» وهو يقص أحداثاً ويبررها، ويدافع عنها، مستدلاً بما ورد عن الرسول ﷺ، وعمر بن الخطاب، والأحنف بن قيس، والحسن البصري، والنعمان. دون أن يدير حواراً فتركيزه على الأحداث سمة من سمات هذا النص التي تميزه عن باقي النوادر التي وردت في كتاب «البخلاء». ومع ذلك فقد يرجع إلى الجنس أو القالب الأدبي الذى صيغت فيه هذه الأحداث وهو كونها رسالة.

وهناك خصائص مشتركة بين الجاحظ وسهل بن هارون، فالجاحظ مُوَلّد وسهل بن هارون كان فارسي الأصل، وكل منهما عاشا في بيئة عربية واحدة، وامتهنا مهنة واحدة هي الكتابة الأدبية. وإذا كان الجاحظ يتمتع بثقافة موسوعية ومعارف كثيرة، فهناك دلائل كثيرة، تدل على أن سهلاً كان مثقفاً ثقافة ممتازة بجميع معارف عصره. وأنه كان أحد النقلة من لسانه الفارسي إلى العربية[١]. ولكن أهميته لاترجع إلى ماترجم بل ترجع إلى ماصَنّف وألّف.

ويُجمع من ترجموا لسهل على أنه كان شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب، وله كتب كثيرة، وعلى نحو ما اشتُهر بالشعوبية اشتُهر بالحكمة، حتى لقبوه (بزرجمهر الإسلام)، وكانت فيه نزعة إلى الفكاهة منذ حداثته وتُروى له في ذلك طرائف كثيرة، منها أن رجلاً لقيه فقال له: هبْ مالا ضرر به عليك، فقال: وماهو يا أخي؟ قال: دِرهم، قال سهل «لقد هوّنْتَ الدرهم، وهو طائع الله في أرضه لايعصي، وهو عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هونته؟ وهل بيوت المال إلا درهم

(١) الجاحظ «البيان والتبيين» طبعه الحلبي – القاهرة – جـ ٣ – ص ٢٩.

على درهم»[1] وهذا المنطق فى تحليل الأمور نراه فى الرسالة المنسوبة إلى سهل بل إن نص هذه الفكرة فى الرسالة ذاتها تقول الرسالة: «وقالوا درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك، فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا، ثم جعلوا أحد قسمى الجميع الدرهم. وقال أبو بكر الصديق رحمة الله عليه ورضوانه: إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام فى اليوم. وكانوا يبغضون أهل البيت اللحمين. وكان هشام يقول ضع الدرهم على الدرهم يكون مالا»[2].

وورد فى الرسالة نفسها على لسان الكاتب. «وقال: درهم من حلٍّ يخرجُ فى حق، خير من عشرة آلاف قبْضاً، وتلقط عُرجُداً من برم فقال: تضيعون مثل هذا، وهو من قوت امرىء مسلم يوماً إلى الليل»[3].

وهذه البنيات الداخلية من التراكيب تجعل من الكاتب صاحباً لفلسفة الدرهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنها تثبت أن هذه النصوص جميعاً لكاتب واحد. أضف ذلك إلى النمط الملتزم فى الإلحاح على الفكرة الواحدة بالعديد من التراكيب، التى بنيت دلالات كل منها على الأخرى.

وبعض الروايات تشير إلى أن سهلاً كان بخيلاً، شديداً على نفسه وعلى من يحيطون به «فقال دعبل الشاعر: أقمنا عند سهل بن هارون، فلم نبرح، حتى كدنا نموت من الجوع، فلما اضطررناه، فقال ياغلام! ويلك غدّنا! قال: بقصعة (بصفحة) فيها مرق لحم ديك هرم، ليس قبلها ولابعدها غيرها، لاتحز فيه السكين ولاتؤثر فيه الأضراس، فاطّلع فى القصعة وقلب بصره فيها، ثم أخذ قطعة خبز يابس، فقلّب جميع مافى القصعة، حتى فقد الرأس من الديك، فبقى مطرقاً ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغلام، فقال أين الرأس؟ فقال: رميت به. قال سهل. ولم رميت به؟ قال: لم أظنك تأكله، قال: ولأى شىء ظننت أنى لاآكله؟ فوالله إنى

---

(١) ابن نباته – سرح العيون القاهرة ١٩٥٧م ص ١٣٣ نقلا عن د/ شوقى ضيف «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» دار المعارف – القاهرة – ط٨ – ص ١٤٦.

(٢) الجاحظ – البخلاء – ص ٢٨ ، ٢٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٩.

لأمـقُتُ من يرمى برجليـه، فكيف من يرمى برأسـه؟ ثم قـال له: لو لـم أكـره مـاصنعت إلا للطيـرة (التـشـاؤم) والفـأل لكراهتـه، الرأس رئيس، وفـيـه الحـواس (الخمس)، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذى يتبرك به، وعينه التى يُضرب بها المثل، يقال: شراب كعين الديك (فى الصفـاء) ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه. فهلا إذ ظننت أنى لاآكله ظننت أن العيـال يأكلونه؟ وإن كـان بلغ من نُبلك أنك لاتأكله فإن عندنا من يأكله. أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق، انظر أين هو: قـال: والله مـاأدرى أين رمـيت به، قـال: لكنى أدرى أنك رميت به فى بطنك، والله حسيبك»[1].

والأمر المهم فى هذه الرواية هو ظاهرة تهويل الهين من الأمور، وتضخيمـه، هذا من جـهـة ومن جـهـة أخرى قلب الحقـائق للإقناع بماليس بمقنع، فـرأس الديك ثمة أجزاء من الديك أفضل منها كالفخذ أو الصدر كما أنها رأس لديك مـذبوح أى ليست لهـا قـدرة على التـحكم فى الحـواس لكن سـهـلاً يقلب هذه الحقـائق لخدمة هدفه، وهذه الظاهرة وضـعت يدى عليـهـا عند تحليل رسـالتنا المنسوبة إلى سهل، هذا بالرغم من اقتناعى بأن هذه الحادثة ربما كانت من قبيل التندر أو التـفكُّه مع غلام فى حضـرة شـاعـر أديب هو دعبل، ويجب الأخـذ فى الاعتبار أن هذه الرواية قد أثبتها الجاحظ فى كتاب الحيوان عن سهل بن هارون.

ويقـول الدكـتور شوقى ضيـف عن سهل بن هارون «وكل الأحـاديث والنوادر المروية عن سهل تدل على ذكائه وفطنته وخفة روحه، وصدق الجاحظ إذ يقول إنه كـان سـهـلاً فى نفسـه، تحكم له برقّة الذهن ودقته، فهـو فَكِه وهو لَسِن شـديد العارضة، وفى لهجة لسانه، وأسلوب منطقه، مايجعلنا نحس الصلة الشديدة بينه وبين الجاحظ إذ يعد امتداداً – من بعض الوجوه لهذا اللسان ونمواً لهذا العقل وماطوى فيه من حجاج وجدل»[2].

---

(١) الجاحظ «الحيوان» تحقيق عبد السلام محمد هارون – طبعة الحلبى – القاهرة – جـ٢ – ص ٣٧٤.

(٢) «الفن ومذاهب فى النثر العربى» ص ١٤٧.

والحقيقة أن بعض الخصائص فى الرسالة المنسوبة لسهل، يمكن التوفر عليها فى بعض نوادر البخلاء، فمصطلح «سُكر الغنى» نجده فى الرسالة كما نجده فى نادرة لأحد المروزيين، ورسالة الكندى، ومسألة قلب الحقائق التى ذم بها ابن قتيبة الجاحظ، نجدها فى الرسالة المنسوبة إلى سهل. كما نجدها فى رسالة عبد المجيد إلى الثقفى وهى أيضا فى رسالة تفضيل الزجاج على الذهب لسهل بن هارون. ومسألة تفضيل الزجاج على الذهب موجودة أيضا فى نوادر البخلاء.

ومسألة قلب الحقائق نجدها عند المتكلمين، وسهل بن هارون لم يكن من المتكلمين، بل ينطبق الأمر على الجاحظ. ولكن يبدو أن سهلاً ثقف نفسه بمنطق المتكلمين. ولكن لماذا نسب الجاحظ أو الناسخ رسالتنا هذه إلى سهل بن هارون كما نسب رسائل غيرها فى كتاب البخلاء إلى غيره من الشخصيات؟.

يبدو أن هذا الأمر كان مذهباً فى التأليف يعبر به الكاتب عما يريد من نوادر، وفكاهات، وملح، بل وآراء على لسان غيره، وإن بدا ذلك من فنه وصياغته.

ويؤكد الدكتور شوقى ضيف نسبة الرسالة إلى سهل بن هارون، فيرى أنه لولا أن احتفظ لنا الجاحظ فى كتابى البخلاء والبيان والتبيين بأطراف من عمله، ما استطعنا أن نصدر حكماً دقيقاً على صياغته ولاعلى صنعته. ولعل أهم ماسجله الجاحظ لسهل رسالته التى استفتح بها كتاب البخلاء، وفيها نرى سهلاً يحتج للبخل احتجاجاً فيه حوار الجاحظ وجدله، وفيه أيضا فصحاته ولَسنه، بحيث يختلط الأمر على الناظر فى هذه الرسالة، فيخيل إليه أنه ربما كانت من صنع الجاحظ، وإنما نحلها سهلاً لمأرب فى نفسه. ولكن هذا الظن ينمحى إذا قرأنا مابقى من نثر سهل فى مواضع أخرى.

ومن يرجع إلى الرسالة يجدها تذم الكرم وتزرى به، فى حين تمدح البخل وتثنى عليه، وهو ثناء أراد به التعصب على العرب وذم صفة الكرم التى لهج شعراؤهم بذكرها ومدح مايضادها من الشح والبخل[1] وقد رويت فى البيان

---

(١) «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ص ١٤٩.

والتبيين لسهل قطعة فى الخطابة والخطباء، إذ نرى سهلاً فيها يفضل الخطيب قبيح السَّمْت على الخطيب حسن السمت[1]. وفى ذلك قلب للحقائق ومخالفة للعرف الشائع بين الناس. وفى القطعة أيضا مايدل على اتخاذ الرجل الجدل والحجاج مذهباً لكنهما صفتان مشتركتان بين سهل والجاحظ، ولذا فسنجرى على القطعة التحليل الأسلوبى للغة النص الذى سبق أن أجريناه على الرسالة المنسوبة إلى سهل فى بخلاء الجاحظ. ففى هذه القطعة نجد عدداً من الخصائص التركيبية سبق أن لاحظناها فى رسالة البخلاء ومنها: اللجوء إلى خصيصة الوصف وشيوعها بنسبة كبيرة مثل: (جميلاً، بهياً، ذا لباس نبيلا، وذا حسب شريفا) ومن تعدد الصفات أيضا للمكون التركيبى الواحد «وكان الآخر قليلاً قميئا، باذ الهيئة دميماً، وخامل الذكر مجهولاً». غير أنه فى هذه المرة فصل بين مجموع الصفات باستخدام العطف وسيلةً تركيبية لم يلجأ إليها فى وصف المكون (أحدهما) وهو يحدث تناسقاً فى الإيقاع بين المركبات بأن يورد الوصف مفرداً يليه الوصف المركب إضافى (بهياً + ذا لباس + نبيلا + ذا الحسب + شريفا). وفى وصف الآخر (قميئاً + باذ الهيئة + دميماً + خامل الذكر + مجهولا). ومثله: - (الموجود الراهن المقيم) و (الغريب القليل) و (النادر الشاذ) ومثله: (الجمهور الأعظم) و (السواد الأكبر). وفى هذا تكثيف للصفات بوسائل تركيبية متعددة. ففى البداية كان يورد الصفات معرّفة لمطابقتها لموصوفها وهو يوردها أيضا منكّرة (عالم حكيم) ويوردها بالإضافة (معتدل الأخلاط عليم).

وهو يعدل عن الوصف بالمركب الإضافى فيورد المفرد المضاف معرفاً على هيئة (القوى المُنّة) و (الوثيق العُقْدة). ومن هذه الخصائص التركيبية، إيراد صيغة «أفعل» بل الكلف بإيرادها فى نهاية التركيب، وهى أشيع وروداً فى بداية التركيب ووسطه مثل لزن النفوس كانت له أحقر)، و(من بيانه أيأس) و (من حسده أبعد). ومن تلك الخصائص العمل إلى صنع تراكيب متماثلة رغبة فى إيقاع مقصود

---

(١) البيان والتبيين جـ١ - ص ٨٩.

اعتماداً على عطف النسق في أغلب الأحيان إذا هجموا منه على مالم يحتسبوه) و(ظهر منه خلاف ماقدروه) و (تضاعف حسن كلامه في صدورهم) و (كبر في عيونهم). فهذا التركيب ممتد يحوى شرطاً وجزاءً، وكان يمكن أن يكون معقداً إذا خلا من الروابط. لكن سهلا يُحدث فصلاً بين الجمل بعطف النسق قصداً تبسيطها، والاستفادة من إيقاعها، فتصبح مركبات متساوية موقعة مثلٍ إذا هجموا منه على مالم يحتسبوه + ظهر منه خلاف ماقدروه) و (تضاعف حسن كلامه في صدورهم + كبر في عيونهم).

وعطف النسق من الإمكانات التركيبية التي تتيح للكاتب التخلي عن بعض المكونات في التركيب الثاني المعطوف بحيث يحدث تساوٍ بين الجمل (كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة + وفي وزن واحد من الصواب) ومثله (الناس موكّلون بتعظيم الغريب + استطراف البديع). وقد يحدث أحيانا تعادل في التركيب ميولا إلى كسر الرتابة الناشئة عن التطابق. وذلك بعدم تكرار العنصر الأول في التركيب الأول بعد حرف العطف التركيب الثاني، وزيادة عنصر قبل نهاية التركيب الثاني مثل (زهد الجيران) في التركيب الأول و(الفائدة) في التركيب الثاني (زهد الجيران في عالمهم + والأصحاب في الفائدة من صاحبهم) ومثله (يتركون) في التركيب الأول. و (في وجه العلم) في التركيب الثاني (ويتركون من هو أعم نفعاً + وأكثر في وجوه العلم تصرفاً).

ومن وجوه التطابق في المركبات بالحذف دون الزيادة (الخليفة بليغاً + السيد خطيباً) ومثله دون حذف أوزيادة مركب التمييز (أخف مئونة + أكثر فائدة).

ومن هذه الخصائص التركيبية اللجوء إلى صنع تضاد داخلي بين المكونات مع إحداث تماثل خارجي بين البنيات والمركبات مثل (على هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم + ويرحلون إلى النازح عنهم) ومثله وإذا كان الحب يعمى عن المساوىء + فالبغض يعمى عن المحاسن) ومثله (الخارجي على العريق + الطارف على التليد) وهناك خصيصة تركيبية دلالية في الآن نفسه تعتمد على

البنية التركيبية (كلما كان + أفعل + كان + أفعل) وهى تعتمد على ثقافة لغوية مستقاة من كتب فقه اللغة ككتاب الثعالبى. وتعتمد على التدرج الدلالى (أغرب← أبعد← أطرف← أعجب← أبدع) وذلك فى قوله (لأن لاشىء من غير معدنه أغرب + وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم + وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطرف وكلما كان أطرف كان أعجب + وكلما كان أعجب كان أبدع) وهذه الخصيصة تتسم بكثرة الروابط بين الجمل فى تحويلها من بنية أكبر إلى بنى أصغر من انبناء كل صفة على الأخرى وصولا إلى الغاية التى يتغيّاها الكاتب من فكرته. وقد ورد فى الرسالة المنسوبة إلى سهل فى بخلاء الجاحظ وسأوردها هنا بعد أن فرغت من تحليل الرسالة. وذلك لأننى ادخرت هذا الجزء من الرسالة للاستعانة به، ومعالجته فى هذا الموضع بخاصة. وإذا كانت الفكرة السابقة تعتمد على التدرج الدلالى للمفردات، فهذه القطعة تعتمد على التراكيب والهدف واحد هو الوصول إلى الغاية التى يتغياها الكاتب وهو الاحتفاظ بالأموال «وأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، وأن من لم يعرف للغنى قدره، فقد أذن الفقر وطاب نفساً بالذل»[1] ومثله «وزعمت أن كسب الحلال مضمّن بالإنفاق فى الحلال، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث، وأن الطيب يدعو إلى الطيب، وأن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الحقوق، وأن الإنفاق فى الحقوق حجاز دون الهوى. فعبتم علىّ هذا القول»[2] ومثله «وقلت لكم، عند إشفاقى عليكم» إن للغنى سُكراً وإن للمال لنزوة، فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله»[3]. أما صيغة «أفعل» فترد فى الرسالة ذاتها المنسوبة إلى سهل فى بخلاء الجاحظ فى نهاية تركيبين ممتدين بل مفرطين فى الطول تفصل بين جملها روابط عديدة بحيث يتكون التركيب من أن المصدرية والصيغة «أفعل» .

(١) الجاحظ (البخلاء) ص ٢٦.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٧.

هى المعمول الثانى الذى يرد ساكناً فى التركيب ليحدث إيقاعاً خارجياً إضافة إلى الإيقاعات الداخلية الحادثة بالجمل القصيرة والروابط (وعبتمونى حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار، ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط، وحباء الملوك أسرع) فالمعمول الأول لـ (أن) عدد من المركبات تفصل بينها واو العطف (التبذير إلى مال القمار + مال الميراث + إلى مال الالتقاط + وحباء الملوك). ومثله (وأن الحفظ إلى المال المكتسب والغنى المجتلب، إلى مايعرف فيه لذهاب الدين واهتضام العرض ونصب البدن واهتمام القلب أسرع)[1].

فالمعمول الأول لأن (الحفظ إلى المال المكتسب + الغنى المجتلب + إلى مايعرض فى + ذهاب الدين + اهتضام العرض + ونصب البدن + اهتمام القلب) وهذه بنيات داخلية لاتكتمل دلالة التركيب الكلى إلا بانضمام صيغة «أفعل» إلى كل منها. وهى تشبه فى لغة الرياضيات ع (أ + ب + ج + ء + هـ + و). ونتوفر على التضاد بين المفردات والتماثل فى التراكيب فى رسالة بعثها سهل لأحد أصدقائه حين تماثل للشفاء[2] «بلغنى خبر الفترة فى إلمامها وانحسارها، والشكاة فى حلولها وارتحالها».

فنلاحظ التضاد بين الوحدات التركيبية فى (إلمامها + انحسارها) و (حلولها + ارتحالها) وبين المجموعتين ترادف. أما الأطر الخارجية للتراكيب فبينها تماثل يتضح فيه (الفترة فى إلمامها وانحسارها + الشكاة فى حلولها وارتحالها). ونلاحظ هنا دور الواو فى تشكيل الأنساق الداخلية بين المفردات والخارجية بين التراكيب. ومثله (فكاد يشغل القلق بأوله، عن السكون لآخره + وتذهل الحيرة فى ابتدائه عن المسرة فى انتهائه). ونلاحظ أن واو النسق أغنت عن تكرار (كاد) ومع ذلك

---

(١) الجاحظ ص ٢٦.

(٢) ابن نباته – سرح العيون ص ٢٤٥.

– أحمد زكى صفوت – «جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة» – المكتبة العلمية (بيروت ١٩٣٧ م الجزء الثالث – ص ٣٩٤ الرسالة ٢٧٩.

فقد اختلفت مادة الفعلين (يشغل + تذهل) وتبعاً لذلك اختلفت المفردات تبعا لتماثل الفعل مع المفرد الذى يلائمه (القلق بأوله عن السكون لآخره + الحيرة فى ابتدائه عن المسرة فى انتهائه) ونلاحظ تماثل البنيات الصغرى فى (القلق بأوله عن السكون لآخره + الحيرة فى ابتدائه عن المسرة فى انتهائه) ونلاحظ إحداث التضاد بين المفردات فى (القلق + السكون) و (أوله + آخره) ومثله (الحيرة + المسرة) و (ابتدائه وانتهائه). وبين هذه المتضادات ترادف. ومثله (ارتياعا للأولى - وارتياحا للأخرى).

وإذا كان هذا هو أمر البنيات الكلية والبنيات الصغرى، فإن هناك نمطاً تركيبياً ملتزماً فى هذه الرسائل والخطب التى ثبت نسبتها إلى سهل بن هارون. هذا النمط وضعنا أيدينا عليه فى تحليلنا للرسالة المنسوبة إلى سهل فى بخلاء الجاحظ، وهذا الجانب اللغوى التركيبى يرجع نسبة الرسالة موضوع البحث إلى سهل بن هارون. أما جانب قلب الحقائق وتفضيل ماشاع بين الناس عدم تفضيله، فيتضح فى رسالة سهل بن هارون الخاصة بتفضيل الزجاج على الذهب لما شاع بين الناس من حب الذهب وتفضيله على الزجاج خصوصاً بين جمهرة الكُتّاب، شأنه فى ذلك شأن صنيعه فى رسالة البخلاء حيث أقنع القارىء بجدوى المذهب الذى اعتنقه وفضله على مذهب الجود والكرم وقد عبر عن ذلك بالكناية وبالتصريح ملتزما فى ذلك حيلا فنية أوضحناها فى الفصل الخاص بتحليل الرسالة.

وفى صدد إيراد صاحب جمهرة رسائل العرب لرسالة تفضيل الزجاج على الذهب لسهل بن هارون، أن سبب قوله لها إن شداداً الحارثى كان قد وصف الذهب فأطنب، وكان النظام قد ذم الزجاج، فأنشأ سهل بن هارون رسالته التى يقول فيها[1] : «الزجاج مجلوٌ نورى، والذهب متاع سائر، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن، ولايفقد معه وجه النديم، ولايُثقل اليد، ولايرتفع فى السَّوْم، واسم الذهب يتطير منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام، وهو فاتن فاتك لمن صانه، وهو أيضا من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران،

(١) جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة - جـ٣ - ص ٣٩٤.

والزجاج لايحمل الوَضَرَ، ولايداخله الغمر ومتى غسل بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه بالماء وصفته عجيبة وصناعته أعجب».

وقد عنانى من الرسالة هذا الجزء الخاص بالجانب الفكرى، خصوصاً محاولة الإقناع، بالفكرة الغريبة على المستمع والقارىء، وذلك بالإلحاح على الفكرة الواحدة بتعديد مآثر الزجاج، ومحاولة بخس الذهب بصنع متقابلات من التراكيب، نلحظ فيها جنوح سهل نحو الإقناع بالمنطق، وتنفير السامع من الذهب بخوضه فى مجال آخر يخرج عن دائرة المقارنة بذكر صفات كل طرف من طرفى المقارنة، فيقول عن الذهب (وهو أيضا من مصايد إبليس) و (أهلك الرجال الأحمران) و (اسم الذهب يتطير منه) و (ومن لؤمه سرعته إلى اللئام). وهذا يخرج عن دائرة المقارنة بالصفات التى يتضح فى قوله (الزجاج مجلو نورى) و (الذهب متاع سائر) و(الشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن)، و(لايفقد معه وجه النديم) و (لايثقل اليد) و (لايرتفع فى السُّوم) و (وهو فاتن فاتك لمن صانه) «يقصد الذهب» و (الزجاج لايحمل الوضر ولايداخله الغمر) و (ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً).

ولميل سهل إلى الزجاج ولرغبته فى تفضيله على الذهب اختصه بصفة تنطبق على الزجاج وعلى الذهب وعلى كثير من المعادن فقال (وصفته عجيبة وصناعته أعجب) ومذهب سهل بن هارون الشائع فى الرسالة المنسوبة إليه فى بخلاء الجاحظ تكاد تجد له أثرا فى هذه الرسالة حين يقول عن الزجاج «ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً» فهو لايكتفى بقوله «غُسل بالماء» بل يقول «وحده» يقصد من وراء ذلك أنه غير مكلف فى تنظيفه فى حين لايحظى بذلك الذهب. ولم يقدم سهل للقارىء كل صفات الزجاج، بل اختار له محاسن صفاته وإن ضلله فى بعضها. ولم يقل له إنه أسرع إلى الكسر. لكن القارىء الفطن يعرف ذلك ويدرك كثيراً من الحقائق التى حاول سهل بن هارون أن يضلله عنها بقوة حجته ومنطقه واستطاعته أن يقلب الحقائق وإغفاله متعمداً كثيراً من صفات الأشياء وحقائق الأمور مستعيناً فى ذلك بقدرته وتمكنه من ناصية اللغة وسعة

موروثه العلمى الحكمى وعلو ثقافته. وأنا لم أنكر سواء في تحليل النص أم فى نسبته إلى صاحبه الأصلى مدى التشابه الذى يمكن أن يقع بين أسلوب كل من سهل بن هارون والجاحظ، فالقالب الفنى واحد، والعصر واحد، والمهنة التى امتهنها كل منهما واحدة، واتصل كل منهما بعلية القوم فى عصره، وتسنم كل منهما أرقى المناصب الكتابية، وتثقف كل منهما بثقافات واحدة متشابهة.

فقارىء هذا النص النثرى من كلام الجاحظ مثلا: «جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة - وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً. وحبب إليك التثبت، وزين فى عينك الإنصاف، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذلك اليأس. وعرفك الباطل من الذلة، ومافى الجهل من القلة»[1].

يجد قارىء هذا النص نفسه يقف إحدى عشرة مرة أثناء قراءته، وقد تختصر إلى تسع مرات إذا قرأ الجملة الثالثة كلها دفعة واحدة «وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً» وكذلك الجملة الأخيرة «وعرفك ما فى الباطل من الذلة، ومافى الجهل من القلة» ولكن السجع بين نسبا وسببا والذلة والقلة يدعو إلى إيثار الوقف على «نسب» و «الذلة» ، لكى تظهر كل منها صوتيا مع الأخرى. وبوسعه بالطبع أن يقرأ كل جملتين معاً، أو كل ثلاث إذا استطاع، ولكنه - إذا أراد الوقف بين الجمل - لايقف إلا على نهاية الجمل المرقومة بنقطة برغم أن الجمل جميعا تعاطفت بأعم حروف العطف وهو الواو[2] والخصائص التركيبية فى هذا النص الجاحظى لاتكاد تختلف كثيراً عنها فى بعض فقرات رسالة سهل بن هارون، وذلك لأن هناك ظواهر تركيبية ثابتة فى الاستعمال اللغوى، ذلك أن كثرة الروابط بين الجمل تؤدى إلى إمكانية الوقف عند المركبات القصيرة أو عند مجموعة من هذه المركبات إذا شاء القارىء.

والحقيقة أن جميع النصوص التى حللناها لكل من سهل والجاحظ تتسم

---

(١) الجاحظ، الحيوان ٣/١.

(٢) د/ محمد حماسة عبد اللطيف «الجملة فى الشعر العربى» ص ٢٦.

بكثرة الروابط إذا ماقورنت مثلاً بالكتابات النثرية الحديثة، أو بأية أنماط أخرى من الكتابة، أضف لذلك أن عطف النسق بخاصة يتيح إمكانية التخلص من التكرار بالاستغناء عن بعض الوحدات التركيبية، التي يكتفى بذكرها مرة واحدة فى بداية التركيب الأصلى، وتسمى الفعل الرئيسى، وكذا يمكن الاستغناء عن كثير من حروف الجر أو المضاف فى بعض الأحيان اللهم إلا إذا أراد المنشىء صنع ألوان من التوازن والتساوى بين المركبات لكى يضفى لونا من الإيقاع على تراكيبه اللغوية وثمة شبه أصيل فى هذه المقدمة الدعائية للقارىء وبين ماورد فى مقدمة رسالة سهل إلى آل زياد. وقد أشرت عند تحليلى للرسالة إلى أن هذه الظاهرة تعدّ تقليدا فى الكتابة النثرية.

وقد أوردت هذا النص الجاحظى، أولاً: لأن هناك ثمة تشابهاً بين أسلوبى الرجلين. وبالرغم من ذلك فإننى أرجح نسبة الرسالة إلى سهل بن هارون، وثانيا: لكى لايظن القارىء أننى تبنيت منذ البداية رأياً بنسبة الرسالة إلى سهل بن هارون، وذلك باستعراض بعض النصوص الثابت نسبتها إلى سهل وحسب. والحقيقة أننى عند بداية تحليلى للرسالة الأصلية ظننتها للجاحظ، وظللت على هذا الظن إلى أن حللت نصوصاً لسهل ومن خلال مقارنة التراكيب رجحت نسبتها إلى سهل بن هارون لتشابه البنيات التركيبية الكبرى والصغرى لهذه النصوص مع أبنية الرسالة المنسوبة إلى سهل فى بخلاء الجاحظ.

- ولو حددنا المواد لعدة مبدعين، وطلبنا منهم أن يكتبوا نصوصاً إبداعية بعد أن نحدد لهم الزمن النحوى الذى يجب أن يستخدم، وزمن النص بمعظم فنياته، بالإضافة إلى الأمكنة المحورية والفرعية، والشخصيات مع أسمائها وأبعادها، وعلاقاتها، والمادة الحكائية وارتباطاتها بالزمن والمكان والشخصيات.

مع العلم أن مفردات اللغة كلها فى متناول يدهم فهل يصوغون نصوصا تنم عن بنى متشابهة تركيباً ودلالة؟.

بالتأكيد ستأتى النصوص متباينة وربما مختلفة جداً، فمنهم من يطرح المادة

الحكائية فى النص ويحدد الحكاية مباشرة، أو يطرح مفاتيح نصية تحدد جزءاً من المادة الحكائية فى البداية، أو يؤجل حكاية النص إلى النهايات، ومنهم من يطرح شخصية البطل فى بداية السرد ثم يطرح الشخصيات المساعدة أو المعيقة بشكل اعتباطى أو بشكل منظم فى أوقات متفاوتة على الشريط اللغوى، أو يظهر البطل فى النهاية لرؤية يرتئيها، ويبدأ بطرح الشخصيات الثانوية أو يطرح الشخصيات كلها دفعة واحدة ومن البداية، أو يؤجلهم إلى نهايات النص .. الخ. كذلك فى الزمان والمكان فمنهم من يوقف الزمن على الشريط اللغوى لفترة طويلة ثم يسرعه فى النهاية، أو يسرعه فى البداية ويعطله فى الوسط، ثم يجعله بطيئاً فى النهاية أو يعكس الزمان... الخ. أما الأمكنة فيوزعها البعض على الشريط اللغوى بشكل اعتباطى أو منظم، ومنهم من يفعل لا هذا ولاذاك وإنما ينهى الشريط كله بقفزات زمانية متوازنة وفق الزمان الذى حددناه، وكذلك يفعل بالأمكنة أو يجد لها تقنيات أخرى كثيرة جداً. وهكذا، فعند استرجاعنا للمواد التى حددناها للمبدعين بشكل نصوص، نجد أن عملية النسج هى التى تظهر الفارق الإبداعى، وهى التى تحدد شروط النجاح أو الفشل، وهى التى تحدد جمالية النص تركيبا ودلالة، لأن كل تركيب جديد يؤدى إلى دلالة جديدة[1].

فلو توفر لدينا أن كلامن الجاحظ وسهل قد كتبا فى الموضوع ذاته، أو كلف كل منهما نفسه بالرد على ناقديه، وأن بين كل من الكاتبين قدراً كبيراً من وجوه الشبه فى لون الكتابة التى يمارسها والثقافة التى ألمّ بها، والعصر الذى يعيش فيه، والبيئة التى يحيا فيها ونحن فى الواقع نعالج هذا المأزق، فبين الرجلين قدر كبيرمن التشابه فى التكوين الأدبى، والمهام التى يمارسها فى حياته. وليس لدينا يقين بنسب الرسالة الحقيقى ومع ذلك فلابد أن تكون هناك فروق تركيبية ودلالية، وكذا جمالية لانركز عليها فى هذا المقام (أقصد الجمالية) وهذه الفروق

---

(١) د/ صبحى الطعمان «بنية النص الكبرى» – مجلة عالم الفكر – المجلد ٢٣ ، ع ١ ،٢، ١٩٩٤ ، ص ٤٣٤.

متحققة فالجاحظ صاغ نوادره وطرائفه عن البخلاء فى أسلوب حوارى يختلف بالطبع عن الأسلوب الذى صيغت به الرسالة فالرسالة قد وصفت لنا أحداثاً، لكن كتاب «البخلاء» يحوى رسائل أخرى هذه الرسائل تصف مجموعة أخرى من الأحداث والوقائع، واختلاف الحدث أو الواقعة يتبعه ولابد اختلاف فى الحدث اللغوى، ومن ثمّ اختلاف فى الدلالة ومعجم الألفاظ المستخدمة فى الرسالة، وطرق توليف هذه الألفاظ معاً فى صنع مركبات لإنتاج الدلالة المقصودة. وبالفعل وجدنا ثمة خصائص تركيبية، وألفاظاً تستخدم استخداماً خاصاً تتوفر فى الأعمال التى أنتجها سهل بن هارون، وهى ثابتة أيضا فى الرسالة المنسوبة إلى سهل من بخلاء الجاحظ.

«خاتمـــة»

للعرب نظرة تحليلية اقتضت منهم الاعتناء بالجزئيات وقد بالغوا فى ذلك أحيانا نعم، كما أن ذلك لم يقدهم فى القليل النادرإلا إلى استخلاص نظريات معينة أو تأليف آراء شاملة. إنهم أهل عمل وتطبيق وأهل ممارسة وتحقيق، يمكن أخذهم على أنهم غالبا مابقوا سجينى هذا السلوك فلم يتجاوزوا الوصف والتحليل الى التعمق والتأليف. كل مافى الأمر أنهم لم يتجردوا من النص ولم يتعدوا عنه ليتيسر لهم النظر إليه بعد الخبرة من بعيد. ولكن إذا لم يكن العلم قد أفاد من هذا الموقف كثيراً فإن التعليم غنم غنما كبيراً.

وبعد فتفكيك النص وسيلة لكشف مافيه من خصائص، وكشف مدى مطابقته من قواعد أو خروجه على العُرف المألوف، وأن له دلالات خاصة قد لا تستطيع القواعد البشرية أن تضبط العلاقة بين الاستعمال والدلالة المقصودة. كما أن اللغة ذاتها قد وضعت لنفسها على مر العصور وسائل لتنمية قدرتها على مواكبة استعمال بشرى والوفاء بأداء المعانى التى يتطور اليها الفكر البشرى.

وهذا التفكيك أيضاً وسيلة لكشف الرمز واستيضاح المكنون فى نفس الكاتب أو الشاعر بحيث لا تعبر عنه الدلالة الكلية للنص. وهذا التفكيك قادر على تحليل المكونات وتبعاً لذلك اكتشاف العلاقات التى تؤدى بدورها الى كشف حقيقة النص وتفاصيله وابعاده وخلفياته التى يذكر بعضها فى النص، وقد يكون لها علاقة بنص آخر يسهم فى اكمال كشف الرمز.

والتفكيك وسيلة للتوثيق بتحليل البنيات الكلية والبنيات الصغرى، وتحديد ما بينهما من علاقات وكشف مدى التشابه بين البنيات فى هذا النص وبنى نصوص أخرى.

فهناك وجوه اتفاق بين خصائص الرسالة التى نُعنى بمعالجتها وبين خصائص أدب الجاحظ، لكن هناك اختلافات فى بعض الخصائص، كالجانب الحوارى

المسرحي الشائع في نوادر البخلاء. أما تحليل البنيات الصغرى والكبرى فقد كشف أوجهاً للاتفاق بين الرسالة وبين النصوص الثابت نسبتها إلى سهل بن هارون. ولا يظنن ظانٌ أنني توخيت منذ البداية نسبة الرسالة الى سهل، خصوصاً أنني حللت الرسالة وقابلتها بنصوص سهل بن هارون ولم ألجأ في الوقت نفسه الى مقابلتها بتحليل نصوص للجاحظ، حقا صنعت ذلك لأن كتاب البخلاء نسب الرسالة إلى سهل وكذا. الناسخ والمحقق. كما أن أدب الجاحظ وخصائصه نالت الكثير من التحليل والعرض، وشاعت خصائصه الفنية حتى لدى أصغر الطلاب. ونال فن الجاحظ دراسات جامعية وأبحاث أكاديمية عديدة في أنحاء العالم العربي وخارجه، ولم يعدّ أسلوب الجاحظ غريباً. وحسبي أنني قمت بتحليل النصوص تحليلاً علمياً دقيقاً، وعرضت للآراء المختلفة وناقشتها وظللت أشك في الأمر ولا أعمد إلى الترجيح إلا بعد التوفر على عدد من الدلائل يجعلني أحكم بثقة على نسبة النص لصاحبه، والتحليل من بعد أمام الباحثين متروك ليصل منهم من شاء الى ما يعتقد فيه.

«نتائج البحث»

نخلص مما سبق الى النتائج الآتية:

١) على النحاة ألا يتمسكوا بما تمسك به الأوائل من قواعد، فلكل عصر ظروفه، ولكل علم نشأة وتطور، والاستعمال العربى فى تطور مادامت الحياة مستمرة.

٢) أن منشئ النص هو الذى يتوخى معانى النحو فى مراحل إنشاء النص بحيث يعقد علاقات بين الجمل والتراكيب المختلفة التى تمثل ما يجول بفكره مكونا فى النهاية شبكة العلاقات التركيبية التى تنتظم النص.

٣)أن اتجاه المحلل العربى يعد عكسياً بالنسبة لاتجاه المنشئ وعلى هذا فقيامه بالتجزئ لايعد عيبا يتهم به لأنه وسيلته لإدراك تماسك النص وانسجامه.

٤) اهتمام علماء العربية بفعالية المعنى النحوى فى شرح النصوص وتفسيرها.

٥) اهتمام العلماء بالجزئيات في كل بيت أو جملة من النص يعد اهتماماً بالنص أيضاً، إن مجموع هذه الجزئيات يشكل جميع النص غير أن اهتمامهم انصب على الملاحظات اللغوية أو البلاغية أو الدلالية لما أشكل على المستمع.

٦) ارتبطت الشروح بالسياق اللغوى من حيث ترجيح وجه إعرابى بعينه. فالمسائل النحوية فى الشرح يثيرها بيان المعنى للعبارة أو للبيت كله.

٧) لاتتضح ملامح فكر بعض الشعراء والكُتّاب وإبداعهم من خلال عمل واحد بل من تحليل الأعمال مجتمعة.

٨)إن رصد التجاوزات فى استخدام التراكيب يجب أن ينبع من مقارنة تراكيب النص الواحد أو من نصين لكاتب واحد لا اعتماداً على ما تم رصده فى كتابات النحاة واللغويين المتقدمين.

٩) إن كسر العلاقة العرفية بين المسند والمسند إليه قد يكون واقعاً بين الرغبة فى صنع ألوان بلاغية وبين التناسب فى التأليف والإيقاع.

١٠) عطف النسق من الإمكانات التركيبية التى تتيح للكاتب التخلى عن بعض المكونات فى التركيب الثانى المعطوف بحيث يحدث تساوٍ بين الجمل.

١١) يجب أن تتوافق دلالة التركيب مع الوظيفة النحوية للمكون موضع المسألة.

١٢) قد يتجاوز التصادم حد القواعد والمعانى القرآنية ويمتد إلى المعانى وبعضها إذا قيست هذه المعانى بما فُطر عليه الإنسان وما يسلكه من معاملات بشرية.

١٣) إن إلف المعانى القرآنية هو المخرج لتدبر معانيه التى تتجاوز قواعد النحو ونظام اللغة ودلالة المعاجم.

١٤) إن استعمال المفردة لأكثر من معنى واستخدام المفردة نفسها للدلالة على المذكر والمؤنث من ناحية والمفرد والمثنى والجمع من ناحية أخرى يكسب اللغة مرونة واتساعاً للعديد من الاستعمالات؛ ومن أخص خصوصيات العربية أن الأداة الواحدة قد تكون اسماً فى بعض الاستعمالات وقد تكون هى نفسها حرفاً فى استعمالات أخرى.

١٥) لدينا نوعان من التلازم الأول فى الوظائف النحوية بين المبتدأ والخبر وأشباههما والثانى فى الوظائف الدلالية بين الموصول وجملة الصلة، وقد أولى نظام اللغة التلازم الدلالى موقعه مقارنة بالتلازم فى الوظائف النحوية وذلك لأن اللغة استعمال وتركيب أما مسألة الوظائف التى ألبستها المكونات فهى من صنع النحاة.

١٦) يمثل عطف النسق ظاهرة أسلوبية مميزة وُظفت للإيجاز واختصار أكبر عدد من المكونات فى التراكيب القرآنية.

«المصادر والمراجع العربية»

١- القرآن الكريم كتاب الله العزيز.

٢- «الإتقان فى علوم القرآن» السيوطى - مطبعة حجازى - ط٣. القاهرة ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١م.

٣- «الأحكام» - الآمدى - الناشر دار الكتب - بيروت - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

٤- «الأشباه والنظائر» السيوطى - طبعة حيدر آباد - ١٣٥٩هـ.

٥- «الإيضاح فى علوم البلاغة» - الخطيب القزوينى - ط٤ - ١٩٧٥م بشرح وتحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي - دار الكتاب اللبنانى - بيروت.

٦- «إملاء مامن به الرحمان من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن» العكبرى مطبعة التقدم - القاهرة - ١٣٤٧هـ.

٧- «البخلاء» - الجاحظ - دار المعارف - ١٩٤٨م - القاهرة.

٨- «البرهان فى علوم القرآن» الزركشى - ط٣ - بيروت، لبنان ١٩٧٢م.

٩- «البيان والتبيين» الجاحظ - طبعة الحلبى - القاهرة.

١٠- «بحوث فى النص الأدبى» د. محمد الهادى الطرابلسى - الدار العربية للكتاب ١٩٨٨م.

١١- «التبيان فى شرح الديوان»، العكبرى، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ١٩٣٦م.

١٢- «التحرير والتنوير» محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر تونس - ١٩٨٤م.

١٣- «التصور اللغوى عند الأصوليين» د. السيد عبد الغفار - دار المعرفة الجامعية - ط١ - ١٩٨١م.

١٤- تفسير البحر المحيط - لأبى حيان - نشر مكتبة النصر الحديثة السعودية.

١٥- «تناسق الدور فى تناسب السور» السيوطى - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١ - ١٩٨٦م.

١٦- «الجاحظ» د. محمد أحمد الحوفى - دار المعارف - القاهرة - ط١ - ١٩٨٠م.

١٧- «الجامع لاحكام القرآن» القرطبى - دار الكتب - القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م.

١٨- جامع الأصول من أحاديث الرسول، أبو السعادات بن الأثير الجزرى، تحقيق محمد حامد الفقى، ، ط١، ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.

١٩- «الجملة فى الشعر العربى» د/ محمد حماسة عبد اللطيف - ط١ - ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠م - الناشر مكتبة الخانجى - القاهرة.

٢٠- «جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة» د/ أحمد زكى صفوت - المكتبة العلمية - بيروت ١٩٣٧م.

٢١- «الحيوان» الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة الحلبى - القاهرة.

٢٢- «خصائص الأسلوب فى الشوقيات» د. محمد الهادى الطرابلسى دار المطبوعات التونسية - تونس ١٩٨١.

٢٣- «دراسات أدبية مفهوم النص» دراسة فى علوم القرآن د./ نصر حامد أبوزيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط١ - ١٩٩٠م.

٢٤- «دراسة الأدب العربى» د/ مصطفى ناصف - دار الأندلس لبنان - بيروت - ط٣ - ١٩٨٣.

٢٥- «دراسة المعنى عند الأصوليين» د. طاهر سليمان حمودة - الدار الجامعية للطباعة - الإسكندرية.

٢٦- «دلائل الإعجاز» عبد القاهر الجرجانى - طبعه المنار.

٢٧- «ديوان المتنبى فى العالم العربى» بلاشير - مطبعة نهضة مصر - القاهرة.

٢٨- «سرح العيون لابن زيدون» لابن نباته المصرى - ١٩٥٧م - القاهرة.

٢٩- «شرح الاشموى على الألفية» ط النهضة - القاهرة - ١٩٥٥م.

٣٠- شرح الخطيب التبريزى على ديوان ابى تمام - تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف - الطبعة الخامسة - ١٩٥١.

٣١- شرح القصائد السبع الطوال - ابن الأنبارى - دار المعارف القاهرة - تحقيق عبد السلام هارون - ١٩٦٣.

٣٢- شرح القصائد العشر - الخطيب التبريزى - القاهرة - ١٣٥٢هـ.

٣٣- «شرح ديوان ابن أبى حصينة - «أبى العلاء المعرى» - تحقيق محمد أحمد طلسى - المعجم العلمى بدمشق - د. ت.

٣٤- «الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها» أحمد بن فارس - المكتبة السلفية - القاهرة - ١٣٢٨هـ.

٣٥- «الضرورة الشعرية فى النحو العربى» - د/ محمد حماسة عبد اللطيف مكتبة دار العلوم ١٩٧٩م.

٣٦- «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» العلوى يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.

٣٧- «العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب» يوهان فك نقله إلى العربية د/ عبد الحليم النجار - القاهرة - ١٩٥١م.

٣٨- «علم اللغة العربية» مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية - د. محمود فهمى حجازى - دار الثقافة للنشر والتوزيع - د. ت.

٣٩- «علم اللغة والدراسات الأدبية» لبرند شبلز - ترجمة د/ محمود جاد الرب - الدار الفنية للنشر والتوزيع - القاهرة - ط١ - ١٩٨٧م.

٤٠- «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» د/ شوقى ضيف - دار المعارف القاهرة - ط٨.

٤١- فتح البارى فى شرح صحيح البخارى.

٤٢- «فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر» أحمد الدمياطى الشهير بالبنا - نشر د/ عبد الحميد أحمد حنفى - القاهرة - ١٣٥٩هـ.

٤٣- «اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها» د/ نايف خرما - سلسلة عالم المعرفة الكويت - ١٩٨٨م.

٤٤- «اللغة» فندريس • تعريب عبد الحميد الدواخلى - محمد القصاص مكتبة الانجلو المصرية- د. ت.

٤٥- «اللغة والإبداع الأدبى» - د/ محمد العبد - ط١ - ١٩٨٩م دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة.

٤٦- «اللغة وبناء الشعر» - د/ محمد حماسة عبد اللطيف - ط١ - ١٩٩٢م.

٤٧- «لسانيات النص مدخل الى انسجام الخطاب» - محمد خطابى - ط١ ١٩٩١ - المركز الثقافى العربى - بيروت.

٤٨- «المدارس النحوية» د. شوقى ضيف - دار المعارف - القاهرة - ط٣، د/ عبد المجيد عابدين - دار الطباعة الحديثة - القاهرة - ١٩٥١م.

٤٩- المدخل الى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية.

٥٠- «المزهر فى علوم اللغة وأنواعها» - السيوطى - تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى - محمد أبو الفضل ابراهيم - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.

٥١- «المطالع السعيدة» السيوطى - تحقيق طاهر سليمان حمودة الدار الجامعية للطباعة - ١٩٨١م.

٥٢- «المفضليات على ديوان أبى تمام - تحقيق أحمد محمد شاكر عبد السلام هارون - مصر - ١٩٦٤م.

٥٣- «مجاز القرآن» أبى عبيدة معمر بن المثنى، عارضه بأصوله وعلق عليه د/ محمد فواد سزكين - مكتبة الخانجى - مصر - د. ت.

٥٤- «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» ابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - ١٩٤٨م - القاهرة.

٥٥- مقدمة ابن خلدون - ط القاهرة - د. ت.

٥٦- «من الأنماط التحويلية - فى النحو العربى» د/ محمد حماسة عبد اللطيف مكتبة الخانجى - القاهرة - ١٩٩٠م.

٥٧- «منهج التبريزى فى شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات» د/ فخر الدين قباوة - حلب - ١٩٧٤م.

٥٨- «النحو والدلالة» مدخل لدراسة المعنى النحوى الدلالى - د/ محمد حماسة عبد اللطيف، القاهرة - ١٤٠٣- ١٩٨٣م.

٥٩- «نظام التراكيب وخصائصه فى شعر سقط الزند» د/ ممدوح عبد الرحمن - رسالة دكتوراه - مكتبة آداب اسكندرية - ١٩٩٠م.

٦٠- «نكت الانتصار لنقل القرآن» - الباقلانى - تحقيق د/ محمد زغلول سلام - منشأة المعارف - ١٩٨٢م.

٦١- «همع الهوامع مع شرح جمع الجوامع فى علم العربية»، السيوطى مطبعة السعادة - الطبعه الأولى - القاهرة - ١٣٢٧م.

دوريـــــات

- مجلة فصول – ع١، ٢ ، ١٩٩١م.
- مجلة فصول – المجلد الرابع، ع٤، ١٩٨٤.
- مجلة عالم الفكر – لبنان – المجلد ٢٢، ع ٣، ٤، ١٩٩٤.
- مجلة عالم الفكر – المجلد ٢٣، ع١، ٢، ١٩٩٤.
- مجلة عالم الفكر – العدد ٥، ١٩٨٩م.
- مجلة المعرفة الدمشقية سوريا ع (٣٢٤، ٣٢٥)، ١٩٩٠م.

«المراجع الأجنبية»

1- Coulthard, Malcolm, An introduction To Discourse, Analysis, Longman, 1983.

2- Ullmann, Stephen, Meaning and Style, Oxford, 1973.

3- Guiraud, P. Rhetoric and Stylistics, in Current, trends in Linguistics, Vol 12. Thomas, The Hague - Mouton, 1974.

4- Teuon Van Dayk, "Some Aspects of text Grammar, Mouton, 1972.

5- Wellek, Rene, Warren, Austin, Theory of Literature, Penguin Books, Great Britain, 1982.

فهرس الموضوعات